ماريك هالتر إريك لوران

مجانين السلام

القصة السرية لمفاوضات أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل



دار الطليعة - بيروت

إهـــــــداء 2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

مجانين السلام

القصة السرية لمفاوضات أوسلو
بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل

بيروت ـ لبنان
ص.ب ۱۸۱۳ ـ ١١
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
نيسان (إبريل) ١٩٩٤

ماريك هالتر		إريك لوران

مجانين السلام

القصة السرية لمفاوضات أوسلو
بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل

ترجمة:
هنرييت عبودي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب :

Marek Halter
Eric Laurent

LES FOUS DE LA PAIX

Histoire secrète d'une négociation

Librairie Plon/Laffont
Paris, Fevrier 1994

١

هل في البيت الأبيض قرآن؟

في الساعة الثالثة من صبيحة ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣ غادر بيل كلنتون جناحه في الطابق الثاني من البيت الأبيض قاصداً الـ «ستادي روم»[١]، وهي غرفة مضيئة ملاصقة للمكتب البيضاوي الشهير ومليئة بأصص الفخار الصيني الزاهية بنبتاتها الخضر. ويشغل أحد جدرانها صوان تعلوه ساعة حائط مهيبة ومؤطّرة من جانبيها بشمعدانين.

كان الرئيس الأميركي يرتدي «بولو» أزرق وبنطالاً من الكتّان البني الفاتح. جلس إلى طاولة مستديرة تحتلّ وسط الغرفة، وأضاء مصباحها الكهربائي فشعّت هالة منه على الجدران.

قرأ على مهل بضع صفحات مضروبة على الآلة الكاتبة. كانت عبارة عن مسودّة خطاب حرّره جيريمي روسنر، أحد مساعديه العاملين في مجلس الأمن القومي، وكان يفترض فيه أن يلقيه بعد أقلّ من تسع ساعات في حديقة البيت الأبيض، أمام العدسات المصوّرة للعالم أجمع، ليتوّج به حدثاً تاريخياً كان يجهل عنه كل شيء قبل أسبوع واحد لا غير: الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظّمة التحرير الفلسطينية، وتوقيع اتفاق سلام بين الخصمين اللّدودين.

---

(١) Study Room.

وبما أنّ بيل كلنتون قد عرف عنه قلّة الدراية في شؤون السياسة الخارجية، فقد عقد العزم على تركيز اهتمامه كلّه على ذلك الخطاب.

وأعاد كتابة القسم الأول بتمامه مضمِّناً إيّاه إحالات إلى آيات من توراة كثيرة الحواشي والشروح كان وضعها على الطاولة تحت متناول يده. ثم عدَّل خاتمة الخطاب، معزِّزاً إياها باستشهادات مطوّلة من سفر يشوع، وعلى الأخصّ من مقطع سقوط أسوار أريحا.

وفي الساعة السادسة صباحاً، وفيما كانت واشنطن تنضو عنها ثوب الظلام، أجرى على النصّ آخر تنقيح.

قرأته هيلاري كلنتون وهي تتناول طعام فطورها وأجازته للطبع.

وفي الساعة الثامنة والنصف كان النصّ معداً للسحب على آلاف النسخ برسم الصحافة العالمية، وكذلك برسم الألفين والخمسمئة شخص المدعوين لحضور الحفل الذي كان مقرَّراً أن يبدأ في تمام الساعة الحادية عشرة.

في الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين اتّصل انتوني ليك، رئيس مجلس الأمن القومي، بالمكتب البيضاوي هاتفياً. وشرح لكلنتون، بعبارة بادية الحرج، أنّ أحد معاونيه قد لاحظ أن الخطاب الرئاسي لا يتضمن أيّ إحالة إلى الإسلام. وأضاف ليك قائلاً:

- إن الرئيس عرفات والشخصيات العربية الحاضرة سيُصدمون ولا بد. فأنت تستشهد تكراراً بالتوراة ولا تستشهد مرة واحدة بالقرآن.

أمسك كلنتون لعدة ثوانٍ عن الكلام، ثم قال:

- إليّ بنسخة من القرآن.

ولكن رغم البحث والتنقيب ما أمكن العثور على نسخة من كتاب المسلمين المقدّس في مكاتب البيت الأبيض. وانتهى الأمر بأن قصد أحد المعاونين مكتبة مجاورة ليبتاعه منها.

وكُلِّف خبير من وزارة الخارجية مختصّ بشؤون العالم العربي والقضايا الإسلامية بانتقاء بعض المقتطفات. وبعد أن جرى تعديل النص بما يتفادى

الكارثة الدبلوماسية، تهيأ بيل كلنتون، وهو في أتمّ طمأنينة، لاستقبال ضيوفه.

كان ياسر عرفات قد وصل عشية. فطائرة البوينغ ٧٠٧ التي وضعها الحسن الثاني ملك المغرب قد حطّت في ١٢ تموز/يوليو في تمام الساعة ١٥,٤٥ في قاعدة اندروز العسكرية، على مقربة من العاصمة الاتحادية.

كانت إجراءات الاستقبال البروتوكولية قد قلصت إلى أدنى حد. ولكن على الرغم من أن البساط الأحمر لم يمدّ وقوات الاستعراض لم تصطف، فقد كان في وسع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أن يستمتع كل الاستمتاع بتلك الزيارة، الأولى من نوعها على التراب الأميركي، باستثناء إقامة قصيرة في نيويورك في عام ١٩٧٤ لإلقاء خطاب من فوق منصّة منظمة الأمم المتحدة. وقد كانت الإدارات الأميركية المتعاقبة درجت باطراد ملفت للنظر حتى ذلك الحين على عدم السماح له بدخول الأراضي الأميركية. وكان هذا الرجل المعدود «إرهابياً» في أنظار المسؤولين في واشنطن، قد اضطرّ قبل أربعة أيام إلى القيام بمسعى مذلّ للكرامة، إذْ تقدم بطلب للحصول على تأشيرة دخول لدى سفارة الولايات المتحدة في تونس. وفي اليوم التالي قدم ضابطان قنصليان أميركيان إلى مكتبه لتسليمه استمارة. وقد قام عرفات بملئها وهو يبتسم بتشنج، إذْ كانت ذكرى ما حدث عام ١٩٨٨ لا تزال طرية في ذهنه. فجورج شولتز، وزير خارجية رونالد ريغان يومئذٍ، رفض منحه تأشيرة دخول، على حين أنّ عرفات كان يرغب في أن يرتقي منصة الأمم المتحدة من جديد ليعلن أنّ منظمة التحرير الفلسطينية مستعدّة للتخلّي عن العنف وللاعتراف بحقّ إسرائيل في الوجود.

عند سلم الطائرة التي نزل منها عرفات وهو يرتدي سترة وبنطالاً من الخاكي، وكوفيته الأزلية على رأسه، كان في استقباله ادوارد جرجيان، مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط. مسؤول من رتبة متوسطة، ولكن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ما كان يبالي. فهذه الزيارة لواشنطن هي، على حدّ تعبير أحد المقرّبين إليه، «ساعته المنتظرة لأخذ مكانه تحت الشمس»، والدليل الساطع المقدّم للفلسطينيين، وعلى الأخص لمعارضيه في

«حماس» وجبهة الرفض، على أنّ الولايات المتحدة والعالم أجمع يدعمانه.

شدّ ادوارد جرجيان بحرارة على يده:

ـ سيدي الرئيس، باسم حكومة الولايات المتحدة، أرحّب بمقدمك في هذه المناسبة التاريخية التي ستـؤدّي، لنأمل ذلك، إلى سلم شامل في الشرق الأوسط.

أجاب عرفات، وقد التفّ حوله جمهور صغير من السفراء العرب والمسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الفلسطينيين الأميركيين، قائلاً:

ـ أشكرك وآمل أنا أيضاً أن يُـؤدّي هذا كلّه إلى السلام.

ثم دلف إلى سيارة طويلة سوداء من النوع الذي يتّسع لستة ركاب، وتحرّك الموكب بسرعة متجهاً إلى واشنطن. ولئن يكن جرجيان قد أسرّ لبعض من حوله بجدية تامة قبل أن تحطّ الطائرة: «إنّني لأخشى أن يحاول عرفات تقبيلي كما من عـادته أن يفعـل مـع معـظم الـذين يلتقيهم». فقـد همس الآن أمـام بعض الصحفيين:

ـ بربّكم، هل كنتم تتصوّرون أن يحدث شيء من هذا القبيل؟

ثم أضاف وكأنما يجاوب نفسه:

ـ أمّا أنا، فلطالما أملت ذلك.

بعد ساعة دلف ياسر عرفات من باب جانبي إلى فندق «آنا وستـن»، وصعد حالاً إلى جناحه في الطابق التاسع يحيط به حرسه. أمّا في قاعة الفندق الكبيرة، فإنّ المدعوين إلى زفاف يهودي وجدوا أنفسهم على حين غرّة، مثلهم في ذلك مثل مندوبي مؤتمر نظّمته رابطة الصيادلة، وقد أحاطت بهم أعداد غفيرة من رجال الشرطة.

وبعد ساعتين من وصوله استقبل ياسر عرفات جيمي كارتر. وكانت بادية على الرئيس السابق، صانع اتفاقيات كمب ديفيد، علامات الحماسة والاندفاع. فما كاد يجلس حتى بادر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بالقول:

ـ إنّه ليغبطني أن تكون حكومتنا قد قرّرت أخيراً التحدّث مباشرة معك. إن

الإلتزام الأميركي إلى جانب الفلسطينيين يأتي بعد طول تأخير. إنني أصلّي من أجلك.

وحسب أحد الشهود، فإنّ عرفات بدا وكأنّه «يتقلّب على بساط من السرور». والحقّ أن سروره لن يلبث أن يتضاعف عندما سيأتي جورج بوش بدوره، بعد بضع ساعات، ليزوره في جناحه. فبوش وإدارته لم يوفّرا في حينه قاسي عباراتها للتنديد بوقوف عرفات إلى جانب صدّام حسين في أثناء حرب الخليج. وحسب ما صرّح نبيل شعث، أحد مستشاري عرفات الرئيسيين ـ وكان حاضراً الاجتماع ـ فإنّ «كل شيء بدا وكأنّه نُسي» و«كان كلاهما أشبه بصديقين قديمين يتبادلان الذكريات والنكات».

سأل عرفات:

ـ ماذا تفعل الآن، سيدي الرئيس؟

أجاب بوش بابتسامة عريضة:

ـ إنّ نشاطي الرئيسي هو رعاية أحفادي، لكني أمارس أحياناً أيضاً هواية الصيد والقنص. . .

ثم أضاف وقد نحى المزاح جانباً:

ـ لقد تركت السياسة، لكن إذا كان ثمّة شيء أستطيع أن أفعله لك، فأنا على أتمّ استعداد.

وشعر عرفات أنّه محمول، بكل ما في الكلمة من معنى، على جناح التاريخ. وكان أحد المصادر المغذّية لحبوره المرارة التي طالما راكمها في الماضي. فإلى ذلك اليوم لم يكن قد التقى قطّ رسمياً أميركياً، وكم بالأحرى وزيراً للخارجية أو رئيساً للدولة.

قبل أن يأوي إلى فراشه، أطلّ في جولة خاطفة على قاعة الفندق الرئيسية ليحيّي جمهور محازبيه ومناصريه. ورسم بإصبعيه إشارة النصر وقال بعالي صوته:

ـ إنّ المرحلة الحالية مرحلة وسيطة لأن العلم الفلسطيني سيخفق فوق غزة وأريحا، ثم في النهاية على مآذن القدس الشرقية حيث سنعيش جنباً إلى جنب مع

الإسرائيليين.

ثم أضاف:

- إنّها المرة الأولى التي ستظهر فيها الدولة الفلسطينية على خريطة جغرافية.

في صبيحة اليوم التالي استقبل مسؤولي البنك الدولي في فطور عمل. كان يعلم أنه سيضع قدميه، بعد ثلاث ساعات، إلى جانب بيل كلنتون ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين، في البيت الأبيض، فتكلّم بثقة وتصميم استرعيا انتباه محدِّثيه. وأبدوا عن استعدادهم لتقديم مساعدة بثلاثة مليارات دولار.

وفيما هو يحتسي الشاي الأسود بعد أن أضاف إليه ملعقة صغيرة من العسل، كاشفهم قائلاً:

- صدِّقوني، ليس في نيّتي أن أنهي حياتي في المنفى، على نحو ما كانه نصيب العديدين من قادة حركات التحرير.

وقال بحزم وجاذبية معاً، قارناً الوعد بالوعيد:

- أتريدون معرفة احتياجاتنا في المجال الإقتصادي؟ اعلموا أنّنا نبحث عن سند مالي كبير ولا غبار عليه. وإلاّ فإن أراضينا ستغرق في نفس المشكلات والكوابيس التي تغرق فيها اليوم الجمهوريات السوفياتية السابقة.

وتوقّف عن الكلام رافعاً إصبعه:

- لكن اعلموا شيئاً، فليس في نيّتي أن أصير غورباتشوف آخر!

بالنسبة إلى إسحق رابين، كان ذلك اليوم الأخير يوماً عاشه بصحو فكر موجع. ففي يوم الأحد ١٢ تموز/يوليو، وقبل بضع ساعات من مغادرته القدس إلى واشنطن التي ما كان ينوي أن يمضي فيها إلاّ ما هو ضروري من الوقت لحضور الاحتفال، استقبل مجموعة صغيرة من الأصدقاء في داره. كان يرتدي قميصاً أزرق واسع الفتحة عند العنق، فراح يردِّد أمام الجميع:

ـ أعتذر عن استقبالكم على هذا النحو. لكن هذه آخر دقائق لي من الراحة.

كان يتكلّم، شأنه دائماً، بإيقاع متساوٍ وبطيء، لكن زوّاره لاحظوا وجهه المهموم. ويضرب من المجاملة أبدى أسفه لعدم تقديم قهوة:

ـ إنّه السبت، وخدم المطبخ غائبون. لكن بوسعي أن أقدّم لكم صودا.

أمّا هو نفسه فكان يحتسي كاساً من الوسكي مع الثلج.

ولما سألوه عن حالته المعنوية جلس على أريكة بيضاء في الردهة وأمعن مليًا في التفكير قبل أن يجيب:

ـ ليس ثمّة إلاّ وسيلتان لمواجهة الواقع: حرب مطوّلة مع كل ما يستتبعها من عنف وخوف، أو العيش في سلام. لا وجود لطريق ثالث. ولقد كنّا، أثناء الحروب التي خضناها، نتحمّل مجازفات. وأعتقد أن الوصول إلى السلام يقتضي منّا أن نتحمّل مجازفات محسوبة.

وأردف يقول مغمضاً عينيه نصف إغماضة، واضعاً ساقاً على ساق، وباسطاً راحتيه على الأريكة، وكأنّه يحاور نفسه ويربط خيوط ذكريات مؤلمة طالما دفنها في صدره:

ـ لقد تجشمنا خسائر فادحة للغاية. في خلال جميع تلك الحروب سقط نحو من ١٧٠٠٠ إسرائيلي قتيلاً. في عام ١٩٤٨ كنت أقود فيلقاً عند مشارف القدس. وفي مدى أقل من شهرين، وقع بين صفوف رجالي الألف والثمانمئة ٢٠٠ قتيل ونحو من ٦٠٠ جريح.

سأله أحد المدعوّين:

ـ كيف ستسكّن من قلق السكان تجاه احتمالات المستقبل؟

وجاء الجواب مباغتاً في جلائه وصراحته:

ـ سأقول لهم إنّ كل ما عشناه حتى الآن كان مؤلماً، ولكن المستقبل تأتي علاماته مغايرة، أو أنه يتعيّن علينا على الأقل أن نغتنم فرصة كونه مغايراً. إنّني، كما تعلمون، جندي قديم. لقد خدمت سبعة وعشرين عاماً في الجيش. وقد كان إبني عسكرياً وحفيدي هو الآن تحت العلم. وكم بودّي لو أن الظروف لن

تضطره لأن يقاتل. إنّني أستشعر هذه المسؤولية وسأفعل كل ما هو ممكن كيلا يحدث ذلك.

وتوقّف عن الكلام وقد أزعجه رنين الهاتف على يساره. وكلّم رابين مخاطبه بالإنكليزية:

ـ مرحباً، بـربارا، كيف حالك!

وبعد أن وضع السماعة، بعد بضع دقائق، قال لضيوفه:

ـ كانت بربارا والترز (صحفية مشهورة في التلفزيون الأميركي).

فردّ أحد أصدقائه ضاحكاً:

ـ أواثقٌ أنت أنها لم تكن بربارا سترايسند؟[1].

فقطب رابين ما بين حاجبيه بمنتهى الجد محاولاً أن يتذكّر:

ـ بربارا من؟

كان في العشية، أثناء محادثة له، قد قال:

ـ إنّ مجرد التفكير بأنني سألتقي عرفات لا يوحي إليّ إلاّ بالرفض.

فسُئل عمّا إذا كان لا يزال على حالته النفسية إياها. فما كان من رابـين، بدون أن ينبس ببنت شفة، إلاّ أن ضغط بيديه على معدته وكأنّما نهشه وجع لا يطاق.

وعند لحظة الانصراف، جازف أحد الزوّار بسؤال أخير:

ـ ما رأيك في هذا الاتفاق الذي ستوقّعه يوم الاثنين؟

أمعن رابين في التفكير ملياً ثم قال:

ـ لا أعتبر أنّه أحسن ما كان يمكن لإسرائيل أن تحصل عليه. لن أدخل في التفاصيل، لكن هذا الاتفاق يتضمّن عدداً من بنود لا أحبُّها.

وفي الطائرة التي أقلّته إلى واشنطن لم يفارق رابين وجومه. وما زاد على أن

---

(١) المغنية الأميركية اليهودية المشهورة. «هـ.م.».

تبادل بعض المزاح مع خصمه القديم شيمون بيريز، وزير الخارجية الذي طالما كان يحلو له أن يصفه بأنه «صاحب تطبيقات لا يكلّ ولا يملّ».

ولسوف يقول أحد معاوني رئيس الوزراء الإسرائيلي، ممن كانوا يرافقونه في الطائرة:

ـ كان يساورني الشعور بأنّه في حالة نفسية مماثلة لتلك التي كان عليها دافيد بن غوريون وهو يكاشف المقرّبين إليه بالقول حالما انتهى من الإعلان عن قيام دولة إسرائيل: «إنّني لا أشعر بأي فرح، بل فقط بقلق عميق».

كانت الإدارة الديموقراطية قد صمّمت احتفال واشنطن كما لو أنّه استعراض ضخم. فإذ سيجري نقله إلى أكثر من مئة بلد، فإنّه سيتيح لبيل كلنتون أن يقطف ثمار خمس وعشرين سنة من الدبلوماسية الأميركية في الشرق الأوسط.

كانت مهمّة شاقة للغاية بالنسبة إلى رئيس للولايات المتحدة لم يسبق له أن أبدى انشغالاً يذكر بالسياسة الخارجية، مما حدا به إلى مصارحة معاونيه المقرّبين بالقول قبل يومين:

ـ يتعينّ عليّ الآن أن أطوّر استراتيجية شاملة، لكن، ويا للأسف، لم يتسنّ لي الوقت للتفكير في ذلك بعد. علينا أن نفكّر في الأمر بأسرع ما يمكن.

ابتداءً من الساعة التاسعة والنصف صباحاً شرع جمهور المدعوّين المقدّر تعدادهم بألفين وخمسمئة بالتجمّع عند أبواب البيت الأبيض. وفي ساحة «لافييت ـ سكوير»، في قبالة مقرّ الرئاسة، كانت مجموعات صغيرة من اليهود الحسيديين تهتف: «رابين خائن!»، وهي ترفع يافطات كتب عليها: «هتلر أيضاً كان يطالب بالأرض مقابل السلام!».

راح العشرات من وزراء الخارجية، ونحو مئة من السفراء، وجميع الأعضاء ذوي الشأن في الكونغرس، وممثّلو الجاليات اليهودية والعربية، ومشاهير عالم الفن وعالم الأعمال، والرئيسان السابقان جيمي كارتر وجورج بوش، يبحثون عن كراسيهم في حديقة البيت الأبيض المشمسة. لكن فيما وراء الكواليس كانت توتّرات اللحظة الأخيرة على وشك أن تعيد النظر في كل شيء.

فعرفات بعث برسول إلى البيت الأبيض ليفاوض بشأن وصوله. فهو يودّ أن يأتي ومعه المسدس الذي يحمله دوماً في حزامه ولا يتجرّد منه إلاّ لحظة دخوله. ومثل هذه البادرة الرمزية كان من شأنها في رأيه أن تفصح عن رغبته في السلام. لكن كبير موظفي البيت الأبيض أعرب للحال عن رفضه:

ـ آسف، إن الأنظمة المرعية الإجراء لا تسمح بأسلحة نارية داخل البيت الأبيض.

وأبدى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن انزعاجه أيضاً من كون بيل كلنتون قد خصّ إسحق رابين بمقابلة قبل الاحتفال، بدون أن يحظى هو بمثل هذه المحاباة.

وجاءه الجواب هنا أيضاً غاية في المراوغة:

ـ إن رئيس منظمة التحرير لا يمثّل دولة ولا حتى حركة معترفاً بها رسمياً من قِبل الولايات المتحدة.

في أثناء استقبال رابين وبيريز في المكتب البيضاوي كان تضاد مثير للاستغراب بين شخصيتيهما بادياً في مظهرهما على حدّ تعبير أحد معاوني بيل كلنتون، ممن حضروا القسم الأول من المقابلة.

ـ كان بيريز على عادته ذلق اللّسان، صاحب رؤى، متفائلاً بصدد مستقبل الشرق الأوسط الذي وصفه وكأنّه منطقة استقرّ فيها السلام من جرّاء المبادلات التجارية والتنمية الإقتصادية. إنّنا لم نضع ثقتنا قط بصورة حقيقية في بيريز، السياسي المحترف الأكثر حذقاً من أن تكون له قناعات. ولقد كنّا نعرفه على الأخص أقرب دبلوماسياً ووجدانياً إلى الأوروبيين منه إلى الولايات المتحدة. أمّا رابين فقد رأى على الدوام أن التحالف مع واشنطن هو مركز الثقل في السياسة الخارجية الإسرائيلية. وفي قبالة الرئيس كان رابين يظهر مهموماً، بل محرجاً. فقد كانت تضايقه فكرة أنّه تركنا في منأى عن المفاوضات السرية في النرويج، ولا سيما أنّه كان يتعينّ عليه الآن أن يطلب منّا معونة، مالية على الأخص، لتنفيذ خطة السلام وتأمين الديمومة لها. وكان يتخوّف من أن يبادره بيل كلنتون

بملاحظة جافية أو توبيخية. لكن الرئيس فرج الجو للحال إذ بادره بالقول:

ـ لقد قلتها لك بالهاتف، يا إسحق، لكن يطيب لي أن أكرِّرها ثانية أمامك: إنّ ما فعلته لخارق للمألوف حقاً.

أضاء وجه رابين بابتسامة وشعر فجأة بالإنفراج. وتابع كلنتون يقول:

ـ إنّه لحدث تاريخي، قابل للتشبيه بالاتفاق الذي وقّعه ديغول مع الجزائريين، أو بالاتّفاق الذي وقعه دكليرك ومانديلا في أفريقيا الجنوبية.

وأضاف المعاون المشار إليه:

ـ لقد لاحظنا جميعاً أنّ الرئيس تحاشى عن عمد عقد مقارنة ثالثة: اتّفاقيات الصلح التي وقّعها نيكسون مع هانوي والتي وضعت حداً لحرب فيتنام. فكلنتون يكره تلك الحرب إلى حد أنه عندما توجّبت دعوة رؤساء سابقين إلى الاحتفال لم يبذل أحد جهوداً فائقة للاتّصال بريتشارد نيكسون.

وأشار بيل كلنتون إلى العملية التي كان شهدها قطاع غزة بالأمس والتي أودت بحياة أربعة جنود إسرائيليين في كمين نصبه لهم فدائيون من حركة حماس الإسلامية. وخاطب المسؤولين الإسرائيليين بقوله:

ـ في نيّتي أن أطلب للتوّ من الرئيس عرفات أن يدين بمنتهى الحزم هذا العمل من أعمال العنف.

كان يبدو عليه الانفعال الصادق وهو يتكلّم. وما كان أحد يجهل أنه كان ولا يزال يكنُّ عطفاً كبيراً تجاه إسرائيل، أكثر بكثير من سلفه جورج بوش.

ودارت المحادثة حول أشياء عادية تماماً، كما لو أنّ كل واحد، قبل دقائق معدودات من حدث فاصل، يريد أن يتريّث لحظة قبل أن يأخذ طريقه إلى ذلك الموعد مع التاريخ.

ودّع الرئيس الأميركي ضيفيه طارحاً عليهما بلهجة متفاجئة السؤال التالي:

ـ لقد وصلتما للتوّ إلى واشنطن. فهل صحيح أنكما تزمعان المغادرة فور الانتهاء من التوقيع بدون أن تحضرا حفل العشاء الكبير الذي نظّمناه؟

هزَّ رابين رأسه بالإيجاب:

ـ هذا صحيح، يا سيدي الرئيس. علينا أن نكون غداً أمام الكنيست الإسرائيلي لحضور جلسة استثنائية.

كانت الحجّة صادقة ولكنها لم تخدع أحداً. فالتواجد مع عرفات لمدة أطول من ذلك كان بالفعل أمراً لا يُطاق بالنسبة إلى رابين.

في الخارج كان ازدحام وتدافع. حاول جورج بوش أن يشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور. لمحه مسؤول في الأمن الخاص، مكلّف بالحفاظ على سلامة الشخصيات الحاضرة، فطفق يصرخ:

ـ دعوا الرئيس يمر!

ثم ما عتم بوش أن صحّح له قوله وقد انقبض وجهه:

ـ ليس الرئيس، بل السابق... السابق...

وعند الباب الشمالي الغربي تعذّر على جوناثان شوارتز التقدُّم. كان هذا المعاون المقرّب لوزير الخارجية وارن كرستوفر مضطراً إلى أن يأخذ دوره في الطابور الطويل الذي ينتظر اجتياز نقاط المراقبة الأمنية. نظر بتلهُّف إلى ساعته، وطفق يردّد، وتحت إبطه ملف سميك:

ـ الأمر مستعجل للغاية، يجب أن أتوجّه إلى مكتب جون بودستا.

بودستا هو معاون كلنتون المكلَّف بجميع الملفّات الرئاسية. وبعد نحو من عشرين دقيقة صاح شوارتز، وقد طفح به الكيل، في وجوه مسؤولي الأمن الذين بدا عليهم الذهول: «لكن دعوني أمرّ، فأنا أحمل الاتفاقية التي ستوقَّع عما قليل!».

ـ ما كدت أتلفظ بهذه الكلمات ـ هكذا قال شوارتز لاحقاً ـ حتى انفتحت أمامي الأبواب مثل مياه البحر الأحمر أمام موسى والعبريين الفارين من مصر.

في الساعة العاشرة والنصف دلف الوفد الفلسطيني، يتقدّمه عرفات، إلى

الغرفة الزرقاء، أحد صالونات البيت الأبيض. كان نائب الرئيس آل غور قد حضر، برفقة وزير الخارجية وارن كرستوفر، ووزير الخارجية الروسي كوزيريف، ووفد نرويجي كبير، على اعتبار أن أوسلو قد احتضنت سراً، وعلى مدى شهور، مفاوضات السلام.

وحسب تعبير أحد الشهود: «كان وجه عرفات يطفح بابتسامة رجل يعيش حلماً من أحلام اليقظة».

وبعد ثلاث دقائق دخل الإسرائيليون، وتجمع كل وفد عند أحد طرفي الغرفة. ما تبادل أحد كلمة. حاول آل غور أن يفرج الجو بعرضه على الجميع قهوة أو عصير برتقال. ولكنه لم يحرز نجاحاً. ويروي معاون لكلنتون ، كان حاضراً في الصالون، بلهجة مرحة:

ـ لكأنك أمام عائلتين متباغضتين اجتمعتا لحضور حفل زواج واضطرتا إلى تكلّف البشاشة حتى لا تحرجا العروسين. ولقد عنّ لنا أن نأخذ صورة، لكن الجو كان بارداً ومتوتراً إلى حد عدلنا معه عن الفكرة.

وقبل الحادية عشرة بأربع دقائق طلب بيل كلنتون من أعضاء الوفدين أن يتهيأوا للخروج والتوجّه إلى الحديقة الجنوبية حيث سيدور الاحتفال. مشى رابين وعرفات بصمت إلى جانبه. وعند الوصول إلى المدخل المسمّى بـ «الباب الدبلوماسي» توقف الرئيس على مقربة من الحراس الذين أخذوا التحية وتوجّه بالكلام إلى الخصمين:

ـ حبذا لو تبادلتما بضع كلمات.

وبصوت خافت وشبه آسف قال رابين لعرفات وهو ينظر في عينيه مواجهة:

ـ سيتعينّ علينا أن نعمل كثيراً كي تمشي الأمور، والأصعب ما زال أمامنا.

أجابه رئيس منظمة التحرير بالإنكليزية بصوت مختنق:

ـ أعرف، وأنا على استعداد لألعب دوري.

واجتازا الباب إلى الحديقة وقدّم المنادي، الذي كان يعلن بالمذياع عن تركيب كل وفد، عرفات بصفته «رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية».

كان النهار ساطعاً ومشمساً، وخلا طائرة هليكوبتر تابعة للسلطات الأمنية كانت تحوم حول البيت الأبيض، كان يسود صمت ثقيل وحذر. لا شيء يضارع الحماسة التي اتّسم بها، قبل أربع عشرة سنة خلت، توقيع اتفاقية الصلح بين إسرائيل ومصر.

ألقى بيل كلنتون خطابه الترحيبي بنبرة واعظ. ونوّه بـ «هذه المناسبة التاريخية الكبيرة التي سيكون في وسع المرء معها أن يجرؤ على أن يتخيّل ما كان يعزّ تصوره: إمكانية التوفيق بين أمن الشعب الإسرائيلي وتطلّعات الشعب الفلسطيني». وأضاف: «إن ذرية إسحق وإسماعيل قد بدأوا مسيرة عنيدة نحو السلام».

فيما كانت الخطابات تتعاقب، كانت أنظار المراقبين تتجه نحو نجمي الحفل. وما كان عرفات يتوقّف عن التبسُّم لمن كان يتعرفهم من بين المدعوِّين. وبيديه المعقودتين خلف ظهره، وبعينيه اللتين لا تتوقّفان عن الحركة، كان يبدو وكأنه لا يعير اهتماماً للكلام الذي يُلقى من فوق المنصة.

قبل نحو ساعة من الزمن كان موظف عالٍ في الخارجية الأميركية قد سأله:

ـ عندما خطبت في عام ١٩٧٤ من فوق منصة الأمم المتحدة أعلنت: «جئتكم أحمل بيد غصن زيتون وبالأخرى مسدساً هو مسدس مقاتل في سبيل الحرية. سيدي الرئيس، ماذا تحمل اليوم في يديك؟

ابتسم عرفات وأجاب:

ـ غصني زيتون.

ألحّ الدبلوماسي قائلاً:

ـ لكن ماذا صار لمسدسك؟

فاتّسعت ابتسامة عرفات:

ـ إنّه يفيدني الآن في حماية السلام.

كان رابين بادي التوتّر والتضايق. فالجنرال السابق الذي صار رجل دولة،

وبطل حرب الأيام الستّة وكان حينئذٍ رئيساً للأركان، كان يحدِّق إلى طرفي حذائه ولا يصفِّق لأحد. وما فتئ يسحب خطابه من جيبه ويعيده إليه، على مرأى من نظر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المتحيِّر.

مال مدعو كان يجلس في الصف الأمامي على جاره وهمس في أذنه:

ـ انظر إلى زيّ عرفات، إنّ خيّاطه هو نفس خياط جنرالات الجيش الأحمر.

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين جلس شيمون بيريز وأبو مازن، الشخصية رقم ٢ في منظمة التحرير الفلسطينية، إلى طاولة خشبية كبيرة، هي عينها التي استخدمت عام ١٩٧٩ في توقيع اتفاقية الصلح بين إسرائيل ومصر.

في الساعة ١١,٤٣ انتهى الرجلان من التوقيع بالحروف الأولى على النسختين الموضوعتين أمامهما. كانت الوثيقة تتضمّن تسعة عشر بنداً وأربعة ملاحق. وصفّق الحضور بقوة، وكأن تلك الدقائق قد فكّت السحر الشرير لخمس وأربعين سنة من النزاع المسلّح. فلأوّل مرة ترى النور وثيقة سلام بين دولة إسرائيل والحركة الفلسطينية. أمّا الرئيس الأميركي فسوف يعطي التاريخ دفعة إلى الأمام. فعندما لاحظ أنّ عرفات مستعدٌّ للتقدم نحو إسحق رابين. ضغط بيده ضغطة خفيفة على ظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي بدا متردِّداً. وصافح كل من الرجلين، اللذين كانا بالأمس من ألدّ الأعداء، يد الآخر مبتسماً. وحتى اللحظة الأخيرة كان قليل جداً من الناس يعتقدون أن بادرة كتلك ممكنة بعد خمسين سنة من نزاعٍ دامٍ.

وسيقول فيما بعد أحد المراقبين:

ـ إن تينك اليدين قد حيّتا العالم وهزتاه.

واتجه ياسر عرفات نحو شيمون بيريز ليكرر معه الحركة نفسها. وهمس رابين بتهكُّم في أذن وزير خارجيته:

ـ «هذا ما كنت تنتظره منذ زمن بعيد».

ثم جاء الخطابان اللذان ألقاهما رئيس الوزراء الإسرائيلي ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ليكشفا عن شواغل كل منهما. فقد بدا على رابين وكأنه

يخاطب أولاً مواطنيه الإسرائيليين ليطمئنهم. وكان بيريز، قبله، قد أشار إلى «المآسي المتوازية لكلا الشعبين» وإلى «مدينة القدس الخالدة».

أمّا رابين فتكلّم عن «القدس، العاصمة القديمة والأبدية للشعب اليهودي». وكان يخطب بصوت أجشّ وبصراحة لم تغب عن إدراك الحضور كافة:

ـ إنّ التوقيع على إعلان المبادىء الفلسطيني الإسرائيلي هنا اليوم، ليس بالأمر السهل، بالنسبة إليّ شخصياً بصفتي جندياً في حروب إسرائيل، أو بالنسبة لشعب إسرائيل أو بالنسبة للشعب اليهودي في الشتات الذي ينظر إلينا اليوم بأمل كبير ممزوج بالترقّب. وهو حتماً ليس بالأمر السهل بالنسبة لأسر ضحايا الحروب والعنف والرعب.

وبعد مضي بضع لحظات ظهر عليه المزيد من التوتّر ووشى صوته بانفعال جارف حينما أضاف قائلاً:

ـ دعوني أقول لكم، أيها الفلسطينيون، إنه مكتوب علينا أن نعيش معاً على الأرض ذاتها وفي البلد ذاته. نحن الجنود الذين عادوا من المعارك تلطخهم الدماء... نحن الذين قاتلنا ضدكم، أنتم الفلسطينيين، نقول لكم اليوم بصوتٍ عالٍ وواضح: يكفينا دماً ودموعاً.

لكن خطاب عرفات جاء بالمقابل من طبيعة مغايرة تماماً؛ فقد بدأه بالعربية الفصحى:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ووجّه كلماته الأولى إلى كلنتون والمسؤولين الأميركيين. قال:

ـ إنني، يا سيدي الرئيس، أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم ولشعبكم أننا نشاطركم قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان التي يطمح شعبي إلى التمتّع بها.

ولسوف يعلق أحد مستشاري كلنتون فيما بعد:

ـ عندما سمعت هذه الكلمات فهمت أنّه يريد إغراءنا كي نضغط بكلّ ثقلنا في المفاوضات القادمة مع إسرائيل، ولا سيما منها ما يتعلّق بالمسائل الحساسة مثل

وضع القدس. وبالفعل، فإنّه في تلك اللحظة بالضبط قد تحوّل من إرهابي إلى قائد مكرّس دولياً لشعب حظي أخيراً بالاعتراف من قبل الدولة الوحيدة التي يُعوَّل عليها: أميركا.

وأضاف عرفات بعد بضع لحظات:

ـ وشعبنا لا يعتبر أن ممارسة حقه في تقرير المصير يمكن أن تشكّل اعتداء على حقوق جيرانه، ومساساً بأمنهم، بل إن إلغاء الشعور بالغبن والظلم التاريخي هو أكبر ضمانة لتحقيق الحياة المشتركة والانفتاح بين شعبينا وبين أجيالنا القادمة.

وفي الختام أعاد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية توكيد المطالب الفلسطينية؛ قال:

ـ يجب أن نعمل على تنفيذ الاتفاق بتمامه... وأن نتّجه نحو التسوية النهائية لوضع الأراضي، وأن نحلّ قضية القدس، وقضية اللاجئين، وقضية المستوطنات، وقضية الحدود.

بعد ارفضاض الاحتفال، وبعد أن تبدّد ذلك «السحر الذي خلقه اللاممكن التفكير فيه»، كشفت ردود فعل الطرفين عن مدى سعة القلق والانزعاج.

الفلسطينيون قالوا إن خطاب رابين قد خيَّب آمالهم. وعلّق فيصل الحسيني، قائد فلسطينيي الداخل، بقوله: «كنت آمل أن أسمع كلاماً عن المستقبل أكثر ممّا عن الماضي». ولاحظ أعضاء الوفد الإسرائيلي أنّ عرفات ذكر باختصار «شعب إسرائيل وقادته»، لكنه لم يشر مرة واحدة إلى «دولة إسرائيل».

قبل مغادرة المنصّة والرجوع إلى داخل البيت الأبيض، انضمّ ياسر عرفات لبعض لحظات إلى جمهور المدعوين، عاقداً النيّة على استمالة الحاضرين قاطبة.

تخطّى الكراسي وتشبّث بمساندها، وكاد يسقط وهو يشد على يد وزير الخارجية السابق جيمس بيكر ورئيس الأركان كولن باول. ثم عانق ابنة كلنتون، شلسي، وكذلك سفير العربية السعودية في واشنطن، بندر بن سلطان.

إنّها لحظة مصالحة فائقة الأهمية بالنسبة إلى الزعيم الفلسطيني. فالسعوديون لم يغفروا له قط وقوفه إلى جانب العراق أثناء أزمة الخليج، ولم يتوانوا حتى عن قطع معونتهم المالية مؤقتاً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

بعد بضع لحظات التقى بيل كلنتون الذي كان يحيط به بعض معاونيه، واختلى الرجلان في قاعة تسمى بـ «قاعة الخرائط». وكان وفد من اليهود والعرب الأميركيين ينتظر هو أيضاً أن يُستقبل.

قال كلنتون بنبرة شديدة الحزم:

ـ سيدي الرئيس، إن مسؤولية جسيمة توجب علينا أن نساندكم، ونحن لن نتوانى. لكن عليكم أن تبدؤوا بالعمل بسرعة كبيرة مع إسرائيل.

كان عرفات يجلس على حافة مقعده، ويداه مضمومتان أمامه، يصغي بلا حراك. ثم أجاب:

ـ إنّنا مصمّمون على التقدُّم بسرعة.

تابع كلنتون يقول:

ـ يجب أن تشعر إسرائيل بطمأنينة كاملة فيما يتّصل بأمنها. هل بوسعك أن تلتزم بذلك؟ لقد وقعت بالأمس عملية أخرى في قطاع غزة.

ـ سيدي رئيس الولايات المتحدة (تكلّم عرفات ببطء غير معهود، متأنياً في لفظ كل كلمة، ومحدقاً إلى كلنتون في عينيه)، إنّني لا أتخلّى فقط عن العنف، بل سأدين أيضاً جميع الأفعال التي من هذا القبيل، على الأقل في المناطق التي سيديرها الفلسطينيون. إنّني آخذ على عاتقي مسؤولية إيقاف كل عنف.

دعي مئة وعشرون من المصطفين إلى وليمة عشاء كبرى في البيت الأبيض، وتولّت هيلاري كلنتون بنفسها إعداد لائحة الطعام. كان الجميع يعرفون ميل الزوجين كلنتون إلى الوجبات النباتية ذات السعرات الحرارية المنخفضة. وقد علّق أحد المدعوين بسخرية: «هذا من نوع الأطباق التي تختزنها في برّاد التجليد شهوراً طويلة قبل أن تعيد إخراجها لتقديمها في دعوة عشاء غير متوقَّعة!».

والواقع أنّ ذلك «العشاء الأميركي جداً»، على حدّ تعبير أحد الطهاة، بدأ

بحساءالجزر،ثم بقطعة من لحم العجل المحمّر مصحوباً ببطاطامن ولاية إيداهو. أمّا الحلوى، التي اعتنت هيلاري باختيارها، فكانت تتألّف من زورق من الميرنغ وشراب البرتقال وقطع كاتو مشكّلة. أمّا النبيذ فكان من كروم كاليفورنيا ومن النوع المعروف باسم «بينو الأسود». ولقد جرى الإعداد لكل شيء بحيث يتمّ تجنّب أي عمل أخرق، بله أية كارثة دبلوماسية. فقد تفحّص لائحة الطعام بعناية عدّة مسؤولين في وزارة الخارجية من المختصّين في شؤون الشرق الأوسط. والحق أنّ الزوجين كلنتون كانا لا تزال حاضرة في ذهنهما الغلطة التي ارتكبت قبل بضعة أشهر: فعند تدشين المتحف التذكاري لضحايا «الهولوكوست» في واشنطن، قُدِّم للمدعوين... لحم خنزير مدخن.

كان من جملة المدعوِّين إلى العشاء الرئيسان السابقان جورج بوش وجيمي كارتر، وقد دعاهما بيل كلنتون إلى تمضية الليل في البيت الأبيض. وقد اقتُرحت على كارتر وزوجته غرفة نوم لنكولن، وعلى بوش وزوجته غرفة نوم الملكة.

فيما كانت السهرة حافلة، كان سبعة رجال مجتمعين في شقة سرّية في منزل قريب من جادة ماساشوستس على بُعد أربعمئة متر من البيت الأبيض. كان الاجتماع في غاية من الأهمية، وقد طال حتى ساعة متأخرة من الليل. كان الرجل الثاني في وكالة المخابرات المركزية ومساعده يتناقشان مع مسؤولين في قوات الـ١٧، وهي قوة فلسطينية خاصة مكلّفة بحماية عرفات. وكان يشارك أيضاً في هذا اللقاء ثلاثة إسرائيليين يشغلون وظائف عالية في داخل الموساد.

كان هؤلاء الفلسطينيون والإسرائيليون قد وصلوا إلى واشنطن على هامش الوفدين الرسميين كيلا يسترعوا الانتباه. وقد غادر المسؤولان في قوات الـ ١٧ تونس إلى فيينا، ثم إلى فرانكفورت ونيويورك، قبل أن يحطّوا الرحال في العاصمة الأميركية. وقد كان لهذا اللقاء الفائق السرية هدف واحد يتيم: اتخاذ جميع التدابير لحماية حياة عرفات. فلم يكن أي من المشاركين، بمن فيهم

الفلسطينيون، يعتقد أنّ عملية السلام ستبقى قائمة إذا ما تمّت تصفية رئيس م.ت.ف.

حدّد الرجال السبعة، وجميعهم من محترفي الاستخبارات المحنّكين، في بادىء الأمر مصادر التهديد. ففي المقدمة، بطبيعة الحال، جماعة أبو نضال، ولكن كذلك المنظمات الفلسطينية المعادية للاتفاق الموقّع مع إسرائيل. وكان رئيس إحدى الفصائل العشر التي تتألّف منها جبهة الرفض، أحمد جبريل الذي يعمل انطلاقاً من دمشق، قد صرّح قبيل ذلك بقليل: «... وعندما يُقتل عرفات سينتهي الاتفاق ويرمى في الزبالة. ولن أكون مضطراً حتى لتصفيته، فكل فلسطيني يملك سكيناً في مطبخه».

واتفقت كلمة رجال وكالة المخابرات المركزية والموساد والاستخبارات الفلسطينية: فليس ثمّة أي حظّ في النجاح لعملية إرهابية تستهدف تصفية عرفات ما لم يتأمن لها الدعم اللوجستي من دولة من الدول. وليس ثمّة إلاّ بلدان أثنان يستطيعان تقديم مثل هذا الدعم: سورية، ولكن حافظ الأسد منخرط على ما يبدو في مفاوضات صعبة ودقيقة مع إسرائيل، من أجل استعادة هضبة الجولان، وصدام حسين الذي يمول جزئياً أبو نضال.

ومن سخرية المقادير أنّ الرئيس العراقي كان حظي بدعم عرفات أثناء حرب الخليج.

على أن الخطر الأكبر كان يأتي من محيط الزعيم الفلسطيني بالذات. ولقد كان المسؤولون في الموساد وقوات الـ ١٧ يتلاقون سراً منذ أربعة أشهر في أوروبا أو في الأراضي المحتلّة، بالموازاة مع مفاوضات السلام.

وقال أحد الفلسطينيين:

- إن الفترة الأشد خطورة ستبدأ بعد خمسة أو ستة أشهر، في مطلع ١٩٩٤، عندما ستتراخى يقظتنا وعندما سيكون عرفات حاضراً بشخصه في أريحا وغزة.

وفي الساعة الثانية والنصف صباحاً انتهى الاجتماع على اتفاق يجعل من ياسر عرفات الزعيم السياسي الأحسن حماية في العالم، لأنّ سلامته سيتولّى تأمينها

أولئك الذين كانوا بالأمس أعداءه: فوكالة المخابرات المركزية والموساد قد تعهّدا بتعزيز حمايته في أثناء جميع تنقلاته في الخارج.

وقد وافقت أيضاً الوكالة الأميركية والدائرة المركزية للاستخبارات الإسرائيلية على إبلاغ الفلسطينيين أية معلومات قد تتوفّر لديهما حول أيّ خطة تآمرية لاغتيال رئيس م. ت. ف.

وختم أحد مسؤولي وكالة المخابرات المركزية الاجتماع بقوله:

- سننقل إليكم جميع التفاصيل حول التهديدات الملموسة. ولن نتوانى عن إعلامكم بهوية الذين قد يخططون لعملية كهذه حالما نتحقق من الأمر.

٢

نظّارات عرفات

على هذا النحو جرت مراسم الاحتفال بالسلام في واشنطن. وقد وصفناها بأمانة.

هذا السلام الباعث على الدهشة، المرغوب فيه والمخشي منه في شرق أدنى تمتزج فيه الأحقاد شبه الصوفية مع الافتتان المتبادل، هل يتقدّم فعلاً إلى الأمام؟ ربما. وها هي الأطروحات تشاد، والتفسيرات التاريخية أو السيكولوجية تعطى، والريبورتاجات والروايات تكتب. أمّا من جهتنا نحن فقد سعينا منذ زمن بعيد إلى أن نجرّ إلى طاولة المفاوضات النسيبين المتعاديين: يعقوب واسماعيل. وما ذلك إلّا لأن المنطقة قريبة إلينا، ولأن نورها يبهرنا، ولأنّ موسيقاها وضوضاءها تستحوذان علينا، ولأنّ روائحها تستثيرنا. ولأنّها تؤلف كذلك جزءاً من ذاكرتنا. وأخيراً، وعلى الأخص، لأن المسرح الذي تمثّل فيه هذه المسرحية الفريدة في نوعها مقدّس ثلاث مرات. ولقد كنّا حاولنا بلا كلل، مع مجموعة من الأصدقاء، أن نطلق شرارة التقارب الإسرائيلي - الفلسطيني. ومنذ عام ١٩٦٧ أنشأنا شبكاتنا الخاصة، وشكّلنا لجاناً، وتناقشنا مع المسؤولين في كلا المعسكرين. بل لقد أقنعناهم بأن يتلاقوا.

لكنّنا فشلنا.

وكنّا نريد أن نفهم كيف نجح الآخرون. وعلى هذا فقد رحلنا نبحث عن

أولئك الرجال وعن طريقتهم. واكتشفنا بسرعة هذه الطريقة. كانت مدهشة في بساطتها.

ففي أوسلو بذل الفلسطينيون والإسرائيليون قصاراهم ليضعوا على الورق جميع النقاط التي يمكن أن يقع بينهم اتـفاقٌ عليهـا، تاركـين جانبـاً القضايـا المختلف عليها.

وقد اختار المتفاوضون أن يتصرفوا كما لو أن جوهر المشكلة محلول أساساً، وكان يتعينّ عليهم، على الأخصّ، أن يكتبوا لا أن يتكلّموا. وأن يكتبوا، لا بالعربية أو بالعبرية، بل بالإنكليزية، وهي لغة أجنبية بالنسبة إلى الطرفين. وتزوّد كل واحد بالمعاجم وسعى إلى معرفة الكلمة الصحيحة. والحال أن المرء قد ينفعل بسهولة أكبر أثناء النقاش منه عندما يحاول أن يعينِّ مكان فاصلة.

تغيير كبير بالمقارنة مع مساعينا! كنّا نعتقد أنّه يكفي أن يتخاطب الناس كيما يفهموا في النهاية على بعضهم بعضاً. أفما كنّا نقول إن العنف يقف حيث يبدأ الكلام؟ وقد غابت عنا الحقيقة البسيطة الآتية، وهي أنّ الكلام أيضاً ينقل العنف.

أمّا أبطال هذه القصة الخارقة للمألوف فقـد كان الـوصول إليهم أشـد عسراً. وقد اقتضـانا البحث شهـرين قبل أن نصـل إليهم، المشهورين منهم والمغمورين. ونجحنا في إعادة بناء الشبكة التي قادتهم إلى النرويج، ومنها إلى واشنطن حيث تبادل كل من الطرفين الاعتراف بالآخر. وكشفنا النقاب عن الشبكات السرية الموازية التي أرادها ياسر عرفات أو إسحق رابين لسبر غور النية الحسنة لدى الطرف الآخر.

وقد كانت بعض اللّقاءات بمنتهى السرية إلى حد أن مرافقي المفاوضين ما كانوا يعلمون بها إلا ساعة حدوثها.

والولايات المتحدة، التي كانت تجـري فيها في الـوقت نفسه مفـاوضات واشنطن المتعدّدة الأطراف، هل كانت تعلم بما يجري في أوسلو؟ بلى، بكـل تأكيد. ولكن لا الرئيس كلنتون، ولا وزير خارجيته، آمنا بجدواها. لحسن الحظ. فلكم كان سيكون مضراً تدخلها في محادثات أوسلو الهشة، ولكم كانا

سيثيران من مساومات جيواستراتيجية. . . لقد كانت خير خدمة يمكن أن تؤدّى للمتفاوضين هي احترام لقائهم الانفرادي.

فخلافاً للاعتقاد السائد، فإن الصغار إذا ما تركوا لحالهم تدبّروا أمرهم بيسر.

بيد أن التفسيرات التقنية ليست هي كل شيء، ولا كذلك أسرار الجغرافيا. فليس يكفي أن نفهم كيف لعبت النرويج دوراً في الشرق الأدنى. بل لا بد أيضاً أن نكتشف ما طبيعة التحوّل الذي طرأ على الذين كانوا يتحاقدون بالأمس ليتصافحوا اليوم. والتحقيق الثاني الذي قمنا به في هذا الكتاب إنّما هو ذاك الذي أجريناه في داخل رؤوس أولئك الرجال الذين نعرفهم منذ ثلاثين عاماً.

قال لنا شيمون بيريز إن الزمن هو الذي أنضج الحدث. وفي الواقع، أنه لا يردد بذلك سوى الفكرة الواردة في سفر الأحبار: «ثمة زمن للحرب وآخر للسلم».

متى عُلم أن هذا الزمن قد جاء؟ في أية لحظة كفّ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن اعتبار إسرائيل أرضاً برسم الغزو ليتصوّرها جاراً، بل شريكاً؟ في أية لحظة كفّ رئيس الوزراء الإسرائيلي عن أن يرى في عرفات إرهابياً وقاتل أطفال يهود ليرتضي به محاوراً ثم شريكاً في السلم؟ اليوم، وعلى ضوء الأحداث الخارقة التي جرت في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، تتخذ بعض الكلمات الملفوظ بها سابقاً بعداً مغايراً.

كنّا متواجدين في شباط/فبراير ١٩٩١ في مكتب ياسر عرفات، في تونس، بصحبة سهى الطويل التي سيقترن بها بعد سنتين. دخل رجل ليعلن أن «حماس» دعت إلى الإضراب العام في غزة. فثارت ثائرة ياسر عرفات: «إنهم مخطئون! عديمو المسؤولية!». وبعد أن سكن غضبه تناول البرقية التي حملت إليه. تملى فيها قليلاً بدون أن يبدر عنه أي رد فعل. كان واضحاً أنّه يجد صعوبة في فكّ

رموزها. وفي النهاية أخرج، وشفتاه ترسمان ابتسامة خفيفة، زوج نظارات من جيبه وأشار إلى البرقية قائلاً: «أترون، إنني بحاجة الآن إلى نظارات». هذه الحركة، هذه العبارة جعلته في نظرنا أكثر إنسانية وأكثر قرباً: وكذلك أكثر هشاشة. إذنْ أكثر عمومية.

كان هذا الإحساس الجديد يمهّد للمفاجأة التي سيطالعنا بها بعد بضع دقائق. فقد طفق يطرح أسئلة حول شيمون بيريز: كيف هو، وكيف زوجته وأولاده؟ هل هي أسرة متماسكة؟

سردنا على مسامعه أمسيات الجمعة في بيت بيريز، حيث تجتمع الأسرة كلها حول الأب المسّن لقضاء سهرة ليلة السبت. سألنا عرفات المزيد: والأحفاد؟ وهل بيريز وفيّ في صداقته؟

بيننا وبين أنفسنا قلنا: هذا هو الكسر. كسر في صورة الآخر غير قابل للرأب، ذلك الآخر الذي جرت أبلسته على مدى عشرات من السنين. فليس يبدي أحد الاهتمام بعدوّه من حيث هو كائن إنساني إلاّ إذا كان يريد أن يلتقيه ذات يوم وأن يعقد معه صلحاً.

تحدثنا مطولاً في مكتب عرفات ونحن نحتسي الشاي المعسّل، شرابه المفضّل. كنّا نتكلم عن الانتخابات التشريعية في إسرائيل عندما تجلّت النتيجة السياسية الأولى لاهتمامه ببيريز الإنسان. سألنا:

- هل تعتقدون أنه إذا تسلم حزب العمل السلطة، سيكون ذلك أسهل للسلام؟

وبدون أن ينتظر الجواب تابع يقول:
- كيف نساعد بيريز على كسب الانتخابات؟

وإزاء الدهشة التي نطقت بها أعيننا قال:

- إننا نستطيع ذلك، كما تعرفون. نستطيع أن نعمّم توجيهاً بين فلسطينيي إسرائيل، فهم ينتخبون. إنّ بضعة آلاف من الأصوات يمكن أن تغيّر نتيجة الاقتراع في ذلك البلد.

اعترضنا بـالقول بـأن هذه فكـرة ممتازة في زمن السلم، ولكننـا في زمن الحرب... تخيّل... أن يلقى العدو مساندة من عدوه! كيف سيكون رد فعل المواطن البسيط؟ ألن يعتقد أن في الأمـر فخاً، خيانة؟

بدون أن يجيب حقاً عن ملاحظتنا، سأل ياسر عرفات أيضاً:

- لكن عندما يُنتخب، هل تعتقدون أنه سيقبل بلقاء؟

لقد كتب مكيافلي في الأمير: «ينبغي أن نعترف بأن الصدفة تحكم نصف أفعالنا، أو أكثر من نصفها قليلاً، وأننا لا نتحكّم إلا بالباقي». لكنه لا يحدِّد أي نصف هو الأهم... وبعد مضي شهرين تواجدنا في بيت شيمـون بيريز ذات مساء جمعة. كنّا نثرثر مع زوجته سونيا حينها سألنا فجأة:

- كيف حال صديقكم في تونس؟

فزوّدنـاه ببعض الأخبار.

- ألا من مزيد؟

- إنه يشيخ، مثلنا جميعاً. لقد اشترى لنفسه نظارات.

- هكذا إذن! اشترى نظارات!

هتف شيمون بيريز بذلك بنبرة تنمُّ عن اهتمام شديد.

وراح يردِّد: «هكذا إذن!» كما لو أنّ هـذا الخبـر العـادي أهمية سيـاسية فاصلة.

٣

كانديد(*) والفلسطينيون

كان رجل قصير القامة، أصلع الرأس، كثّ اللحية، يسير بخطى سريعة في شوارع لندن، غير آبه بالمطر.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة وخمس وأربعين دقيقة في صبيحة ذلك اليوم الرابع من كانون الأول/ دسمبر ١٩٩٢. كان قبل ساعة بالضبط قد غادر منزل ابن عمه في الضاحية وركب قطار الأنفاق المزدحم. فلم يكن مع يائير هرشفلد نقود لركوب تاكسي.

لقد كان كل ارتحال إلى الخارج مصدراً لـ «وجع الرأس» بالنسبة إلى أستاذ التاريخ هذا، المدرِّس في جامعة حيفا. فقد كان عليه، بحكم استبعاد فكرة الفندق، أن يتدبّر مأوى له لدى قريب أو صديق. ولكن ما كانت تخامره من جرّاء ذلك أية مرارة.

كان هذا الإسرائيلي، البالغ تسعة وأربعين عاماً والمولود في نيوزيلاندا من أبوين يهوديين نمسويين، يسدّد نظرة ساذجة وعنيدة إلى العالم. كان يؤمن بشيئين: بضرورة الحوار المباشر بين إسرائيل والفلسطينيين، بمن فيهم منظمة التحرير الفلسطينية، وبالثقل الفاصل للاقتصاد كإسمنت للسلام. ولأمد طويل

(*) بطل قصة لفولتير بالإسم نفسه يتعامل بسذاجة مع العالم. «هـ.م».

لم تلقَ أفكاره صدى يذكر لدى الرأي العام. فالغالبية في كل معسكر كانت تبدو منجذبة إلى إغراء التصلُّب واللجوء إلى القوة.

إن التاريخ ينضج على نحو غريب، وهرشفلد قد روَّضه بمعنى ما. فما أشبهه بالأستاذ «عباد الشمس»، ذلك البطل الوديع والساذج لقصص «تانتان»[1] المصوَّرة الذي يصل دائماً إلى أغراضه لأن غفلته تخفي عنه الفخاخ التي قد يسقط فيها.

وفيما هو متجه نحو الشارع السكني الفخم المعروف باسم سانت جيمس كورت، راح يستعيد في ذهنه الكيفية التي تسلسلت بها الأحداث.

ما كان يفترض به قط أن يكون في لندن. كل شيء بدأ قبل بضعة أيام، في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، حينما صفَّ سيارته القديمة أمام منزل حنان عشراوي الفخم في رام الله بالضفة الغربية. هذه المرأة اللامعة والحازمة هي، مع فيصل الحسيني، من أبرز قادة فلسطينيي الداخل. وهي تعرف وتقدِّر هرشفلد منذ سنوات.

ففي عام ١٩٨٩، وفيما الانتفاضة في أوجها، نظم الأستاذ الإسرائيلي في قاعة المحاضرات بكنيسة السيدة في القدس، عند التخوم الفاصلة بين المدينتين اليهودية والعربية، ندوات ضمّت فلسطينيين وإسرائيليين. ولم يحضرها جمهور غفير ولم تولها الصحافة الإسرائيلية اهتماماً يذكر. ومع ذلك، فقد شاركت فيها حنان عشراوي، وكذلك فيصل الحسيني، وكان المتدخل الإسرائيلي الرئيسي نائباً عمالياً شاباً، هو يوسي بيلن الذي كان ترك مهنته الجامعية منذ عام ١٩٧٧ ليقفو أثر شيمون بيريز في منفاه السياسي.

وفي حزيران/ يونيو ١٩٩٢، قلب النصر المريح الذي أحرزه حزب العمل المعطيات كافة. فتولّى شيمون بيريز وزارة الشؤون الخارجية وسمّى نائباً له يوسي بيلن، وكان هذا الأخير يعتنق وجهات نظر قريبة من وجهات نظر هرشفلد، مما حمل الاثنين على إنشاء مركز أبحاث صغير، باسم مؤسسة التعاون الاقتصادي،

---

(١) سلسلة كتب أطفال مصورة مشهورة معروفة باسم بطلها «تانتان». «هـ.م».

وكان الهمّ الدائم لهرشفلد تدبير تمويل لها.

في أيار/ مايو ١٩٩٢، وقبل شهر واحد من النجاح الإنتخابي للعمّاليين الإسرائيليين، عرّفه يوسي بيلن بنرويجي يدعى تيرج رود لارسن، وهو مدير لمعهد مهمّ يُعرف باسم فافو FAFO، ومتخصّص بمشكلة الأراضي المحتلة.

تناقش الرجال الثلاثة مطولاً في القدس، في الحدائق الهادئة التابعة لـ «الأميركان كولوني»، وهو فندق في المدينة القديمة كان له فيما غبر سحره الخاص.

على إثر ذلك اللقاء وعد لارسن هرشفلد بالسعي إلى تخصيص مئة وعشرين ألف دولار لتمكينه من إجراء دراسات. وداعب أستاذ جامعة حيفا أحلاماً عريضة، ولكن الشهور مرّت بدون أن يظهر شيء ملموس في الأفق.

وحينما وصل هرشفلد يوم ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر إلى منزل حنان عشراوي، القائم قبالة مركز الحاكم العسكري الإسرائيلي، كان في الواقع مهموماً ومشغول الفكر بتلك الاحتمالات المالية.

أمّا شواغل حنان عشراوي، في ذلك اليوم، فكانت من طبيعة أخرى. فهذه المرأة السمراء، البالغة من العمر خمسين عاماً، ومدرِّسة الأدب الإنكليزي في العصر الوسيط، كانت، بكل ما عُرف عنها من ذكاء سياسي، قلقةً من تعثّر مفاوضات السلام بواشنطن.

وكان مؤتمر مدريد الذي جرى تنظيمه في عام ١٩٩١ بناءً على مبادرة من جورج بوش، والذي جلس فيه إسرائيليون وفلسطينيون لأوّل مرة على طاولة واحدة، قد انتهى إلى قرار ينصُّ على أنّ مفاوضات ثنائية سيجري تنظيمها في وقت لاحق بين جميع الأطراف المعنيّة في العاصمة الأميركية.

وفي نظر حنان عشراوي، الناطقة بلسان الوفد الفلسطيني إلى تلك الاجتماعات، كانت النتائج المحرزة أكثر من مخيبة للآمال.

ستقول لنا في وقت لاحق:

ـ كنت مقتنعة بأنه لا بد من خلق عدّة شبكات موازية، لأنّ مفاوضات

واشنطن كانت عبارة عن مساجلة عـامـة بكلّ مـا في الكلمة من معنى، ومن الواضح أنّه ما كان لشيء أن يخرج منها. وعلى كلٍ، فقد كانت تتخبط في مأزق مسدود. وقد قلت في أكثر من مناسبة للأميركان: «لماذا لا تخلقون شبكة مثلّثة المسالك إذا كنتم تودّون أن تلعبوا دوراً فعلياً؟ إنّنا جميعاً نعلم أن المفاوضـات الحقيقية تجري دوماً خلف المسرح. ونحن مستعدّون لخلق شبكة تجمع رسميين إسرائيليـين، ومسؤولـين من منـظمـة التحـريـر الفلسـطينيـة وأنـتم». لكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً التفاوض مع م. ت. ف. كـانوا يتقـدّمون بحـذر شديد، بدون خيال وبدون جرأة. وعليه، فقد بدأت أنشيء قنوات أخرى.

كان هرشفلد يجهل، وهو يتناول الشاي ويتبادل أطراف الحديث بمودّة في صالون مضيفته، أنّه يؤلف جزءاً من استراتيجية حنان عشراوي. وما كانت هي نفسها لتشتبه بأن المبادرة التي ستتخـذها ستفلت بسرعـة من رقابتهـا. فيائـير هرشفلد، القريب من يوسي بيلن، وبالتالي من شيمون بيريز، كان يمثّل في آن معاً أثراً إضافياً يتعينّ اقتفاؤه وورقة رابحة ينبغي استعمالها. وكان الاختيار الذي أمامها من طبيعة ذرائعية وتكتيكية، وما كان لها أن تعلّق عليه أوهاماً مسرفة. وبالفعل، إن تلك الاتّصالات لم تـؤدّ قط إلى نتائج ملموسة، لكن بمـرّ الزمن برزت ظاهرة غريبة.

فقد انتهى الأمر بالخصوم إلى أن يتعارفوا ويفهموا بعضهم بعضاً. وبكيفية لامحسوسة شرعت الذهنيات تتقارب، والأذهان تتروّض، حتى وإن بقي المنطق السياسي لكل طرف على تناحره مع منطق الطرف الآخر.

في ختام نقاشهما سألت عشراوي هرشفلد:

ـ هل لديك مشاريع سفر في الشهور القادمة؟

ـ بلى، ندوة في زوريخ في نهاية تشرين الثاني، حول مشكلة المياه.

بدا على مخاطبته اهتمام مفاجيء:

ـ عليك أن تنتهز الفرصة لتطير إلى لندن حيث ستبدأ في ٣ كانون الأول أعمال لجنة الصياغة للمفاوضات المتعدّدة الأطراف. فقد يكون في الأمر فائدة كبيرة لك.

قلب هرشفلد شفته متشكّكاً:

ـ أتعتقدين؟ الأمر معقّد بعض الشيء، وليس عندي مال لأدفع ثمن تذكرة زوريخ ـ لندن.

ابتسمت حنان عشراوي:

ـ بصراحة، يا يائير، لا أعتقد أن هذه عقبة. فوكالة سفرياتك تستطيع بسهولة تسوية هذه المسألة بدون أن تتكلّف أنت عبئاً مالياً. ومتى حططت في لندن، فسيكون بوسعك أن تغتنم الفرصة للالتقاء بأبي العلاء.

فانتفض هرشفلد:

ـ هل سيكون أبو العلاء حاضراً؟

ـ أجل، وبوسعي أن أؤكّد لك أنه سيغتبط بالتعرف إليك.

لبث الأستاذ الجامعي الهادىء الحركات يتفكّر لوهلة من الزمن. فأبو العلاء يمثل في نظره المحاور الأمثل. فالرجل قريب من عرفات، ولكنه فضلاً عن ذلك معتدل وذرائعي. وبصفته مصرفياً ورجل صناعة معاً، فإنه يتولّى إدارة الدائرة الإقتصادية في م. ت. ف.

كان هرشفلد يتذكّر بجلاء ذلك النص المؤلّف من ثلاث عشرة صفحة الذي وصل إلى يديه قبل نحو سنة من الزمن. وثيقة موقّعة باسم أبي العلاء وموجّهة إلى المسؤولين في الأسرة الأوروبية عن المستقبل الإقتصادي للشرق الأدنى. وكان الأستاذ الإسرائيلي، الذي حرّر بنفسه خطة للتنمية، قد استمالته واقعية تلك المرافعة من أجل تعاون إقليمي يجمع بين إسرائيل وجيرانها. ولقد أوصل نسخة من ذلك النص إلى صديقه بيلن الذي سارع إلى نقله إلى بيريز ليقرأه بدوره.

وعلى حد تعبير أحد المقرّبين إليه، فإن رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية «قد وجد فيه شبه انعكاس لرؤيته هو للأمور».

والواقع أن اختيار منظمة التحرير الفلسطينية لأبي العلاء ليكون ممثّلها في اللعبة التي تعدّ لها العدّة كان غاية في الأرابة. وحسب رأي أوري سافير، المدير في وزارة الخارجية الإسرائيلية، فإن أبا العلاء «يسيطر على الجانب الإقتصادي، ويحمل أفكاراً مناظرة لأفكارنا، وفضلاً عن ذلك فإنه على معرفة تامة بفكر بيريز.

ولسوف يتّضح أن هذا العامل الأخير فاصل.

وجد هرشفلد في الاقتراح الذي عرض عليه ما يغريه وما يثير قلقه معاً. فالقانون الإسرائيلي يحظر، تحت طائلة الحبس، اتّصال المواطنين الإسرائيليين بأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية.

استأذن حنان عشراوي بالانصراف متهرّباً من إعطاء جواب حاسم:

ـ سأفكّر، سأسافر إذا توفّر لي الوقت.

وخطّ على قطعة ورق رقم هاتف نسيب بعيد له مقيم في لندن:

ـ على هذا الرقم يمكن الاتصال بي.

في طريق عودته توقف في القدس ليتناقش مع رون بونديك. فهذا الجامعي، المتحدِّر من أب صحفي مشهور، كان تلميذاً لهرشفلد قبل أن يصير معاونه في مركز الأبحاث الصغير الذي أنشأه يائير. وفضلاً عن ذلك، فإن بونديك مؤرّخ وصحفي في هآرتز، واختصاصي هو الآخر في قضايا الأراضي المحتلّة، وهو يوحي، بنظارتيه المستديرتين وشعره الواقف، وكأنّ شبهاً ما يجمع بينه وبين وودي ألن[1].

استمع إلى يائير وهو يروي قصته، وخلص إلى الاستنتاج بدون مزيد من الشرح:

ـ لا تفكّر في الموضوع كثيراً، عليك أن تحضر.

ولكن هرشفلد لم يقتنع اقتناعاً تاماً. في الغداة قصد يوسي بيلن في مكتبه بوزارة الخارجية. ما أغربه من مكان! إنّ الدبلوماسية الإسرائيلية تقيم منذ بضع عشرات من السنين في مبانٍ مسبقة الصنع تقع عند تخوم تل أبيب.

إنّ نائب الوزير، القصير القامة، الخجول المظهر، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، هو من أولئك الذين عملوا بلا كلل من أجل تطوير حزب العمل

(١) مخرج وممثل كوميدي أميركي يهودي مشهور. «هـ.م.».

وإقناع قادته بضرورة الحوار مع م. ت. ف. ومع ذلك فقد استقبل بحذر النبأ الذي جاءه به هرشفلد. كاشفنا بالقول فيما بعد:

ـ ما كنت أعتقد أنّه في المستطاع تغيير الموقف. كنّا نعلم أنّه لا بد من الكلام مع م. ت. ف، ولقد كانت ليائير اتّصالات جيدة جداً، لكن محاولات مماثلة حدثت في الماضي ومنيت كلها بالفشل. إنّ قصص هذا الفشل تملأ كتباً بكاملها.

بيد أنّ مصادفتين ستعطيان دفعة للقدر. فقد اكتشف بيلن أنّه يتعينّ عليه هو الآخر أن يكون موجوداً في لندن يوم ٣ كانون الأول/ دسمبر. ومن ثم سيكون في مستطاع هرشفلد أن يزوّده بتقرير فوري عن لقائه مع أبي العلاء. والصدفة أيضاً هي التي شاءت أن يكون بطل آخر من أبطال قصتنا متواجداً في التاريخ نفسه في العاصمة البريطانية: تيرج رود لارسن، ذلك النرويجي المستدير الوجه، البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً، الذي يتكلّم الإنكليزية بلهجة أوكسفوردية قوية ويدير معهد العلوم الإجتماعية التطبيقية.

إنّه هو الذي وعد هرشفلد في شهر حزيران/ يونيو برصد ميزانية من مئة وعشرين ألف دولار. بيد أنه كاشف بيلن، على الأخص، بأن النرويج مستعدّة لتسهيل كل حوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين. فحكومة أوسلو الاشتراكية ـ الديموقراطية تقيم علاقات وثيقة مع جميع الأطراف: العماليين الإسرائيليين، وقيادة م. ت. ف، وكذلك الولايات المتحدة. وكما سيقول أحد صانعي عملية السلام هذه: «كانت النرويج هي البلد المثالي. فهي بعيدة عن الأضواء وعن الطرق الدبلوماسية المطروقة عادة».

لقد وجد يوسي بيلن ورقة رابحة ثالثة في شخص ذلك الرجل القصير المستدير الكثير الحركة الجالس أمامه. فمنذ سنوات وسنوات ويائير هرشفلد لا يفتأ يطوف بالأراضي المحتلة. وقد كسب ثقة واحترام المسؤولين الفلسطينيين في الداخل. وكانت له، على ما أفادنا بيلن، «اتّصالات سهلة للغاية، على نحو لم يسبقه إليه أحد، مع العرب، في إسرائيل وفي الأراضي المحتلة وفي الخارج. وبالنسبة إليّ، كان بالفعل شخصاً من طراز خاص، لا يخلو من غرابة أطوار. لقد ذهب إلى النمسا، إلى فيينا، في الثالثة والعشرين من عمره. وكان يتكلّم

بالألمانية مع زوجته. كان مختلفاً تمام الاختلاف عنّا، ولكنه نذر أيضاً تمام نفسه لهدف السلام. كان صادق الاعتقاد به. إنه بريء للغاية وساذج. إلى حدّ لا يكاد يصدق».

كان بيلن مقتنعاً، مثله مثل شيمون بيريز، بأنّ المفاوضات التي تدور في واشنطن لن تتمخض أبداً عن اتفاق.

ـ كنت أخشى أن نضيّع الوقت وألّا نحسن انتهاز فرص مثمرة أخرى. كان من الأهمية بمكان إذن شق طريق موازٍ للحصول على معلومات ولتمريرها. لكني ما كنت أريد في الوقت نفسه انتهاك القانون.

من هذه الزاوية كان هرشفلد، المتجرّد من كل صفة رسمية، مهيأً للعمل بعيداً عن الأضواء. وتشاء سخرية المقادير أن ذلك القانون الشهير، المسلّط كسيف ديموقليس على رقاب الرسميين، لن يبدأ تعديله عند القراءة الأولى في الكنيست إلّا يوم الثاني من كانون الأول. وفي الثالث منه طار بيلن وهرشفلد إلى لندن. وعند وصوله في منتصف العصر قصد الأستاذ نسيبه المقيم في الضاحية والذي قال له، حتى قبل أن يعانقه: «اسمع، إنّ شخصاً بصوت عربي قد اتّصل بي هاتفياً عشر مرات على الأقل هذا الصباح».

وكانت رسالة مبهمة الفحوى قد تركت على المسجّل الهاتفي:

ـ إلى السيد هرشفلد. نتمنى اجتماعاً معك.

اتّصل ياثير بفندق ريتز الذي ينزل فيه أبو العلاء. وأبدى المسؤول الفلسطيني عن حرارة وتلهّف.

ـ إنني مسرور بوصولك. هل نستطيع أن نلتقي غداً صباحاً في الريتز؟

تردّد الأستاذ الإسرائيلي. إذ كان حريصاً على أن تقع عليه الأنظار في الفندق الذي يؤوي الوفد الفلسطيني.

ـ أفضّل أن نلتقي في الساعة ١٠ صباحاً في «فورت كرست سانت جيمس». فأنا لديّ اجتماع آخر متوقّع في الساعة ٨ في ذلك الفندق.

كان الفندق الذي أشار إليه هرشفلد هو ذاك الذي ينزل فيه لارسن.

في الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة دلف الإسرائيلي، وهو يرتجف برداً وقد غرّقه المطر، إلى بهو سانت جيمس. كان الفندق، بأنواره الخافتة وفخامته غير الصاخبة، مكاناً ممتازاً للهدوء. قصد قاعة الفطور في الطابق الأول. كان لارسن قد سبقه إليها وجلس إلى طاولة خشبية مستديرة. كان يرتدي واحداً من تلك القمصان المقلّمة التي يحبها. وكان هرشفلد قد اتّصل به هاتفياً من حيفا، قبيل سفره مباشرة، لتحديد ذلك الموعد.

قال له النرويجي:

ـ كم يسرّني أن أراك هنا في لندن.

حدّق إليه يائير مطوّلاً:

ـ تيرج، في لقائنا الأخير في القدس في حزيران/ يونيو المنصرم، قلت لي حرفاً بحرف: «إذا احتجت يوماً إلى شيء من أجل اجتماع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فسأساعدك في كل ما تطلبه. لن أتخلّف عن مؤازرتك».

أجابه لارسن:

ـ بل لقد حدّدت بأننا، نحن النرويجيين، لا نريد أن نتولّى نحن إقامة اتصالات بين الطرفين. ولكن إذا شئتم أن تفعلوا أنتم شيئاً ما مع الفلسطينيين، وكنتم بحاجة إلى مساعدة، فنحن على استعداد لها.

هزّ هرشفلد برأسه وكأنه اطمأنّ:

ـ حسناً، يجب أن تعلم أنني سألتقي هنا بالذات، في الساعة ١٠، أبا العلاء. أعرف أنك تعرفه، ليس عندي أية فكرة عمّا سيخرج من لقائنا، لكن إذا نتج عنه شيء مهمّ أو مثير للإهتمام، فهل في وسعكم أن تساعدونا في المستقبل؟

لم يبدر عن النرويجي أي دليل على التفاجؤ أو التردّد:

ـ بالطبع. أيّا ما تكن حاجاتكم فسوف نساعدكم. يصعب عليّ تأمين المئة والعشرين ألف دولار التي وعدتك بها، لكنّنا سنأخذ على عاتقنا نفقاتكم كافة إذا ما توبعت المناقشات في النرويج.

افترق الرجلان في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين، بعد أن اتفقا على معاودة التلاقي في العشية، وتوارى لارسن عن الأنظار قبل وصول المسؤول الفلسطيني، دأباً على عادة التكتّم التي تفسّر نجاح «الضيافة النرويجية».

سيقول فيها بعد مسؤول من أوسلو شارك في المفاوضات السرية:

ـ كنّا نريد أن نخلق جواً معاكساً لجو واشنطن من خلال مفاوضات صغيرة بعيداً عن الأضواء الإعلامية، تأميناً للثقة الشخصية بين المشاركين.

في الساعة العاشرة والدقيقة الثانية وصل أبو العلاء إلى الفندق، يرافقه ممثّلو م. ت. ف. في لندن، وحسن عصفور، وهو مسؤول سابق في الحزب الشيوعي صار فيها بعد مستشاراً لعرفات.

في الخارج اشتدّ هطول المطر. تفرّس هرشفلد في أبي العلاء بفضول. لقد كان لمحه لمحاً عام ١٩٩١، أثناء جلسة افتتاح مؤتمر مدريد. وأبو العلاء رجل في العقد السادس من العمر، لطيف وجذّاب، برّاق النظرة، أنيق الملبس، وله شارب خفيف. وهو أشبه برجال المصارف الأغنياء في الشرق الأوسط منه بمسؤول في حركة تحرير. والرجل، على حد ما هو معلوم، لم يتورّط قط في عملية إرهابية، ولعلّه المسؤول الوحيد الذي يعرف، مع ياسر عرفات، الوضع الفعلي لمالية المنظمة.

تقف المنظمة الفلسطينية، على ما يرى العديد من الخبراء، على حافة الإفلاس منذ أن أوقف شيوخ النفط الخليجيون كل مساعدة مالية عنها، بعد مساندة عرفات لصدام حسين أثناء حرب الخليج .ومع ذلك، فإنّ معلومات دقيقة تشير إلى أن خزينة حرب منظمة التحرير الفلسطينية تتراوح ما بين ٤ و٦ مليارات دولار.

وتوظف المنظمة أموالها، أكثر ما توظفها، في العالم العربي، وكذلك في مصارف سويسرا واللوكسمبورغ، بالإضافة إلى بريطانيا التي تمتلك فيها المنظمة عدداً كبيراً من العقارات، ولا سيما في حي مايفير الأنيق.

كان أبو العلاء، المطلع على هذه الأسرار، يتكلم بحبور واعتدال لقيا للحال قبولاً حسناً لدى هرشفلد.

قال له الإسرائيلي:

ـ قرأت بكثير من الاهتمام تحليلاتك حول المستقبل الإقتصادي للمنطقة.

أجاب الفلسطيني مجاملاً:

ـ أعتقد أنك اشتغلت على الموضوع نفسه، وأن النتائج التي انتهينا إليها كلانا متقاربة.

وفي الواقع انخرط الرجلان كلاهما في لعبة غريبة انطلاقاً من اقتناع كل منهما بأن الآخر هو السائل. ولسوف يستمرّ النقاش ثلاث ساعات قابل أثناءها هرشفلد وأبو العلاء ما بين وجهات نظريهما، المتطابقة في الغالب، حول مستقبل الأراضي المحتلة، وضرورة التفاوض السريع، والمأزق الشامل الذي آلت إليه مناقشات واشنطن. ومع ذلك، بقي التشكّك سائداً.

في إحدى اللحظات قال هرشفلد:

ـ يفترض بنا أن نتكلم عن السلام.

فأجابه أبو العلاء:

ـ هل تعتقد أنه من المنطقي والطبيعي خلق قناة يكون الغرض منها فتح مفاوضات رسمية؟

تردّد هرشفلد قبل أن يجيب محرجاً:

ـ هذا يصعب قوله. إنني لست رسمياً.

رفع أبو العلاء ذراعيه ـ وقد اغتمّ وجهه ـ علامة على العجز:

ـ إذا لم تكن رسمياً، فماذا في وسعنا أن نفعل؟

أجاب هرشفلد:

ـ اسمع، لنعاود الالتقاء مساءً، فربما أمكننا أن نتقدم، لأنه لديّ بعد الظهر موعد مع «أصدقاء».

ابتسم المسؤول الفلسطيني عندما سمع كلمة «أصدقاء» وأجاب:

ـ حسناً، أيوافقك أن نلتقي في الساعة الثامنة مساء في فندقي؟

تابع هرشفلد، غيرمبال بالجو العاصف، رحلته الغريبة عبر شوارع لندن. دوماً على قدميه.

في الساعة الرابعة بعد الظهر طرق باب غرفة دان كورتزر في الفندق. إنّ هذا اليهودي المتديِّن، البالغ خمسة وأربعين عاماً من العمر، الذي لا يضع على رأسه القلنسوة اليهودية، ولكن الذي لا يأكل سوى «الكاشر»[1]، هو من أقدم أصدقاء هرشفلد. وهو من المسؤولين المفاتيح في الدبلوماسية الأميركية. كان سابقاً مستشاراً لجيمس بيكر، وهو لا يزال يتحمّل مسؤوليات في وزارة الخارجية.

سرد الجامعي الإسرائيلي بحماسة قصة لقائه مع أبي العلاء. أصغى إليه كورتزر باهتمام:

ـ يخيل إلي أن الأمر مثير فعلاً للاهتمام. تابع. حال عودتي سأخبر بالأمر البيت الأبيض ووزارة الخارجية.

بعد أن اطمأنّ هرشفلد على هذا النحو إلى تأييد الأميركان ودّع صديقه وغادر تحت المطر. أمّا في الواقع فإن الخبر الذي نقله دان كورتزر لم يقابل عملياً بأيّ رد فعل في داخل إدارة كلنتون. فالرئيس الأميركي قد صرف اهتمامه عن هذا الملف، ووزير خارجيته، وارن كرستوفر، لا يمحض أية ثقة لا لمنظمة التحرير الفلسطينية ولا للاتّصالات السرية. وطبقاً لتصريحات خاصة أدلى بها إلينا أحد معاونيه المقربين، فإنه «كان يعتقد أنّ كل سلم جدي لا بد أن يقوم على اتفاق بين إسرائيل وسورية».

في الساعة السادسة مساء وصل هرشفلد إلى فندق «حياة». كان على موعد مع يوسي بيلن. هذه المرة أيضاً جاء جواب مساعد وزير الخارجية الإسرائيلي،

(١) اللحم «الحلال» عند اليهود. «هـ.م.».

بعد أن انتهى هرشفلد من عرضه، تهرّبياً:

ـ الأمر على ما يبدو لي جيد. ولكني لا أستطيع هذه اللحظة أن أشارك في اللعبة، فحكومتي تمنعني.

كان بيلن يخشى أن يصل إلى علم أحد أنه شجع التفاوض مع م. ت. ف. لكن استمرار تلك الاتصالات في بلد بعيد عن الأضواء مثل النرويج أمر يبعث على الاطمئنان. وقد قرّ عزمه على أن لا يذكر شيئاً عن الأمر لشيمون بيريز في مرحلة أولى على الأقل.

غادر هرشفلد، وقد تقمّص شخصية رسول السلام الذي لا يعرف الكلل، فندق «حياة» في الساعة السابعة والربع، وسار باتجاه فندق «الريتز» فوصله قبيل الساعة الثامنة. واستقبله أبو العلاء في جناحه:

ـ هل جرت اللقاءات مع أصدقائك على ما يرام؟

فابتسم هرشفلد وهزّ رأسه بالإيجاب:

ـ بلى!

ـ إذن؟

ـ نعتقد أنّنا نستطيع أن نبدأ النقاش في أوسلو، بالنرويج.

فحدّق فيه أبو العلاء مشدوهاً:

ـ لماذا أوسلو؟

فجاءه جواب هرشفلد في غاية من البراءة:

ـ لأنهم يدعوننا.

ـ رسمياً؟

ـ بلى، كل شيء قد رُتِّب.

نظر إليه الفلسطيني برزانة:

ـ إذا شرعنا بمناقشات، فلا أعتقد أنه من المفيد أن نقتل التاريخ بحثاً، إذْ لا أحد يستطيع إقناعي بأن فلسطين لا تعود إليّ ولا أحد يستطيع إقناعك بأنها لا تعود إليك. إذنْ فلنبدأ بما هو قائم فعلاً من الصعوبات.

في ذلك اليوم عينه طرد إسحق رابين ٤١٥ محازباً لـ «حماس» إلى لبنان. لكن الرجلين لم يتطرّقا في أي لحظة إلى هذا الملف.

سيكاشفنا أبو العلاء بعد عدّة أشهر في تونس بالقول:

ـ ثلاثة عناصر حدت بي إلى الاهتمام بالمشروع. فقد كنت أفترض أولاً أن هرشفلد يحظى بتأييد يوسي بيلن الذي كان مقرّباً إليه. ثم إنّه يعرف كورتزر الذي كان يقيم في لندن في تلك الفترة. إذن فالأميركان، حتى ولو كانوا لا يؤيّدون بفاعلية هذه المبادرة، مطلعون عليها ولا بد. وأخيراً، كان اختيار النرويج يبدو لي موفقاً. فهذا البلد الصغير يقيم علاقات ودّية مع جميع الأطراف. باختصار، كنت ميالاً إلى المشاركة، ثم على مرّ الأيام رحت، ولا بد أن أعترف بذلك، أنسى الموضع شيئاً فشيئاً.

غريباً كان شهر كانون الأول/دسمبر: فقد بدا، بالفعل، وكأن كل شيء يتجمّد فيه. وحال عودته إلى إسرائيل حرّر يائير هرشفلد، بمساعدة رون بونديك، مذكرة برسم يوسي بيلن عرض فيها احتمالات مفاوضات مقبلة. وكان بيريز ورابين يجهلان كل شيء عن مثل هذا المشروع. وكما سيعترف لنا بيلن لاحقاً:

ـ لو تدريان كم عدد الذين يأتون لرؤيتي بفكرة لقاء م. ت. ف.

في تونس كان الوضع على عين ما هو عليه من جمود في المعسكر الآخر. ولا يبدو مؤكّداً أن أبا العلاء أعلم عرفات باتصالاته مع هرشفلد في لندن، ولا باحتمال إجراء مناقشات في النرويج. وأيًّا ما يكن من أمر، فإن رئيس م. ت. ف ما كان يرى في ذلك سانحة ينبغي انتهازها على عجل. وكما سيفيدنا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣:

ـ لم تكن هي القناة الأولى التي نفتحها. فما أكثر ما استكشفنا من أقنية في الماضي!

بيد أن النرويجي لارسن سيقطع حالة الانتظار هذه كيما يطلق العملية من جديد. ففي ١٨ كانون الأول قدم إلى تونس. وكانت تنتظره في المطار سيارة

لتقوده إلى مكتب أبي العلاء. واستقبله رئيس الدائرة الإقتصادية، يحيط به عدد من معاونيه. وبعد نصف ساعة من النقاش طلب من مساعديه أن يغادروا الغرفة. وما كاد الباب يطبق خلفهم حتى بادر لارسن مخاطبه بالقول:

ـ أتدري أنك مدعو إلى النرويج؟

فابتسم أبو العلاء ابتسامة عريضة:

ـ إنّنا نعلم أن لك اتصالات وثيقة بالحكومة الإسرائيلية. فهل يسعك أن تساعدنا على إقامة اتصال معها من أجل التفكير بإجراء مناقشات موازية لمفاوضات واشنطن؟

ـ هذا ممكن تماماً. هل أستطيع لقاء الرئيس عرفات؟

بعد ساعة واحدة كان مدير المعهد النرويجي يجلس في قبالة رئيس م. ت. ف. ودارت بين الرجلين محادثة مقتضبة بقدر ما هي غريبة.

قال لارسن:

ـ سيدي الرئيس، ماذا نستطيع فعله لكم؟

أجاب عرفات، كعادته، إجابة دبلوماسية وفضفاضة:

ـ بوسعكم، بصفتكم بلداً اسكندنافياً، شمالياً، أن تفعلوا الكثير. لن أنسى أن مفاوضاتنا مع الإدارة الأميركية قد بدأت أولاً في السويد.

كانت هذه الكلمة، بالنسبة إلى لارسن، بمثابة ضوء أخضر حقيقي. وقد أسرّ فيما بعد إلى المقرّبين إليه:

ـ شعرت في تلك اللحظة أن ثمّة فرصة متاحة للنرويج كيما تلعب دوراً تاريخياً. كنا في وضع مميز بحكم العلاقات الممتازة التي نقيمها مع الأطراف كافة. باختصار، خالجني شعور بأن في مقدورنا أن نتدخّل بصورة حاسمة في ما كان يبشر بأن يكون منعطفاً في التاريخ.

كلمات طنّانة وحماسية تخفي وراءها واقعاً عادياً جداً في رأي رون بونديك، أحد المفاوضين الإسرائيليين:

ـ ما جرى بين كانون الأول ١٩٩٢ وأيلول ١٩٩٣ ما كان نتيجة لمبادرة نرويجية مزعومة. وما وجدت قطّ مبادرة نرويجية، بل فقط مناقشات ثنائية بين الإسرائيليين و م. ت. ف، تولّى النرويجيون تسهيلها. وهذا هو بالأصل السبب الذي جعل النجاح يكتب لها. فلقد كانت، ولأول مرة، مفاوضات مباشرة، بلا وسيط.

على أن لارسن سيقوم على كل حال بعمل لوجستي مهم. فهو الذي سيعنى بتذاكر الطيران وبالتنظيم المحلي. وقد اتّصل هاتفياً بصديق له هو ينس ب. هايردال، المسؤول في مجموعة أوركلا الصناعية، ليطلب إليه أن يضع تحت تصرّفه مزرعة بورغارد التي تستخدم في العادة لعقد حلقات دراسية للمؤسسة. كانت عبارة عن عزبة ريفية صغيرة، تقع على بُعد مئة وخمسين كيلومتراً من أوسلو، وتزيّنها تحف خشبية قديمة. وقد قبل الصناعي حالاً، بدون أن يطرح أدنى سؤال. واتّفق الطرفان على لقاء أول في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣.

سيكتشف الإسرائيليون بعد خمسة أشهر أن عرفات ومعاونيه أعطوا ضوءهم الأخضر وقبلوا بإيفاد شخصية بوزن أبي العلاء، اقتناعاً منهم بأن يائير هرشفلد ورون بونديك مفوّضان مباشرة من قبل إسحق رابين وشيمون بيريز.

أمّا الواقع فكان على العكس من ذلك تماماً. فحينما غادر الأستاذان تل أبيب إلى أوسلو، عن طريق جنيف وباريس، استبعاداً للشكوك، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي، إسحق رابين، يجهل كل شيء عن المبادرة. وكان وزير خارجيته شيمون بيريز قد أعطى موافقته، ولكن من طرف شفتيه. وحسب اعتراف يوسي بيلن، نائبه، فإنه «ما كان متحمساً كثيراً».

وكما روى لنا رون بونديك:

ـ رسمياً، لم يكن ثمة أي نقاش مباشر بين إسرائيل و م. ت. ف. ولو اكتشف الأمر ونشر في الصحافة، لوصفت المبادرة بأنها حلم رجلين مجنونين، لا يستحقّان أكثر من رفسة في قفاهما في شكل تصريح رسمي: «ما أنتما إلاّ غبيان. فيمَ تتدخلان؟ أخليا الساحة».

٤

«البداية هي نصف الكل»

حتى نروي قصة ذلك اليوم اللندني استجوبنا كل من كان موجوداً آنذاك في العاصمة البريطانية.

النقطة المثيرة في هذا التحقيق هي استماعنا إلى القصة عينها تروى من قِبل كل شاهد بصورة مغايرة. فكلّ واحد يحاول أن يستأثر بدور البطولة وأن يشدّ اللحاف إلى طرفه. «فقرّرت عندئذٍ أن يتمّ التفاوض كتابياً ومباشرة بالإنكليزية». كم واحد أكّد لنا أنه وراء هذه الفكرة العظيمة؟ كلهم تقريباً، الفلسطينيون منهم والإسرائيليون، الوجوه المشهورة عالمياً والمستشارون غير الظاهرين، الإرهابيون الذين عقلوا وثعالب السياسة القدامى.

بيد أن الإجماع ينعقد في المعسكرين وفي الجماعات المتفرّعة عنهما حول الدور الفاصل ليائير هرشفلد. فقد كان أول من أطلق، وحده، شرارة العملية.

يقال: إنّ البداية بمثابة نصف الكل. وعليه، وكيما نفهم ما حدث على أحسن نحو ممكن، فقد قصدنا أولاً هرشفلد لنتعرف عليه. وهو أستاذ في جامعة حيفا ويعيش، لأسباب تتعلّق بصحته، في قرية تقع على بُعد ثلاثين كيلومتراً جنوباً.

ليس المكان بسهل المنفذ. وقليلون هم من يعرفون، حتى في إسرائيل،

تلك النقطة الضائعة ما بين حيفا والناصرة.

بعد ساعة من السير البطيء في طريق مزدحم تسلخه الشمس رفض سائق التاكسي المضي إلى أبعد من ذلك، وتركنا. واصلنا طريقنا بالباص. كانت المقاعد ضيقة ومكتظة بمسافرين نائمين يتصببون عرقاً، وبجنود مأذونين يحملون رشيشاتهم تحت آباطهم. نزلنا أخيراً عند محطة بنزين رامات حزقيا. كان يمتد خلفها شارع واحد لا غير تحف به من الجانبين منازل فردية، ثم معمل إطارات، ولا شيء بعد ذلك. يخيل للمرء وكأنه في «باص ستوب»[1]، علاوة على رائحة المازوت والكاوتشوك. لا أحد يعرف أين يقع شارع ياسمين الذي دلّنا عليه يائير هرشفلد. كذلك لا أحد سمع باسم الأستاذ. واعتقاداً منّا بأننا قد نثير الاهتمام، فقد شرحنا بشيء من الغيظ أن الرجل الذي نسأل عنه هو صانع اتفاقية السلم. لم نقابل إلاّ بهز الأكتاف. ولم نجد من حل في النهاية غير أن نتصل به هاتفياً. فقدم للقائنا من وراء مقود سيارة بيجو قديمة. كان مستدير الرأس، مشدوه النظرة، تتناثر على قحفه الأصلع بعض خصل نادرة... ولم يكن ينتعل حذاء.

لم يبد على أسرته أنها تعير انتباهاً فائقاً للمألوف لكوننا قد قطعنا عدة آلاف من الكيلومترات لنستقي من فمه مباشرة قصة الوقائع. مرّت زوجته بجانبنا حتى بدون أن تحيينا، وخفض ولداه اللذان كانا ينظران إلى التلفزيون في غرفة مجاورة الصوت على مضض. كنّا نشعر وكأنّنا متطفّلان، إلا بالنسبة إلى يائير هرشفلد الذي بدا مبتهجاً بأن يشاطرنا قصة الأشهر الخمسة من مفاوضاته مع م. ت. ف. وتلطّف فأصلح وضع شرشف الطاولة التي جلسنا إليها، وكان ملطّخاً بالدهن.

تكلّم مطولاً، ثم سردنا على مسامعه بعض قصص أصغى إليها بقدر من السرور، ثم قهقه لما حدّثناه عن إخفاقاتنا.

فهو قد نجح حيث فشلنا. «بفضل سذاجته العدوانية» كما قال يوسي بيلن،

---

(١) فيلم مشهور لعبته الممثلة الراحلة مارلين مونرو، ويدور مطلعه في الصحراء الأميركية. «هـ.م.ع».

نائب وزير الخارجية. والواقع: بفضل فكرة بسيطة. فيائير هرشفلد هو المخترع الحقيقي للطريقة التي آتت ثمارها في أوسلو، والتي بات الجميع يدعون الآن أنها فكرتهم: التفاوض كتابياً.

وانطلاقاً من مبدأ مفاده أن «الجميع غاطسون في مغطس واحد»، وجّه الأعمال نحو المصالح الإقتصادية المشتركة للمنطقة، لا نحو السياسة. وقد أعملوا الفكر معاً في أفضل الوسائل لتقاسم الماء أو لتشجيع التنمية بدلاً من أن يبنوا نظريات شمولية.

إنّ يائير هرشفلد من أصل فييناوي. وقد فرّ أهله من النازي في عام ١٩٣٨ حتى انتهى بهم المطاف في نيوزيلاندا حيث ولد هو نفسه عام ١٩٣٩ في ويلنغتون. وبعد عشر سنوات وانتهاء الحرب اقتنع الوالداه بأن النمسا قد تغيّرت. فعادا أدراجهما إلى فيينا مع ابنهما. وصار الفتى يائير صهيونياً، وأمضى مراهقته في حركة الفتيان اليهود اليساريين المعروفة باسم هاشومر عتزير. وكان من أعضائها أيضاً الفتاة التي ستصير امرأته: روث.

وفي الواقع، إنها امرأة ودود. فبعد زيارتنا لقريتهما الإسرائيلية الصغيرة، التقينا هرشفلد وزوجته مرة أخرى في باريس. وكان في طريق عودته من تونس حيث التقى عرفات للمرة الأولى. واعترفت لنا باسمة:

- معذرة عن ذلك اليوم. فقد وصلتما في لحظة غير مناسبة، إذ كنا قد تشاجرنا للتوّ. . .

ابتسم الأستاذ بدوره وأكّد على قولها مبتهجاً ومحرجاً في آنٍ معاً، كما لو أنه مراهق. وروى لنا أن كلاً منهما، هو وروث، حصلا بعد حرب الأيام الستة على منحة من قسم التاريخ في جامعة القدس. وعكف يائير هرشفلد على دراسة تاريخ إيران.

- لقد أفادني ذلك كثيراً في التفاوض مع الفلسطينيين.

قال ذلك ثم انطلق يضحك بصوت لا يخلو من نشاز وهو يتقصّف مثل غلام صغير.

وفي السبعينات طلبت إليه التلفزة النمساوية أن يعلق على أحداث إيران. وقد انتبه له المستشار النمساوي برونو كرايسكي، وكـان من أصل يهـودي، ودعـاه إلى فيينا، وكلّفـه بتنظيم اتصـالات مع فلسـطينيي الداخـل. وبما أنّ كرايسكي صديق لبيريز. . .

انتهت مساعي التقارب هذه عام ١٩٨٢ حين طلب كرايسكي فصل حزب العمل الإسرائيلي من الأممية الإشتراكية. وتوقف كل شيء ما بـين كرايسكي وبيريز، ولكن هرشفلد واصل عمله.

٥

«الختيار» في المأزق

في تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨٢ لم تكتب النجاة لياسر عرفات إلاّ بفضل عـدوه اللدود أرييل شـارون، وزير الـدفـاع الإسرائيـلي. ففيـها كـان الجيش الإسرائيلي يطوّقه هو وقواته في بيروت، تمكّنت سرية مغاوير إسرائيلية تسلّلت إلى مبنى قريب من رصد حركته. وسدّد إليه قناص إسرائيلي منظار بندقيته المزوّدة بعدسة تعمل بالأشعة تحت الحمراء. في تلك اللحظة كان رئيس م. ت. ف هدفاً أمثل ويحكم الرجل الميت. لكن الجندي لم يضغط على الزناد. فالتعليمات التي أعطيت له، هو ورفاقه، كانت واضحة دقيقة: فأرييل شارون طلب إخطاره حالما يتمّ تحديد مكان عرفات.

نقلت للحال رسالة مرموزة بالراديو إلى قيادة الأركان. كان شارون حاضراً فأجاب: «لا تطلقوا، انتـظروا وصولي». وبقي عـرفات بكـوفيته المميـزة مدة عشرين دقيقـة في متناول منـاظير المغـاوير. وقبيـل دقائق من وصـول الوزيـر الإسرائيلي اختفى عن أبصارهم. استشاط شارون حنقاً. وقد اعترف فيما بعد بقوله:

ـ كان في نيتي أن أصرعه بنفسي.

هل كانت الرصاصة التي ستصرع الزعيم الفلسطيني ستقضي أيضاً على كل عملية السلام؟ لا جدوى من ضرب الأخماس بالأسداس حول الماضي، ولكن

القصة تبيِّن إلى أي حدّ يمثّل عرفات «ناجياً مزمناً من الموت».

في عام ١٩٦٧، غداة الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، أفلت من الاعتقال ونجح في الهرب من الضفة الغربية متنكّراً في ثوب راعٍ مسن ثم في هيئة امرأة حامل.

وبعيد ذلك بقليل، وفي تموز/ يوليو تحديداً، انتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

سأله الزعيم المصري:

ـ هل تعتقد أن المقاومة الفلسطينية قادرة وحدها على تحرير الأراضي المحتلة وغزة؟

فأجابه رئيس م. ت. ف:

ـ كلا، ولا حتى في ثلاثين عاماً.

وأمسك هنيهة ثم أضاف:

ـ بالمقابل، إنها على استعداد لمواجهة الجيش الأردني.

ذهل جمال عبد الناصر لما طرق ذلك سمعه:

ـ هل تفكرون بفرضية كهذه؟

أجاب عرفات باسماً:

ـ آه، أنت تعلم، إنني لست قادراً على ضبط جميع منظماتنا المسلحة.

وفي الحقيقة، كان يلعب بالنار، ولقد كانت هذه النار قاب قوسين أو أدنى من أن تلتهمه.

في الأردن شكّل الفلسطينيون سلطة موازية حقيقية هـدّدت سلطة الملك حسين. وكان العاهل الهاشمي يخشى الإطاحة به. وفي ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ أطلق مصفحاته على المواقع الفلسطينية فدكتها دكاً عنيفاً. وأوقعت معارك «أيلول الأسود» الدامية زهاء عشرة آلاف قتيل في صفوف الفلسطينيين، فلاذوا بالفرار إلى لبنان.

ولم تكتب النجاة لعرفات الذي كان الملك حسين يطلب رأسه إلا بفضل تدخل رئيس وزراء تونس وولي عهد الكويت. فقد أصدر الرجلان أمرهما لسفيريهما بأن يتنكّر رئيس م.ت.ف في هيئة دبلوماسي كويتي وباصطحابه إلى طائرة كانت قيد الإقلاع باتجاه القاهرة.

في بيروت حيث استقرّ به المطاف سيكرر ياسر عرفات نفس الأخطاء المقترفة في الأردن. فقد راح الفلسطينيون يشكّلون شيئاً فشيئاً دولة في الدولة اللبنانية. فنشأ وضع وخيم العواقب، ولكن لا يبدو أن عرفات كان يعي أخطاره، إذا كان الابتهاج بنجاحاته يشغله عن كل شيء عداه. فبداية السبعينات كانت بمثابة «العصر الذهبي» لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكانت الملايين تصبّ متدفقة في صناديق المنظمة.

صارت «القضية الفلسطينية»، رغم عمليات خطف الطائرات والاغتيالات، معركة رومانسية في أنظار قسم من اليسار الأوروبي والأميركي. والواقع أن عرفات «التقدّمي والمعادي للغرب»، ولكن الذرائعي والمسنود من قبل موسكو، استغلّ تلك السنوات ليركّز بين يديه جميع مفاصل القرارات. فعلاوة على كونه قائداً أعلى للقوات الفلسطينية المقدّر تعدادها بخمسة عشر ألف رجل، فإنه يترأس م. ت. ف وفتح. كان بطبعه أوتوقراطياً يحلو له أن يقول: «أنا الذي يقرّر»، ولكن كان يطيب له في الوقت نفسه أن يصف م. ت. ف. بأنها «منظمة ديموقراطية».

ولسوف يصرّح مسؤول استقال من جميع مناصبه في داخل المنظمة:

ـ الديموقراطية على الطراز الفلسطيني هي اختيار مناقشة كل شيء ولا شيء، وفي النهاية يفعل عرفات ما يريد.

حينما غادر لبنان في ٣٠ آب/أغسطس ١٩٨٢، على متن سفينة نقل تحمل إسم «أطلانتس»، كانت معظم الأوساط الدبلوماسية في العالم تعتبره بحكم الميت

سياسياً. وحطّ به المنفى على شطآن تونس، بعيداً عن الأراضي المحتلة، وعمره قد جاوز الرابعة والخمسين. وبمرّ السنين أمست م. ت. ف بمثابة يتيم سياسي حقيقي. أولاً في قلب العالم العربي الذي راح يفقد اهتمامه أكثر فأكثر بمصير الفلسطينيين. وفي مؤتمر القمة الذي عقد في عمان كان لا بد من تدخّل في اللحظة الأخيرة للمندوب الليبي كيما يأتي نصّ القرار الختامي بذكر القضية الفلسطينية.

وعلى المسرح الدولي ثانياً: فانهيار الاتحاد السوفياتي والأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية قد حرم م. ت. ف من مساندها الدبلوماسية والمالية والعسكرية الرئيسية.

في عام ١٩٨٨ اعترف عرفات بحق إسرائيل في الوجود وأكّد أن ميثاق م. ت. ف، الذي ينصّ على تدمير الدولة العبرية، قد بات «لاغياً». بيد أن حكومة الليكود، برئاسة إسحق شامير، لم تعره بالاً وواصلت حلمها بـ «إسرائيل كبرى».

وقد توافقت نهاية الشيوعية مع الغشاوة التي ضربت على بصيرة عرفات فوقف إلى جانب صدّام حسين في حرب الخليج. وأوقفت العربية السعودية والكويت، اللتان ترصدان سنوياً مئات الملايين من الدولارات للمنظمة الفلسطينية، تسديداتها. وزادت الأزمة المالية من حدّة التصدعات السياسية في داخل المنظمة التي راحت تفقد نفوذها تدريجياً. ومرت السنون وتفاقمت المرارة.

عندما افتتح في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ مؤتمر مدريد حول الشرق الأدنى، اضطرّ عرفات إلى تحمّل مذلة جديدة حدّدها مسؤول أميركي بأنها «حيلة قانونية مهذبة». فمنظمة التحرير الفلسطينية لن تُمثّل رسمياً على مائدة المفاوضات. والوفد الأردني ـ الفلسطيني الذي سيشكّل خصيصاً لهذا الغرض لن يضمّ من الفلسطينيين سوى فلسطينيي الداخل.

وغير ذي اهمية أن يكون ممثّلو هؤلاء الفلسطينيين مضطرين إلى القيام برحلات طيران ليلية إلى تونس ليأخذوا منها توجيهاتهم، أو أن يكون محاور شامير

في مدريد هو حيدر عبد الشافي، ممثل م. ت.ف. في غزة وأحد مؤسِّسي الحركة. فالحيلة القانونية لا تزال في نظر حكومة القدس سارية المفعول: فلا حوار مع م. ت. ف واستمرّ الوضع على تأسُّنه على الرغم من عنف الانتفاضة التي بدا عرفات وكأنه كان عاجزاً عن توقّعها.

أسرّ شامير إلى خاصته بأنه مستعدٌّ أن يجعل «المناقشات تجرّ أذيالها عشر سنوات». بيد أن المواقف ستشرع بالتغيُّر بصورة غير محسوسة. فالرأي العام الإسرائيلي قد سئم الحرب، وعرفات ما عاد يؤمن بجدوى الخيار العسكري. لقد شاخ، ولبعض خلصائه ممن يمحضهم ثقته أسرّ: «أخشى ألا أدفن أبداً في أرض أجدادي».

من وجهة النظر النفسية أيضاً كان الرجل يتيماً. فقد فَقَدَ أقرب رفاقه إليه. أبو إياد اغتيل على أيدي جماعة أبو نضال المنشقة؛ وأبو جهاد، أحد مؤسِّسي فتح و م.ت.ف، سقط تحت رصاص مفرزة مغاوير إسرائيلية نجحت في التسلُّل إلى داخل منزله بالذات في تونس.

إنّ عرفات، الذي يتولّى حمايته حراس نذروا له حياتهم، لا ينام أبداً ليلتين متتاليتين في مكان واحد. ويسافر على متن طائرات مستعارة من الحكومات العربية ولكن بقيادة طيارين خاصين به. وخطة الرحلة ومسارها وغايتها تبقيان سراً مكتوماً حتى لحظة الإقلاع.

في عام ١٩٩٢ هوت الطائرة الروسية التي تقله وتحطّمت في الصحراء الليبية. عند لحظة الاصطدام سمع المسافرون عرفات يهتف: «إنني لاحق بك يا أبو جهاد، لاحق بك».

أمّا من وجهة النظر السياسية فقد باتَ عرفات يعتمد على طبقة مقربة من المعاونين، جميعهم من الجيل الثاني في فتح. منهم، على سبيل المثال، محمود عباس، الملقّب بأبي مازن، وهو ماركسي سابق من أنصار الخط المتصلب وخرِّيج موسكو؛ وياسر عبد ربه، العضو النافذ سابقاً في الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين، وهي جماعة ماركسية ذات ارتباطات قوية باليمن الجنوبي وكوريا الشمالية.

وقد ليَّنوا جميعاً مواقفهم باتجاه فكرة تسوية مع إسرائيل.

وتلك هي أيضاً حال بسام أبو شريف، المقرّب إلى جورج حبش، الذي كان فقَدَ عيناً وثلاث أصابع عام ١٩٧٢ وهو يفتح طرداً مفخخاً أرسله إليه جهاز الموساد. فقد بات يدافع عن فكرة الصلح مع إسرائيل:

ـ إذا كان مناحيم بيغن، الذي لجأ في بداياته إلى العنف لينشىء إسرائيل، قد حلّت عليه النعمة واكتشف فضائل السلام، بتوقيعه اتفاقاً مع مصر، فلماذا لا يستطيع عرفات ومن يحيط به أن يفعلوا الشيء نفسه؟

إن الزمن لم يمحُ أيضاً الافتتان الغريب في نوعه الذي يساور رئيس م. ت. ف. إزاء الخصم الإسرائيلي. فهو يحب أن يقيم، في حضور زوّاره، موازاة بين المصير المأساوي للشعب اليهودي وبين المصير المأساوي للفلسطينيين. أفلَم يترك أتباعه يلقّبونه بـ «الختيار»، وهو لقب كان يطلق على مؤسِّس إسرائيل، دافيد بن غوريون، رجل الدولة الوحيد الذي كان ديغول يكنّ له إعجاباً تاماً؟

«ومع ذلك فإن المبدأ القائل (أحبّ جارك مثل نفسك) يعسر جداً تطبيقه في هذه المنطقة»، كما كتب على سبيل النكتة كاتب إسرائيلي محبِّذ للسلم. فخمسة وأربعون عاماً من أعمال العنف والقتل والتدمير قد أقنعت ـ أو كادت ـ في نهاية المطاف كل فريق بأن الآخر لا حقّ له في الوجود. وعلى مدى عشرات من السنوات لم يتلفَّظ عرفات والقادة العرب باسم إسرائيل. وعندما كان يتعيّن عليهم أن يسموا العدو، فإنهم كانوا يشيرون إلى «الكيان الصهيوني».

وكما سيعلّق الحسن الثاني، ملك المغرب، لاحقاً:

ـ إنّ تدمير إسرائيل ورمي اليهود في البحر كانا يأتيان يومئذٍ في مقدمة المثيرات السياسية. فكلّ نظام عربي كان يشعر بأنه مهدّد أو يتطلع إلى التزعُّم كان يشهر سلاح القضية الفلسطينية في صورتها الأكثر جذرية، وهذا بدون أن يكون في نيته أصلاً الوصول إلى حلّ نهائي. فالفلسطينيون كانوا ورقة رابحة بديلة بالنسبة إلى الكثيرين من المغامرين.

من الجانب الإسرائيلي أيضاً كانت التشنّجات والأحكام المسبقة تبلغ بين الحين والآخر الذروة. فغولدا مائير نفت وجود شعب فلسطيني، وإسحق شامير لن يحجم عن التصريح في أكثر من مناسبة: «إنهم جراد بالمقارنة معنا».

ولسوف يؤكّد الفيلسوف الإسرائيلي الشهير يشاياهو ليبوفتش، الذي تدلّل تحليلاته في الكثير من الأحيان على صحو فكر فريد في نوعه، وهو في الثانية والتسعين من العمر:

ـ مشكلتنا، في دولة إسرائيل، ليست تحرير الفلسطينيين، بل الوصول إلى تحرير الإسرائيليين من هذه السيطرة اللعينة القائمة على العنف.

إن إسرائيل ما ونت، منذ إنشائها عام ١٩٤٨، عن أن تكون قلعة محاصرة أو بالأحرى «دولة ـ ثكنة»، تكرِّس ذكاءها ومواردها، بمساعدة حكومات أجنبية ويهود الشتات، لتحافظ على ولتطوّر طاقة عسكرية قادرة على سحق أعدائها. ولسوف يكون إسحق رابين من أوائل مَن سيدركون حدود سياسة القوة هذه.

في عام ١٩٨٧، حينما اندلعت الانتفاضة، أي «ثورة الحجارة»، كان يشغل منصب وزير الدفاع. فوعد بقمع الثورة، ولو دعت الحاجة إلى «كسر عظام المتظاهرين».

وفي شباط/ فبراير ١٩٨٨، أسرّ لبعض المقربين:

ـ لقد تعلمت شيئاً في هذه الأشهر الأخيرة. ليس في وسعنا البتة أن نحكم بالقوة مليوناً ونصف من الفلسطينيين. هذا درس يتعينّ علينا جميعاً أن نستخلص نتائجه.

وفي الواقع كانت غيمة الأوهام قد انقشعت منذ زمن بعيد. فبعد فورة الحماس بالنصر الصاعق في حرب ١٩٦٧، جاءت حرب يوم الغفران الصعبة في عام ١٩٧٣ لتحدث أول صدع في أسطورة عدم قابلية إسرائيل للقهر.

وفي عام ١٩٨٢ كشف اجتياح لبنان عن مدى اتساع الاستياء في صفوف الرأي العام الإسرائيلي. فقد شجب هذا الرأي العام حكومة استخدمت الجيش لأغراض تجاوزت ببعيد المقتضيات الدفاعية الصرفة.

ولقد كان انفجار الانتفاضة عام ١٩٨٧، أخيراً، بمثابة برهان على حقيقة وجود أمّـة فلسطينية.

ولسوف تكون حرب الخليج عام ١٩٩١ هي المحطة النهائية. فصواريخ سكود العراقية تساقطت على تل أبيب، وشاهد الإسرائيليون أن حمايتهم لا تؤمنها، بصورة أو بأخرى، سوى صواريخ باتريوت الأميركية. ومن ثمّ لم يعد ثمّة مجال للشك: فعلى الدبلوماسية أن تحل محل الخيارات العسكرية. ولم يكن في قدرة أي إنسان بعد أن يجزم من سيكون صانع هذا التطوّر، ولكن ما كان ثمة أحد آخر بقادر على فرضه سوى إسحق رابين.

لقد كان هـذا الأخير في الحـادية والسبعـين عندمـا انتزع لنفسـه، ببالـغ الصعوبة، قيادة حزب العمل من منافسه الدائم شيمون بيريز، بعد معركة زادت من حدّة التعادي بين الخصمين. ولسوف يقول أحد المقرّبين إليه في شبه نكتة: «إن كره رابين لبيريز يكاد لا يقل قوة عن الكره الذي يكنّه لعرفات».

ولد رابين في القدس من والدين أوكرانيين كانا ينتميان إلى «الأرستقراطية» الصهيونية اليسارية، وتطوّع في الثامنة عشرة في صفوف البالماخ، وهي وحدة قتالية طليعية سرية. وفي عام ١٩٦٤ صار رئيساً للأركان، وفي عام ١٩٦٧ قاد الجيش الإسرائيلي إلى نصر صاعق أتاح للدولة العبرية أن تسيطر على سيناء، وكذلك، وعلى الأخص، على الضفة الغربية والقدس الشرقية التي يوجد فيها حائط المبكى. وحينما انخرط في السياسة، بعد أن عمل سفيراً في واشنطن من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٣، ظل يُعتبر من «الصقور». كان محباً للتكتّم، قليل الكلام، إلى حد أنّ ناحوم غولدمان، مؤسّس المؤتمر اليهودي العالمي، صاح به ذات يوم: «إنني لأتساءل كيف أمكنك، وأنت على برودتك، أن تحبل امرأتك لتنجب لك ولداً».

ولا يفوت شيمون بيريز فرصة ليصوره كشخص فج كثير النياشين، ممّا كان يستتبع ردوداً ازدرائية من قبل منافسه الذي ما غفر له أنه ما ارتدى قط الزي العسكري.

يقول معظم الذين عرفوه عن قرب: «إنه عقل محافظ للغاية، ولكنه أبعد

الناس عن أن يكون إيديولوجياً». ويضيف يوهان يورغان هولست، وزير الخارجية النرويجي الذي التقاه عدة مرات في أثناء المفاوضات السرية: «إنه ليس مكثاراً من الكلام، فقليل من الكلمات يكفيه لتحليل وضع ما». هذا كلّه صحيح، لكن حين تسنم إسحق رابين للمرة الثانية في حزيران/ يونيو ١٩٩٢ سدة رئاسة الوزارة، كان يمسك بين يديه بورقة رابحة ما كان لأحد أن ينازعه عليها.

فهذا الرجل، الذي استولى على الأراضي في عام ١٩٦٧، كان هو وحده القادر على إعادتها. صرح قائلاً: «إن خطر هولوكوست جديد إذا لم نرجع هذه الأراضي هو الغيتو الفعلي الذي تحبس فيه إسرائيل الحديثة نفسها». وقد علق يارون إزراحي، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية بالقدس، قائلاً: «إن رابين يرمز إلى تحوّل الإسرائيلي الذي نضا عنه ثوب الجندي البطولي - رداً على سلبية اليهود وعجزهم أثناء الهولوكوست - لينخرط في طريق الدبلوماسية والتسويات».

وصحيح أنه يصغر سلفه إسحق شامير ببضع سنوات، ولكنه الوحيد من بين رؤساء الوزارة الثمانية الأول الذين تعاقبوا على رأس إسرائيل الذي ولد في فلسطين. والرجل من المتصلّبين ممن يتكلّمون بلا مواربة، وكلماته تصيب هدفها. وفي نظره إن الإسرائيليين الذين يعيشون في الخارج يؤلّفون «جماعة من المساقيم»، وأن مستوطني الأراضي المحتلة هم «أطفال رُضّع لا ينقطع لهم بكاء».

وعندما سُئل قبل ذلك بعام واحد عن مستقبل غزة أكّد أنه يحلم بأن «البحر قد ابتلع هذا القطاع».

إنّه رجل لا يعرف الرأفة مع خصومه، وقد وصف يوسي بيلن بأنه «كلب بيريز الصغير». ولسوف يمارس القمع على نفسه كيما يسمي منافسه وزيراً للخارجية، بدون أن يمنعه ذلك أصلاً من السعي إلى تهميشه إلى أقصى حد. فبيريز لن يكون مذ ذاك فصاعداً إلاّ قائداً خائباً لـ «معسكر الحمائم» ورئيساً للدبلوماسية مقلّص النفوذ والسلطة إلى حد عدم دعوته إلى الاجتماعات مع

الضيوف المرموقين من أمثال وزير الخارجية الأميركي وارن كرستوفر. وقد فكر غير مرة بالاستقالة، بما في ذلك في شهر آذار/ مارس ١٩٩٣، حينما كانت المفاوضات السرية تتابع في النرويج.

في أثناء حملته الانتخابية أعطى رابين لنفسه مهلة «ستة إلى تسعة أشهر» ليخرج مفاوضات السلام بواشنطن من المأزق المسدود الذي كانت تتخبط فيه. وما كان ليشتبه بعد بأنه سيجد نفسه مضطراً إلى عقد صلح مزدوج، مع م. ت. ف. بطبيعة الحال، ولكن كذلك مع بيريز الذي سيقدم له «الحلقة المفقودة».

والواقع أن وزير الخارجية كان لا يفتأ يؤكّد منذ عهد بعيد: «إن مشكلتنا هي الناس. فنحن لا نستطيع أن نتناقش حول الأراضي كما لو أنها خاوية».

أمّا المشكلة الحقيقية بالنسبة إلى رابين فهي اكتشاف هوية المحاور الصالح. ولرابين باع طويلة على الموساد كما على «الأمان»، أي قسم الاستخبارات العسكرية، و«شين بيت» المكلّف بالأمن الداخلي. والحال أنّ التقارير الواصلة إلى مكتبه، والمحررة من قبل هذين الجهازين المتغلغلين في الأراضي المحتلة، تنذر بالخطر.

فجميعها تشير إلى صعود مدّ الحركتين الأصوليتين «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، وإلى انهيار م. ت. ف، ولا سيما في غزة. فسلطة المنظمة الفلسطينية ونفوذها قيد التآكل السريع.

يتذكّر رئيس الوزراء الإسرائيلي أيضاً محادثته الطويلة قبل بضعة أشهر مع عيزر وايزمن قبل أن يصير هذا الأخير رئيساً لإسرائيل.

في عام ١٩٧٣ كان الجنرال وايزمن قائداً لأركان سلاح الجو. إنّ هذا العسكري، المعروف بتصلّبه، هو في الوقت نفسه ممن يحبّون الإكثار من الكلام. ولسوف ينضمّ في عام ١٩٧٧ إلى حكومة مناحيم بيغن ليشغل منصب وزير الدفاع. وهو من المؤمنين بعقيدة «إسرائيل الكبرى» ومن دعاة انتهاج القوة مع العالم العربي. أمّا الفلسطينيون فينكر حق وجودهم. بيد أن زيارة السادات

للقدس ثم توقيع اتفاقيات كمب ديفيد سيحدثان ثغرة في قناعاته. ولكن المنعطف الفاصل يعود إلى عام ١٩٨٢. فابنه قد أصيب بجرح بليغ في حرب لبنان. وعلى الأثر انقلب عيزر وايزمن على نفسه باستدارة ١٨٠ درجة. ترك الحكومة وراح يناضل بلا كلل من أجل الصلح مع البلدان العربية والتخلّي عن الأطروحات المتطرفة التي يحامي عنها الليكود. وصار بمثابة منبوذ حقيقي. وأخضع هاتفه للرقابة، وصار بريده يُفتح، ومنعت زياراته لمصر - حيث كان يلاقي السادات ومبارك - وأدانتها السلطات. والحق أنّ هذا الحفيد لرئيس إسرائيل الأول، حاييم وايزمن، كان مسكوناً بهاجس أراد أن يتقاسمه مع رابين، رفيقه في السلاح الذي يعرفه منذ عشرات السنين.

أسرَّ إليه:

- كلما مرّ الوقت تضاءل هامش المناورة أمام إسرائيل، وكذلك هامش الخيارات التي في متناولنا. لقد كنا نعتقد أنّنا نستطيع التفاوض مع الأردن على تسوية للمسألة الفلسطينية، والآن قد انتهى ذلك. وها هي م. ت. ف لا تفتأ تضعف. وعما قريب لن يكون أمامنا من محاور آخر غير «حماس» التي يموِّلها ويسلحها عقائدياً آيات الله الإيرانيون. والحال أنّ حماس لا تريد التفاوض، إنها لا تريد سوى «الجهاد».

كان رابين والمجموعة الصغيرة التي تحيط به يراقبان بقلق تطوّر العالم الإسلامي: فالأصوليون قد انتصروا في إيران والسودان وأفغانستان، والجزائر غارقة في الفوضى، ومصر والأردن وحتى لبنان معرضة بصورة جدية للخطر.

في أثناء اجتماع سري لمجلس الدفاع، ضمّ جميع القادة العسكريين ومسؤولي الاستخبارات، بمن فيهم شابطاي شافيت، رئيس الموساد الذي لا يحقّ لأي جريدة إسرائيلية أن تكتب اسمه، قال رابين: «إن العالم لا يفعل شيئاً ليلجم إيران التي هي اليوم المنبع العسكري والمالي والإيديولوجي الرئيسي لهؤلاء المتعصبين. وهذا يشكّل تهديداً أخطر بكثير من ذاك الذي يشكّله العراق، إذ لا يتعلق الأمر هنا ببلد يغزو آخر، بل نحن أمام مشروع حقيقي للتخريب الهدام

من النمط الذي عرفته من قبل البلدان الشيوعية».

أيّد المشاركون المجتمعون في قاعة الاجتماعات في مبنى وزارة الدفاع، وهي قاعة محمية ومزودة بنظام مرموز بحيث لا يطالها أيّ جهاز للتنصّت على فحوى ذلك الكلام. لكن لم يجرؤ أحد على الجهر بما كان يدور في أذهان الجميع: إن نهوض حماس في الأراضي المحتلة يدين بالكثير لرابين نفسه، وزير الدفاع في عام ١٩٨٦. فقد خلف يومئذٍ موشي آرنز، وكان رجل علم لامعاً طوّر الصناعة الجوية الإسرائيلية.

ولسوف يقول أحد الذين عملوا معه: «كان آرنز آخر الاستعماريين في هذا العالم. فبخصوص الأراضي المحتلة كان يعتقد حقاً أنه إذا أعطي الفلسطينيون بعض اللعَب أو بعض (الخشخيشات)، فإنهم سيستطيبون الاحتلال». وكان الرجل الذي يخطّط لهذه السياسة وينفذها في الوزارة يدعى شموليك غورن. وعندما تسنم رابين منصبه الجديد احتفظ بغورن إلى جانبه، مثبتاً إياه في وظيفته. وبمرّ الشهور اكتسب هذا المستشار نفوذاً مرموقاً.

كان رابين يكره م. ت. ف، وقد أقنعه غورن بأنه لا سبيل إلى تحييدها إلا بظهور معارضة إسلامية لا يكون لها من همّ، حسب تقدير غورن، سوى الدين ولا يكون لها أي اهتمام بالسياسة. وقد شرع رابين وغورن بتسهيل بناء هذه المعارضة الجذرية، كما سيقول لنا أحد الذين شاركوا في هذه المناورة.

ولسوف يكون دان كورتزر، الذي سيصير مستشاراً دبلوماسياً لجيمس بيكر، ثم لبيل كلنتون، هو الشاهد القلق على هذه اللعبة.

كان ملحقاً آنئذٍ بسفارة الولايات المتحدة في إسرائيل ومكلفاً بشؤون الأراضي المحتلة. وقد أسرّ لأحد معاوني رابين:

ـ أواعون أنتم ما تفعلونه؟ إنكم تخلقون حركة للمسلمين الأصوليين لموازنة كفة م. ت. ف. وما تفعلونه في الواقع هو أنكم تخرجون الشيطان من القنينة ولن تستطيعوا أبداً بعدئذٍ ملأها ثانية. أهذه هي سياستكم؟

أحبطت الأحداث في نهاية الأمر حسابات أولئك الذين حاولوا تحويل

مسارها بالقوة. فرئيس الوزراء الإسرائيلي ما كان ليمكن له قطّ أن يتخيّل مدى النكسة المالية التي أصابت المنظمة غداة حرب الخليج. وإذ حُرمت المنظمة على هذا النحو من دعم مموليها الأغنياء، لم يعد في مستطاعها تمويل المدارس والجامعات ودور الحضانة والمستشفيات في الأراضي المحتلة. وكانت م.ت.ف، التي تعمل على هذا النحو، وبفضل تلك الإمدادات، كـ «دولة عناية» حقيقية في غزة والضفة الغربية، تدفع أيضاً معاشات لعشرات الآلاف من أسر «شهداء الثورة». ولما نضب فجأة هذا المنّ، انبرت «حماس» لتنوب مناب م.ت.ف. بفضل الأرصدة التي تتلقاها من إيران، ولكن كذلك من العربية السعودية. ووجدت م.ت.ف نفسها مهدّدة، وقد أفل على هذا النحو نفوذها، بأن تفقد أيضاً زبائنها.

ابتداء من كانون الأول/ دسمبر ١٩٩٢، وبدون دراية مسبقة، توصّل ياسر عرفات وإسحق رابين إلى استنتاج واحد: إنه محكوم عليهما بأن يتفاهما. وكانت ملاحظة الواقع على حقيقته، بالنسبة إلى رئيس م.ت.ف، باعثة على القلق: فمنظمته تأفل شمسها أكثر فأكثر كفاعل إقليمي، ونفوذه الشخصي مجرّح بعمق.

أضف إلى ذلك أن علاقاته بفيصل الحسيني وحنان عشراوي، ممثّلي فلسطينيي الداخل، لا تني تتدهور.

وقد حاول رابين طيلة شهور أن يقطع الطريق على قيادة م.ت.ف في تونس وأن يجعل من ذينك الزعيمين الفلسطينيين محاوريه المميزين كيما يخرج عملية السلام من مأزقها. ولسوف يصرح رابين لاحقاً وهو يعبر عن خيبته بألفاظ لا تتّسم بالدبلوماسية:

ـ إنّ هؤلاء الأشخاص عاجزون حتى عن حمل الصحون لتقديمها في تونس.

وقد فسّر جبن قياديي الداخل بخوفهم من أن يُشجبوا ويُتنصل منهم، أو حتى أن يغتالوا. وسيقول أحد معاونيه: «في الواقع، لما فهم أن ذلك الخيار مقضي عليه بالفشل، دخل في طور من أطوار غضبه البارد التي لا يدرك غيره سرها. وقال بعالي صوته: 'إنهم ليسوا من نوع القادة الذين يملكون الجرأة

للالتفات نحو عرفات ولإصدار أمرهم إليه: قبِّل قفانا. فنحن الذين نملك السلطة والقيادة»).

بيد أن حنان عشراوي، التي كانت السبب في سورة غضب رابين، تقدّم تحليلاً مغايراً. فهي تصف رئيس الوزراء الإسرائيلي بأنه «رجل هادىء للغاية، متبصّر للغاية، وقاسٍ للغاية». ثم تشرح التوترات مع القيادة الفلسطينية: «إن الناس الذين عاشوا تحت الاحتلال قد أثروا على طريقة تفكيرِ وعملِ مسؤولي م.ت.ف في الداخل. فقد كانت مقاربتنا للأمور أكثر اتصافاً بالصفة الأخلاقية، وأساليبنا الجديدة في التنظيم أكثر منهجية».

ـ كان معظم قادة الداخل يشغلون وظائف جامعية أو يعملون في المهن الحرة، ولم يكن بينهم إلاّ قلة من رجال السياسة. وبصفة عامة كانت طريقتنا في التفاوض أكثر تماساً مع الواقع. فنحن نعرف الإسرائيليين أفضل بكثير مما يعرفهم أعضاء القيادة في تونس، ولكننا في بعض الحالات أشد تصلباً منهم. فالإسرائيليون الوحيدون الذين التقوهم هم كانوا من المعتدلين الطالبين لتسوية سلمية. أما نحن فنعرف الصورة بتمامها ولنا خبرة بالمسرح السياسي الإسرائيلي ونفهمه. وكنّا نعلم أن العديد من الإسرائيليين، أكاد أقول النصف، هم أناس متصلّبون. ومن ثم كان مطلوباً منا قدر أكبر من الحصافة.

وتضيف قائلة:

ـ لكن عرفات رجل يعرف كيف يمسك بالفرص السانحة ويعي اللحظات الحاسمة من التاريخ. لا أعتقد أن ثمة رجل سياسة أكثر دهاء منه. إنه ليس من النوع الذي يجلس ويعمل ببساطة على سيناريو ما أو مرحلةٍ ما أو موقف تفاوضي ما. إنّه يمسك بالفرصة السانحة ويتخذ القرار السياسي الذي يفرض نفسه. وما أعطى الدفعة إلى الأمام وسمح بالتحرّك بسرعة أن م.ت.ف كانت تواجه مشكلات خطيرة: فالمؤسسات كانت قيد الانهيار، والمشكلات الاقتصادية تتراكم، ومفاوضات السلام عالقة في مأزق. وفي الحقيقة، إنني لأتساءل عمّا إذا لم يكن عرفات واعياً منذ ذلك الحين بأن جميع تلك الصعاب ستقود إلى المخرج المنطقي الذي عرفناه في آب/أغسطس، مع توقيع الاتفاق.

شرح رابين بدوره مسار تطوره، ولكن بعبارة مقتضبة:

- الصلح يعقد مع الأعداء، لا مع الأصدقاء.

وتقدم نمرود نوفيك بأطروحة تفسّر نفسية رابين. فرجل الأعمال الإسرائيلي هذا، الأشبه في مظهره بـ «البلاي بوي» (يقال أنه كان في شبابه عارض أزياء في الولايات المتحدة)، هو أيضاً رجل المهام السرية. وهو يقيم علاقات صداقة مع العديد من القادة العرب، وخاصةً منهم حسني مبارك. قال لنا: «إن أكبر عيوب رابين هو أيضاً ميزته الكبرى. فهو صاحب مخ تحليلي، ومن اللحظة التي يكوِّن فيها لنفسه زاوية رؤية للواقع، يطرد من ذهنه كل نشاز ممكن. فهو يتجاهل جميع المعلومات البعيدة عن فكرته، وينبذ كل المعطيات التي لا تتفق وبنيته الذهنية. لكن إذا سحبتم آجرَّة واحدة من بنائه الداخلي لتثبتوا له أنها جوفاء، حدث تغير شامل. فهو يهدم كل البنيان القائم ويعاود من الصفر. باختصار، إنّ هذا الرجل هو أكثر الناس تصلُّباً ومرونة في آنٍ معاً، وهو قادر عند نشوب أزمة ما أن يمضي إلى أبعد مدى، ثم أن يعيد بناء واقعية جديدة. وذلك هو الإنقلاب الذي حدث: فقد انتهى إلى القول بينه وبين نفسه: (عرفات، إنني لا أطيقه، إنه لَوغد، ولكن ليس هناك غيره. إنني مضطر للكلام معه)».

ويضيف نوفيك:

- منذ عام ١٩٩٠ أدرك شيمون بيريز أن الفارق بين جماعة م.ت.ف في تونس وجماعتها في الأراضي المحتلّة مصطنع. لقد فهم، قبل ثلاث سنوات من رابين، أنّه ما من سبيل إلى فعل شيء بدون م.ت.ف.

والأبعث على الغرابة في هذا التطور هو أن نلاحظ إلى أي حد اكتشف كل خصم من الخصوم أن خصمه لا يمكن الالتفاف عليه. ولسوف يأتي تطوّر عرفات مشابهاً، في كل نقطة من نقاطه، لتطور رابين، كما تؤكّد ذلك حنان عشراوي:

- في مناقشاتي معه في تونس كان يقول لي إن شبكة التفاوض الوحيدة التي يمكن أن تفضي إلى نتيجة هي تلك التي يكون رابين طرفاً فيها. لقد كنّا نشعر أن

كل ما يمكن لشيمون بيريز أن ينجزه، على ما قد تكون له من أهمية أو مثالية أو رؤية بعيدة للمستقبل، لن تكون له من مصداقية ما لم يبصم عليه رابين أيضاً. وأذكر أنني قلت بدوري: «بدون رابين لن يمشي شيء».

ومع ذلك، فإن ذاك الذي يسمِّيه الإسرائيليون «السيد الأمن» كان عليه أن يواجه موقفاً سياسياً مسدوداً تماماً في كانون الأول/ دسمبر ١٩٩٢. فوعوده بإطلاق المفاوضات من جديد بقيت حبراً على ورق، والتقارير الدبلوماسية التي تأتيه من واشنطن، حيث كانت تنعقد المناقشات الثنائية، كانت متشائمة: فلا شيء يتحرك.

ولسوف يلخص عضو في الوفد الفلسطيني إلى واشنطن الموقف بصورة ساخرة:

ـ الأمر في منتهى البساطة، فكل يوم أرتدي سترتي وأضع ربطة عنق، وأقصد وزارة الخارجية، وأستمع على مدى نصف ساعة لمونولوجات وأنا جالس على كرسي. ثم أعود أدراجي إلى فندقي. لقد انتهى اليوم.

كيف كان يمكن لإسحق رابين أن يتخيَّل أن أستاذاً شبه مغمور، ولا معرفة له حتى عهد قريب بوجوده، سيكون في مستطاعه في تلك اللحظة عينها، على حد تعبير أحد معاونيه، أن «يخرجه من المأزق وأن يقدم الحل لمشكلته؟ كان الأمر ضرباً من السريالية. فما أكثر الأشخاص، من إنكليز وهولنديين وسويديين، الخ، ممن عرضوا بالأمس القريب أن يتدخلوا أو ممن رووا أنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النجاح في عقد الصلح! فالموضوع، كما ترون، مثير جداً، بل أكاد أقول: «sexy» للغاية».

والحق أن يائير هرشفلد كان بعيداً كل البعد عن مثل هذه الحسابات. ولسوف يقول نوفيك: «كان نذر نفسه بكليته لهذه القضية، ومنذ سنوات عديدة، وكان يعمل وحده ويدفع من جيبه، حتى بدون سكرتيرة. كان الأمر بالنسبة إليه أشبه بضرب من الرهبنة. ثم إنَّ الشيء الذي لا يصدق أكثر من كل ما عداه هو أنَّ كل ما جرى في لندن، ثم في أوسلو، كان في الواقع من صنع الصدفة».

٦

النرويج: المواجهة الأولى

ـ وجدت نفسي وحيداً، في جو صقيعي. وبالرغم من الاحترام الذي كنت أكنّه للنرويجيين لم أكن أدرك إلامَ سننتهي إليه في نهاية الأمر.

بروح من الدعابة يستذكر يائير هرشفلد بداية المفاوضات في النرويج: «لم يكن في نيتي أن أكتفي بلقاء واحد مع أبي العلاء. كنت أودّ لـو نجتمع كلما رأيت، أو كلما رأى هو، ضرورة في ذلك. وهذا ما يقتضي توفير المال والمكان في آن معاً. وكان في وسعي أن أعرض طلبي على الدنماركيين، أو الفرنسيين، أو الألمان أو على أي طرف آخر. لكن شاءت الصدفة أن يتواجد لارسن في لندن يوم التقيت بأبي العلاء. كلمته بالموضوع فوافق على الفور».

إن ما وصفته الصحافة العالمية لاحقاً بـ«الشبكة النـرويجية» لم يكن إذن سوى ثمرة لقاء موفق بين عامل الصدفة والفاعلية الدبلوماسية لمجموعة صغيرة داخل حكومة أوسلو.

في العاشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢، أقام يوسي بيلن، الذي كان قد رقي قبل ثلاثة أشهر إلى منصب المسؤول الثاني في وزارة الخارجية، عشاء رسمياً على شرف نظيره النرويجي، يان ايغلند. وكان ايغلند، وهو الصحفي السابق الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، والخبير في قضايا المساعدات الإنسانية، قد عين في القدس في العام ١٩٨٤. وهو يؤمن بـ«نموذج نـرويجي» يصلح للوساطة بين

الطرفين المتعاديين، ويرى في الشرق الأدنى حقل تطبيق أمثل. وفي نيسان/ إبريل ١٩٩٢، أي قبل شهرين من الانتخابات التي أسفرت عن فوز حزب العمل الإسرائيلي، كان فطور عمل قد جمع بين إيغلند وإسحق رابين في مقر السفارة النرويجية. ومع أن رابين، على عادته، ما أفاض في الكلام، فإن ايغلند الذي بالغ في التأويل، خرج من ذلك اللقاء وهو مقتنع بأن رابين يبحث عن حل وسط مع الفلسطينيين.

وعندما انتهى العشاء الرسمي، في يوم العاشر من أيلول/سبتمبر ذاك، اقترح ايغلند على بيلن متابعة الجلسة في فندقه؛ كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف وكان الليل قد خيّم على تل أبيب منذ ردح من الزمن. وثمّة أشخاص ثلاثة آخرون حضروا السهرة: تيرج رود لارسن، مدير الـ «فافو»، المعهد المقرّب من النقابات، والذي كان قد وضع، نزولاً عند طلب ايغلند، دراسة حول الأوضاع الجسدية والنفسية للفلسطينيين المقيمين في الأراضي المحتلة وحول سلوكهم السياسي، وزوجته مونا يوول، وهي سيدة سمراء شابة تعمل بصفة خبيرة في وزارة الشؤون الخارجية. وقد دعا يوسي بيلن، من ناحيته، يائير هرشفلد.

تولت سيارتان نقل هذه المجموعة الصغيرة إلى فندق الهيلتون، الكائن على شاطىء البحر، وحلّت في جناح وكيل الوزارة النرويجي.

وما إن استقرت بأفرادها الجلسة حتى فاتح ايغلند بيلن قائلاً:

ـ أستطيع أن أؤكد لك بأنه في وسعنا أن ننهض بدور، وبأننا قادرون على تحمُّل ما يترتّب عليه من مسؤوليات.

شكره يوسي بيلن على بادرته، بيد أنّه بدا متردِّداً. فأردف ايغلند يقول:

ـ أنت تعلم أننا على اتصال مباشر بقيادة منظمة التحرير في تونس، وهي تسعى وراء مثل هذا الحوار.

ما لم يوضحه ايغلند، بالمقابل، هو أن لارسن، في أثناء زيارة قام بها للعاصمة التونسية، كان قد «باع» الحجة عينها ـ نحن على علاقة وثيقة بحزب العمل الإسرائيلي ـ إلى المقربين من عرفات.

لم يكن بيلن في تلك الأمسية مفرطاً في الحماس. قال:

ـ لا يسعني أن ألتقي مباشرة مع مسؤولين في م.ت.ف، فتشريعنا لا يزال يحظّر ذلك كما تعلم. بالمقابل، نستطيع، بفضل مساعدتك، أن نستكشف عدة طرق وعلى أكثر من مستوى.

كانت الإجابة مبهمة ودبلوماسية إلى أبعد الحدود. لكن النرويجي ألحّ قائلاً:

ـ لماذا لا تسافر إلى النرويج لتجتمع، سراً، بالحسيني؟

انتفض هرشفلد، الجالس في جوار بيلن، لدى سماعه اقتراح ايغلند الذي كان ينمّ عن سذاجة فائقة وعن جهل تام بوقائع الأمور. فقد كان بيلن وشيمون بيريز على اطلاع دائم على ما يدور في ذهن فيصل الحسيني، زعيم فلسطينيي الداخل، وذلك بفضل العلاقات الوثيقة والوديّة التي عقدها هرشفلد معه.

وقد جاء هذا الاقتراح، علاوة على ذلك، في وقت لم يعد فيه المسؤولون الإسرائيليون يعقدون كبير الآمال على استقلال فلسطينيي الداخل إزاء قيادة منظمة التحرير في تونس.

قرابة الواحدة صباحاً استأذن يوسي بيلن بالانصراف. وبخلاف ما زعم النرويجيون لاحقاً لم يتمّ الاتفاق على أيّ التزام محدّد في تلك الجلسة.

إن احتمال عقد لقاء في أوسلو بين م.ت.ف. وإسرائيل ما كان أكثر من فرضية غير مرجحة. والواقع أن ما من أحد، في الجانب الإسرائيلي، كان في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢ ذاك يؤمن بفائدة شبكة نرويجية.

وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣ وافق بيلن على إرسال هرشفلد إلى العاصمة النرويجية، معتبراً بادرته دليلاً على حسن نية. وقد كان يعتقد، في مطلق الأحوال، بأن موفده سيكتفي بمداولات مطولة في الشؤون الإقتصادية، موضوعه المفضل، وسيتجنّب الخوض في المسائل السياسية الحاسمة. لكن هرشفلد ناقض الجميع بأن فعل العكس تماماً.

لقد وُصم حزب العمل، على مدى سنوات، بالتردد وعدم الحسم. وقد

أجادت حنان عشراوي، الناطقة باسم الوفد الفلسطيني للمحادثات الثنائية في واشنطن، التعبير عن هذا الموقف عندما قالت:

«لقد سبق أن قلت أكثر من مرة: إن حزب العمل يودّ لو يجتاز بحيرة من ضفة إلى أخرى من دون أن يغطس في الماء أو يتبلّل».

خلال السنوات العديدة التي أمضاها كشريك لحزب الليكود، داخل حكومة الوحدة الوطنية، بدا هذا الحزب وكأنه ينفق كامل طاقته للحفاظ على هذا التحالف. ولكن عندما قيض له، أخيراً، أن ينفرد بالحكم فإنه غدا، كما أوضح ذلك ملك المغرب، يتمتع بامتياز أساسي بالمقارنة مع خصومه اليمينيين.

ـ إن تصلّب الليكود، يؤكد الحسن الثاني، كان يمكن أن يفسّر بانقطاع كل علاقة لهذا الحزب بالعالم الخارجي. لكن يختلف الأمر بالنسبة إلى حزب العمل. فبيريز ورابين ينتميان إلى الأممية الإشتراكية التي تعمل كخلية تفكير وتنهض، أحياناً، بدور الرقيب. فقد يتّفق أن يخاطبهما بعضهم قائلين: «أنتما على خطأ..» أو، على العكس، «نحن مستعدون لتقديم كل مساعدة».

وهكذا فعل النرويجيون.

حط ياثير هرشفلد في مطار أوسلو في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ في جو صقيعي قارس. كان يحمل معه رسالة، مطوية بعناية، تدعوه للمساهمة في ندوة جامعية حول الشروط المعيشية في الأراضي المحتلة. وكان يرافقه صديقه ومعاونه رون بونديك.

كان رجل جسيم، بشوش الوجه، ينتظرهما في قاعة المطار. وقد اختاره رود لارسن لاستقبالهما وللنهوض، لاحقاً، بدور شبه رسمي كمسؤول عن البروتوكول. وإذ اؤتمن على سر المباحثات الدائرة ثبت، في الأشهر التالية، أنه شخص لا غنى عنه لتنظيم المسائل اللوجستية. فهو الذي سوف ينسق الرحلات الجوية ويحدد مواعيد السفر وساعات الوصول.

كان الهدف المقصود الحؤول دون لفت الانتباه إلى ما يدور في الساحة. لذلك لم يحصل مرة واحدة أن نقل الوافدون في سيارات رسمية أو حتى في سيارات

فخمة؛ بل كانوا يركبون، على الدوام، سيارات مستأجرة أو تكسيات. وكانت مهنة الرجل الذي ذهب لاستقبال هرشفلد وبونديك في مطار أوسلو هي تدريب الفريق النسوي النرويجي للتزلج السريع.

أخذ الإسرائيليان مكانهما على المقعد الخلفي لسيارة فولفو كانت قد صفّت في موقف عام. وقطعت بهما السيارة مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً حتى بلغت ساربسبورغ، وهي مدينة صناعية صغيرة تقع في جنوب شرقي أوسلو، غير بعيد عن الحدود السويدية.

وقرابة التاسعة ليلاً وصلا إلى مزرعة بورغارد؛ وقد شُيّد مبنى هذه المزرعة المهيب، ذو الطوابق الثلاثة والواجهة البيضاء، في قلب الغابة.

كان النرويجيون يرغبون في بثّ الشعور بالراحة لدى ضيوفهم وفي حملهم على التصرُّف «كمفاوضين حقيقيين لا كمجرد ناطقين رسميين». لذلك أولوا اهتماماً خاصاً لخلق ديكور مناسب وجو ملائم. فقد وزعت أرائك وثيرة في قبالة مواقد يتراقص فيها لهب الحطب المشتعل، وحدّدت أماكن الضيوف حول مائدة الطعام على نحو يضمن متابعة المداولات الدائرة.

من غرفتيهما، المرتبتين خير ترتيب، كان هرشفلد وبونديك يستطيعان الإصغاء إلى أصوات حيوانات المزرعة. وقد فاتهما أن يدركا أن النرويجيين، الذين يؤمنون بالتأثير المهدىء الذي تمارسه الطبيعة على النفوس، قد سدوا منافذ المنطقة بغية إتاحة الفرصة أمام الإسرائيليين والفلسطينيين للتنزُّه بطمأنينة تامة في الأحراج المجاورة.

كانت مزرعة بورغارد تستضيف، رسمياً، مجموعة من الباحثين «الغريبي الأطوار بعض الشيء» والمنكبّين على إعداد كتاب عن الشرق الأوسط.

أمّا الوفد الفلسطيني فقد وصل في الحادية عشرة والنصف ليلاً. كان الوفد قد غادر تونس في الصباح الباكر ومرّ عن طريق باريس وفيينا بهدف التضليل.

كان يرافق أبا العلاء، بابتسامته العريضة، حسن عصفور وشخص ثالث لن يأتي ذكر له أبداً في المفاوضات إنه الدكتور ماهر، وهو رجل أعمال فلسطيني ذو شأن، وقد حضر اللقاءات كافة حتى شهر حزيران/يونيو.

كان وصول الوفد الفلسطيني قد تأخّر من جراء حادث كان خليقاً بتعطيل المشروع كله. فقد أوقفت دورية شرطة السيارة التي تقلّ الوفد على طريق أوسلو - بورغارد. وجرى التدقيق في أوراق السيارة كما أخضع السائق لاختبار قياس درجة الكحول في التنفس. لكن أبا العلاء، الذي كان مسافراً تحت اسم مستعار، لم يخضع للاختبار، ولا كذلك رفيقيه. وقد بلبل هذا الحادث كلاً من لارسن وزوجته مونا يوول، في حين عقّب عليه الفلسطينيون والإسرائيليون، الذين اعتادوا على مواجهةَ مثل هذه المواقف، بتبادل النكت في قاعة الطعام ذات الجدران الخشبية المطلية. ولم يتمّ التطرّق مرة واحدة إلى الشؤون السياسية في تلك الليلة.

كان أبو العلاء يملك على ما يبدو معيناً لا ينضب من النكت وقد روى الكثير منها ببراعة أكيدة. ولما كان الخمر وفيراً والطعام لذيذاً، فقد أخذ هرشفلد، وهو الأستاذ الخجول والرزين، بدوره باللعبة فراح يقلد شامير وبوش وغورباتشوف عندما مثلوا، كما تقول النكتة، في حضرة الرب. وقد صارحهم يهوه قائلاً:

- إني لآسف، فقد ارتكبت خطأً قاتلاً. بعد أسبوعين سينفجر العالم. وعليكم إعلام شعوبكم بذلك.

وبادر غورباتشوف وبوش، والحزن يعصر قلبيهما، إلى نقل النبأ المفجع. أمّا شامير فقد أعلن للإسرائيليين:

- لدي خبران سارّان أريد نقلهما إليكم. الخبر الأول، إن الله موجود. الخبر الثاني: أستطيع أن أؤكّد لكم بأنه لن تكون هنالك يوماً دولة فلسطينية.

وانفجر أبو العلاء ورفيقاه بالضحك. وكان الحديث يدور بالإنكليزية. وقرابة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل افترق الوفدان وقد غلب على أعضائهما إحساس بالراحة ودبّ فيهم ضرب من الخمود.

استيقظ ضيوف بورغارد في اليوم التالي على صياح ديك صادر عن المدجنة المجاورة للمبنى.

وكان النرويجيون، الجدّيون والنظاميون، قد برمجوا يوم الحادي والعشرين

من كانون الثاني/ يناير، موعد استهلال المباحثات، بحيث يتضمن جلستي عمل.

ففي التاسعة صباحاً، وفيما كان هرشفلد وبونديك وأبو العلاء والمسؤولان الفلسطينيان الآخران يتناولون طعام فطور دسم من منتجات المزرعة، انضمّ إليهم وزير الخارجية النرويجي يورغان هولست وزوجته ماريان هايبرغ التي تعمل في معهد لارسن لدراسة شروط الحياة في الأراضي المحتلة.

وفي العاشرة اتجه الجميع إلى القاعة الكبيرة التي سيدور فيها اللقاء. وخلال الأشهر الثمانية اللاحقة سوف يجتمع الإسرائيليون والفلسطينيون زهاء أربع عشرة مرة حول تلك الطاولة الخشبية الضخمة، التي فرش عليها غطاء أبيض ومدّت حولها مقاعد ذات ظهور عالية، وسط غرفة داكنة الجدران.

استهلّ وزير الخارجية هولست الجلسة بالترحيب بالمشاركين، وقدّم، بعد ذلك، صورة مفصلة عن الوضع في الشرق الأوسط، ولا سيما عن المشكلة الإسرائيلية ـ الفلسطينية. وعندما ختم مداخلته صفّق أبو العلاء وهرشفلد ومساعدوهما بتهذيب، معتقدين بأنهم قد انتهوا من المقدمات البروتوكولية.

لكن زوجة هولست، ماريان هايبرغ، قدمت بدورها عرضاً طويلاً، استغرق أكثر من ساعة، لشروط الحياة في الضفة الغربية وفي غزّة.

وقد أثار هذا العرض الدقيق، شبه التعليمي، لموضوع يعرفه الوفدان أكثر من النرويجيين، شعوراً بالملل لدى أعضائهما.

ـ لم يثر هذا العرض اهتمامنا، سوف يقول هرشفلد. لقد طرحنا بعض الأسئلة شكلاً، غير أننا لم نصغِ حقاً إلى الإجابة.

عندما انتهى الاجتماع غادر وزير الخارجية يورغان هولست المزرعة في حين بقي مساعده يان ايغلند. وقد ترأس هذا الأخير جلسة العمل الأولى التي انعقدت في أعقاب طعام الغداء. جلسة غاب عنها الجو الودي الذي كان قد ساد بالأمس. فوجوه الفلسطينيين والإسرائيليين، الذين تقابلوا من حول الطاولة، غدت صارمة، بل كانت تنمّ أحياناً عن توتّر واضح. وكان النقاش في البداية

أقرب إلى «تبادل إطلاق نار» بين الوفدين.

كان أبو العلاء أول المتكلّمين. لم يتحدّث بالإنكليزية، بل بالعربية، وقد تولى رجل الأعمال، ماهر، مهمة الترجمة. وقد أدّت هذه الطريقة في التعبير، مع ما اقترن بها من صيغ وتعابير منتقاة بدقة، إلى إضفاء طابع بروتوكولي أشد بروزاً، بل شبه رسمي على المداولات.

وقد استهلّ المسؤول الفلسطيني كلامه بالتعبير عن عميق شكره للمسؤولين الدبلوماسيين النرويجيين، وأشار، على حين غرّة، إلى أن «النرويج قد ذاقت مرارة تجربة الخضوع للنير النازي وأنها قد قاومت بشجاعة فائقة».

وقد اعتبر هرشفلد أن ملاحظة أبي العلاء ترمي إلى الموازنة ضمناً بين الاحتلال الهتلري والاحتلال الإسرائيلي للأراضي المحتلّة. والحال أنّ مثل هذه المقارنة أمر مرفوض في نظر أستاذ جامعة حيفا، الذي تتسلّط عليه ذكرى الستة ملايين يهودي الذين لاقوا حتفهم في الحرب العالمية الثانية.

لذلك بدا صوته منفعلاً عندما أخذ الكلام بدوره قائلاً:

ـ إن مساعدة النرويج مهمة بالنسبة إلينا لأن هذا البلد قد عاش محنة إبادة اليهود الرهيبة (لاقى ما يقارب من ٩٠ بالمئة من يهود النرويج حتفهم في معسكرات الاعتقال) ولأنه قد حافظ على ذكراها أسوة بنا.

وتابع موجهاً كلامه إلى الفلسطينيين:

ـ إن العذاب الذي يجمع بيننا حريّ بأن يوفر لنا سبل مستقبل أكثر صفاء.

وساد صمت ثقيل حول الطاولة. وبدا كل واحد من الحضور وكأنه فريسة مخاوفه وهواجسه. واتخذ يان ايغلند، على حين غرة، مبادرة ذكية على الصعيد السيكولوجي: نهض وغادر الغرفة، تاركاً الرجال الخمسة يتواجهون من دون شاهد.

فقد أدرك أنه في حضور طرف ثالث لن يقبل أحد من الفريقين بأن يوحي بأنه يتراجع عن مواقفه أو حتى أن يليّنها بقدر أو بآخر.

ـ إن كانت مفاوضات أوسلو قد أثمرت، كما سيقول لاحقاً أحد الذين لعبوا

دوراً رئيسياً فيها، فلسببين. لم يكن هنالك، أولاً، وسيط يصغي ويتدخل ويقترح، الأمر الذي من شأنه دوماً أن يزيد الوضع تعقيداً. ثانياً، إن انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة وضعا حداً للمارسات الزبائنية للدولتين العظميين اللتين كانتا تحثّان حلفاءهما على المزايدة؛ فالخصوم الصغار غدوا، أخيراً، يتواجهون على انفراد.

تماماً كما في بورغارد.

لزم أبو العلاء الصمت ليقول، بالعربية، موجهاً كلامه إلى الإسرائيليين:

ـ إذا ما عدنا إلى الغوص ثانية في التاريخ فقد ننفق سنوات من دون جدوى؛ فلا أنتما ستقدران على إقناعي، ولا أنا سأقدر على إقناعكما. لقد سبق وأن قلت لكما ذلك. لنذهب إلى الجوهر، ولنستعرض الصعوبات التي تعترضنا ولنسجلها خطياً.

ـ أنا موافق تماماً، أجاب هرشفلد. لنتكلم عن المستقبل فقط وعن كيفية التوصّل إلى اتفاق. ولنتجنّب الدخول في مقارنات حول التاريخ «الأضحوي» لكل منا.

وقد عانى ماهر ، المترجم الفلسطيني، بعض الصعوبة في نقل الصيغة التي استخدمها هرشفلد إلى العربية. وعندما وفق أخيراً إلى إيجاد الكلمات المناسبة هز أبو العلاء رأسه موافقاً.

ـ بكل تأكيد؛ وفي وقت لاحق، وإذا ما حققنا تقدماً، نستطيع أن نصوغ إعلان مبادىء أو شيئاً آخر من هذا القبيل.

ـ عندنا كلمة في العبرية، أضاف هرشفلد، هي «تخليس»، ومعناها «لنتكلم»، ولكن «لنتكلم عملياً».

بالنسبة إلى رون بونديك، الجالس بجوار هرشفلد، كان اختيار هذا الأخير للكلمة العبرية صائباً مئة بالمئة. «لقد كان واضحاً أن اجتماعاتنا لن تقتصر على تبادل المحاججة. فقد حضرت م.ت.ف. وفي نيتها التحدث في شؤون عملية مع إسرائيل. كانت الرسالة لا لبس فيها بالنسبة إلينا».

مع ذلك، كان كل فريق يفاوض بخشية وتوجّس.

في ١٩ كانون الثاني / يناير، عشية افتتاح محادثات النرويج، كان الكنيست، البرلمان الإسرائيلي، قد ألغى القانون الذي يحظر كل اتصال بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية.

في القدس، شعر يوسي بيلن بنصف انفراج. فلئن اكتشف أمر الشبكة النرويجية، فسيكون سهلاً عليه أن يثبت أنها ما نشطت إلاّ بعد رفع الحظر.

بالنسبة إلى الفلسطينيين، كانت الأمور أكثر دقة بعد. فمع إقدام رابين، في الرابع من كانون الأول/ دسمبر، على إبعاد ٤١٥ مناضلاً من جماعة حماس، عصفت ريح أزمة بمنظمة التحرير. فعلى الرغم من الخلافات الخطيرة مع الإسلاميين، فإن عدداً من كوادر المنظمة ومن محازبيها طالبوا القيادة بالتضامن التام مع المبعدين.

وقد رفض أعضاء الوفد الفلسطيني إلى محادثات واشنطن العودة ثانية إلى العاصمة الأميركية للتأكيد على شجبهم للتصلب الإسرائيلي. وفي جوّ كهذا، فإن تسرب أي خبر عن سفر أبي العلاء إلى أوسلو كان سيجلب كارثة سياسية على عرفات.

ـ إننا نتعاضد مع المبعدين تعاضداً تاماً مطلقاً، أعلن رئيس الدائرة الإقتصادية في م.ت.ف. إنكم تكررون اليوم ما اقترفتم في العام ١٩٤٨، عندما طردت إسرائيل الفلسطينيين على نحو جماعي.

أجاب هرشفلد:

ـ يستحيل الدخول في عملية مفاوضات إذا ما بادر أحدهم إلى تخريبها وإلى ارتكاب أعمال إرهابية.

وعلى هذا الصعيد أيضاً كان الحوار حوار طرشان.

ولكن في الغرفة التي عبقت بالدخان ـ كان أبو العلاء يشعل سيجارة تلو الأخرى ـ ثمّة تحوُّل بدأ يحصل. فبعد أن خفّت حدة التوتر، راح كل وفد يعرض

موقفه بلا انفعال، على نحو شبه سريري، باسطاً المشكلات بشكل تقريري. وشيئاً فشيئاً أخذ يتبلور نهج في العمل.

ـ في البداية، قال لنا بونديك، لم نتعرّض للأراضي المحتلة بل اكتفينا باستعراض كيفية الوصول إلى اتفاق. وكانت غايتنا واضحة: كنا نرغب في التوصّل إلى اتفاق.

وانتهت جلسة العمل الأولى في ساعة متأخرة من الليل. وقد صارح هرشفلد أبا العلاء قائلاً:

ـ نحن لا زلنا في دور التنقيب. لقد استكشفنا الإمكانيات كافة وما يمكن القيام به لضمان النجاح.

والواقع أن المناقشات التي دارت بين الوفدين تشكّل فهرساً غريباً في نوعه، تعداداً للأشياء على طريقة جاك بريفير[1]، يتجاور فيه ما هو غير معقول، وما هو قابل للتحقيق، ولا تُقارَب فيه المشكلات إلّا بصورة متدرجة.

ولم يكثر حسن عصفور ولا ماهر، مساعدا أبي العلاء، من الكلام. كان عصفور مشغولاً بتسجيل المداولات، وبونديك بالضرب على حاسوب يدوي.

وفي نهاية تلك الجلسة خرج الإسرائيليان بقناعة واضحة: إن الرجال الذين بمواجهتهما قد أدركوا أن إسرائيل باقية وأن التفاوض خير من متابعة القتال. «كنّا بصدد تحول تاريخي، اعترف لنا بونديك. فقد سلّموا ضمناً بأن فلسطين لن تكون فلسطينية فحسب».

ولكن ثمّة انطباع آخر خرج به الإسرائيليان من جلسة المداولات الأولى تلك، اتضح، لاحقاً، أنه خادع وبلا أساس: فقد اعتقدا بأن م.ت.ف مستعدة لأن تناقش، بل ولأن تفاوض، وفق الشروط الإسرائيلية، في حين أنّ الفلسطينيين، على حدّ تعبير بونديك، «كانوا يصرّون، حتى الآن، على ألّا يدخلوا في مناقشات إلّا وفق شروطهم».

بعد رفع الجلسة ساد من جديد، وعلى نحو عفوي، جو من الاسترخاء.

---

(١) شاعر فرنسي بارع في المزاوجة بين الألفاظ الساذجة والفلسفية. «هـ.م.».

فقد جلس الرجال الخمسة أمام التلفزيون، أمامهم زجاجة براندي وفناجين قهوة، وراحوا يعلقون على البرامج. ومع ظهور شابة حسناء على الشاشة الصغيرة انطلقت من كل صوب تعليقات لا تخلو من بذاءة.

ومع أنّ كل شيء كان يفصل بينهم، فإذا بهم ينساقون وراء المكاشفة والبوح عن شيء ما في نفوسهم. وهكذا غدا «الآخر» فجأة مقرباً وإنسانياً، واكتسب لحماً وعيانية. فله، هو أيضاً، مشاعر، ومخاوف، وجروح تبدو أحياناً مماثلة إلى حد غريب لتلك التي يحسّ بها ويعاني منها «الأنا». وجرت الإشارة باقتضاب إلى ماضي كل واحد وإلى خط مساره، من خلال حديث مطول ومشبوب بالحماس عن مستقبل الشرق الأوسط، وبالتالي عن المصير الشخصي لكل منهم.

في صبيحة الثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير عاد الوفدان إلى أوسلو وأقاما في فندق كونتيننتال حيث حُجزت لهما غرف. والتحق بهما يان ايغلند ليشاركهما جلسة عمل مطولة. وقد أذهله ما لمسه من تفاؤل لدى الفريقين. وعلى مدى ساعتين ونصف انكبّ الرجال الستة، الذين سجنوا أنفسهم في إحدى غرف الفندق، على وضع لائحة بالمواضيع المطروقة وبسائر الطروحات والمقاربات المتداولة في الساحة «على غرار ما يفعل طاقم الطائرة عندما يستعرض قائمة الأجهزة قبل الإقلاع» على حدّ ما قاله لنا أحد المشاركين الفلسطينيين. وقد سأل ايغلند ضيوفه:

ـ هل أنتم راغبون في مواصلة هذه المحادثات؟

داعب هرشفلد لحيته ثم هزّ برأسه أن أجل.

وأخذ أبو العلاء الكلام قائلاً:

ـ لقد قمنا بتبادل في وجهات النظر حول النقاط التي يتعين التعمّق فيها. وقد اتُفِقَ على العناوين. بقي علينا الآن أن نكتب الفصول. وسوف أُحضر في المرة القادمة وثائق مكتوبة نتناقش على أساسها.

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه ايغلند وقال:

ـ هل ترغبون في تحديد موعد اللقاء القادم؟

وفي أقل من خمس دقائق اتفق الأطراف الثلاثة على الاجتماع ثانيةً في ١٢

شباط/ فبراير ١٩٩٣.

ـ أودّ إثارة نقطة أخيرة معكم، أضاف إيغلند. هل ترون مانعاً من إطلاع الأميركيين على وجود هذه المفاوضات وعلى التقدّم الذي قد تحققه؟

وأجاب هرشفلد:

ـ كلا، بشرط أن يتعهدوا بكتم السر.

ما إن غادر الإسرائيليون وأعضاء منظمة التحرير، حتى توجه ايغلند حالاً إلى السفارة الأميركية الكائنة في جوار وزارته. وكان السفير ومعاونوه المقرّبون قد أبلغوا بزيارته، وقد دعوه إلى الجلوس في مكتب مزوّد بخط هاتفي مرموز. وقد اتصل وكيل الخارجية النرويجية مع شخص في واشنطن سيعرف، طيلة المفاوضات، باسم مرموز هو «ديدي». و «ديدي» هذا هو، بالمناسبة، دنيس روس المدير السابق للتخطيط السياسي في الخارجية الأميركية.

والواقع أن إدارة كلنتون، المعانية من فاقة خطيرة على صعيد الكفاءات في حقل السياسة الخارجية، كانت قد وظفت هذا المعاون السابق لجيمس بيكر.

وروس، الذي كلف بمتابعة ملف الشرق الأوسط إلى جانب وارن كرستوفر، رجل في الثانية والأربعين، نحيل البنية، ذو وجه دائم الحركة، تضفي عليه نظارة سميكة نوعاً من الصرامة. وهو على علاقة ممتازة بالمسؤولين في أهم المنظمات اليهودية الأميركية، وهذه ميزة أساسية في نظر بوش وبيكر اللذين كانت تعتبرهما تلك المنظمات أقل تعاطفاً مع إسرائيل من خلفائهما.

وكان روس قد أفلح في «بيع» السياسة المتصلبة نسبياً للإدارة الجمهورية إزاء حكومة إسحق شامير. وقد غدا، الآن، يدافع عن خط كان رسمه من قبل رئيسه الأسبق: لا مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية. وصلابته هذه، التي نجح في حمل مجمل الوزارة على مشاطرته إياها، تعكس في الواقع قناعة بأن الصعوبات المالية التي تعاني منها المنظمة الفلسطينية ستحملها، عاجلاً أو آجلاً، على القبول بأي حل.

كان روس في اجتماع عمل عندما تلقى مكالمة ايغلند. وقد عاود الاتصال بهذا الأخير بعد ربع ساعة وأصغى، غير مصدق، إلى العرض المفصّل الذي قـدمه له النرويجي.

وقد أجاب بتهذيب، بل بدبلوماسية، قائلاً:

ـ هذا شيء مثير لـلاهتمام دون أدنى ريب، وسـوف نتابـع هذه العمليـة بتعاطف. غير أننا لا نودّ، يا يان، أن نتورط فيها بشكل من الأشكال.

«لكأن روس يقول للنرويجيين بتعبير آخر، كما أوضح لنا لاحقاً أحد أعوانه: عودوا إلينا ثانية، عندما يصبح لديكم شيء جدّي تعرضونه علينا، وهذا ما لن يحصل أبداً على الأرجح».

وقد جاء تصلب روس هذا في صالح «الشبكة النرويجية»، بل ربما كان هذا التصلّب أفضل فرصة أعطيت لنجاحها. فالدبلوماسي الأميركي لم يكلف نفسه حتى مشقّة نقل الخبر إلى رئيسه، أي إلى وزير الخارجية وارن كرستـوفر. فلم ير في الأمر، على حد قول أحد المقربين منه، أكـثر من مبادرة اتخـذها «مثقّفـون إسرائيليون لهم علاقات وثيقة بمنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن لئن لم نأخذ تلك البادرة على محمل الجد، فإنها قد أثارت، بالمقابل، مخاوفنا، بسبب نقطة محددة: ففي الولايات المتحدة، كما في إسرائيل، يوجد قانون يحظر الاتصالات مع منظمة التحرير، ولم نكن نرغب في أن تثار هذه القضية في الصحافة، حتى وإن لم نكن ضالعين فيها، خشية من تعطيل عملية السلام الجارية. لذلك آثرنا التعتيم على ما يحصل. وقد فعلنا ذلك من قبيل الخوف، لا بهدف تيسير مجرى المفاوضات».

لدى عودته إلى تونس تحدث أبو العلاء مطولاً مع أبي مازن، المسؤول الثاني في م.ت.ف، والمكلف بتنسيق ملف المفـاوضات. وقـد اتفق المسؤولان على ضرورة متابعة المباحثات والتعمّق فيها. وكان كلاهما لا يزال مقتنعاً بأن بيريز ورابين هما اللذان يوجّهان العملية من بعيد، على الرغم من النفي القاطع من كلٍ من هرشفلد وبونديك.

والواقع أن بيلن وحده هو الذي كان على علم بما يجري. وقد زاره يائير

هرشفلد لدى عودته إلى القدس. وقد أصغى بيلن إلى عرضه المشوب بالتفاؤل، بل وأحياناً بنزعة شاعرية، من دون أن يبدي عن أي رد فعل؛ وفي النهاية سأله:

ـ ماذا تنوي أن تثير في الجلسة القادمة؟

فانطلق هرشفلد في إعطاء تعداد دقيق. وقاطعه بيلن قائلاً:

ـ اصنع لي «فريش ميش».

ـ حسناً، أجاب هرشفلد وهو يبتسم، سأعدّ لك «الفريش ميش» الذي تبغي. إنه سيكون خير تمرين ذهني.

إن ذلك التعبير العامي العبري يشير إلى اللحظة التي يقدم فيها لاعب البريدج، بعد انتهاء كل شوط، على خلط الأوراق تمهيداً لاستئناف اللعب.

اعتكف هرشفلد، على مدى ثمان وأربعين ساعة، في شقته المتواضعة الكائنة في إحدى ضواحي حيفا، بصحبة زوجته روث الساهرة عليه.

وفي اليوم الثالث دلف من جديد إلى مكتب بيلن، حاملاً هذه المرة وثيقة من خمس صفحات، تتضمن خطة عمل وعرضاً لكل ما هو قابل للتفاوض برسم الوصول إلى اتفاق.

اطلع نائب وزير الخارجية الإسرائيلي بإمعان على النص، ثم أعاده إلى صديقه واكتفى بأن قال: «هيا، امضي».

وقد أوضح لنا هرشفلد لاحقاً أن بيلن «لم يبدّل كلمة واحدة». ولم يكن بيريز ورابين قد اطلعا بعد على ما يدور.

حزم الأستاذان حقائبهما من جديد قاصدين النرويج في ١١ شباط/ فبراير. كان الوضع على الأرض في تدهور مستمر. فقد ازداد العنف حدة في الأراضي المحتلة، وسقط فلسطينيون، من بينهم عدد من الأطفال، ضحية رصاص الجيش، وطُعن إسرائيليون بالخناجر في شوارع تل أبيب. وبدا الأفق مسدوداً تماماً و«التأسّن، على حد قول مسؤول إسرائيلي، مقلقاً وخطيراً».

وفي تلك الفترة بالذات صادف وجود حنان عشراوي في تونس. وقد تناولت الناطقة بلسان الوفد الفلسطيني إلى مفاوضات واشنطن العشاء ذات ليلة مع بعض أصدقائها في قيادة م.ت.ف. وفي أثناء الحديث كاشفها أحد المدعوّين قائلاً:

ـ بالمناسبة، يا حنان، لقد أنشأنا مع الإسرائيليين شبكة تعمل على خير ما يرام على ما يبدو.

ـ عظيم، أجابت وهي متشكّكة بعض الشيء؛ آمل أن نرى نتائج.

ولم يدر في خلدها لحظة واحدة أن محدّثها يشير إلى الحوار بين أبي العلاء وهرشفلد، ذلك الحوار الذي كانت هي أول من بادر إلى الدعوة إليه والذي انقطعت عنها أخباره.

٧

صيرفيّ المنظمة

إن الحديث مع رجل من الشرق الأدنى تواكبه بالضرورة طقطقة المسبحة التي تتدافع حبّاتها بين الأصابع واحدة تلو الأخرى بلا انقطاعٍ. ومسبحة أبي العلاء مصنوعة من العنبر الأخضر. ولا ريب في أنه كان يسبِّح بها في أوسلو أيضاً.

استقبلنا الفلسطيني، وهو يبتسم كعادتـه، في مكتبه الفسيـح في تونس. ومثله مثل ياسر عرفات فإنه يترك جهاز التلفزيون مضاء، والصوت مقطوع، وكان بوسعي أن أرى انعكاسات رسوم متحركة. البطات الصغيرات تتقافـز فوق الشاشة، بينما هو يحدّد لنا التاريخ الدقيق لقرار تكتيكي.

لقد اصطدم تطبيق الاتفاق بعدد كبير من الصعوبات. والعنف يطل برأسه من جديد...

قال:

ـ لا يمحى في بضعة أيام لوح ظل يُكتب عليه مدة خمسـين عامـاً. إنني أعلم عما أتكلم. فأنا رجل مصارف.

ـ هل كانت تجربتك المهنية عوناً لك في أثناء المفاوضات مع الإسرائيليين؟

أجاب وهو يوسع من ابتسامه:

ـ بكل تأكيد! فقد كنّا، نحن المفاوضَيْن الفلسطينيَيْن، نؤمن كلانا بمفهوم كلي، كوني. أنا بالرأسمال والمال وحسن عصفور، الشيوعي، بصراع الطبقات. وهذا من حسن الحظ! تخيّل، في مواجهة الإسرائيليين، قوميَيْن فلسطينيين لا غرض لهما ولا هدف سوى السيطرة على حدّ أقصى من الكيلومترات المربعة! ما كان لأي اتفاق أن يكون ممكناً. أجل، إن مهنتي كانت مفيدة لي. فالمصرفي يعرف كيف يميّز بين الإيديولوجيا والمسائل العملية.

إن أبا العلاء، واسمه الحقيقي أحمد قُريع، يجذب المرء إليه برأسه المستدير والأصلع، ونظراته البرّاقة، وإيماءاته الواسعة والهادئة، وابتسامته.

وقد أطلق يوئيل سنجر، الذي كان يتناقش وإياه في النرويج، هذا الحكم عليه: «لقد ترك لديّ أبو العلاء انطباعاً قوياً. فقد تعاملت مع رجل ذرائعي وصادق، وكان ذلك ظاهراً للعيان رغم الخِدَع التي كنّا ننصبها لبعضنا بعضاً لنختبر نيّاتنا».

سألنا أبا العلاء عما إذا كان سبق له أن زار إسرائيل، فأجاب:

ـ كلا، لقد ذهبت فقط إلى قريتي قرب القدس، أبو ديس، لكي أرى أهلي. وذلك في عام ١٩٦٨. كنت قادماً آنذاك من العربية السعودية. وفي ذلك العام قررت أن أنضم إلى م.ت.ف.

ـ لماذا في عام ١٩٦٨؟

ـ لأنهم كانوا بحاجة إلي. كانوا قد أدركوا لتوِّهم أنه لا مستقبل بدون مشروع اقتصادي. وأنا الذي أسّست الدائرة الإقتصادية في م.ت.ف.

واندفع أبو العلاء يرسم لنا بحماسة، وبالتفصيل، صورة التطوّر المقبل للمنطقة. مركز مالي، جامعة، الإمكانيات الصناعية، النخب، توظيفات الدول الكبرى...

ـ هل كنت تعرف إسرائيليين قبل أوسلو؟

ـ كلا.

ـ هل صرتم أصدقاء؟

فأجاب وهو يطقطق بسرعة أكبر بمسبحته الخضراء الثمينة:

ـ تعلمنا أن نحترم بعضنا بعضاً. وفيما يتعلّق بكتابكما فإنني أتمنى لكما النجاح، فيجب أن يعرف جميع الناس بهذه المغامرة. عندما أفكر فيها أقول بيني وبين نفسي: يا له من درس!

في اللحظة التي تركنا فيها أبا العلاء، كانت شاشة تلفازه الصامت تعكس صورة شارلتون هستون في دور موسى في فيلم «الوصايا العشر»، من إخراج سيسيل ب. دي ميل، مع ترجمة إلى العربية. إنه درس آخر...

٨

خيار أريحا

كان الثاني عشر من شباط/فبراير يوماً حاسماً. ففي تمام الساعة الحادية عشرة أخذ الوفدان مكانهما من جديد في قاعة الاجتماعات الكبيرة في بورغارد. ولما كان الطقس غائماً فقد انيرت الثريات الضخمة في القاعة. وصفّ أبو العلاء وحسن عصفور أمامهما عدداً من الملفات وهما يسحبان النفس تلو الآخر من لفافتيهما.

- بصراحة، قال لهما هرشفلد وهو يبتسم، إذا ما توصلنا إلى الاتفاق فسوف نضيف إليه بنداً يحظر التدخين في أثناء المفاوضات.

فردّ أبو العلاء قائلاً:

- يقيني بأن عدوى هذه العادة السيئة ستنتقل إليك قبل نهاية هذه اللقاءات.

وتوقف عن الكلام وقد ثار فضوله. فهرشفلد ما كان يصغي إليه، بل انشغل بقراءة بعض الأوراق أمامه. وبعد بضع دقائق رفع الإسرائيلي رأسه وناول الفلسطيني الأوراق وهو يقول:

- هذه هي الوثيقة التي قمنا بصياغتها. وليس لبيريز ولا لرابين علاقة بها. إن الحكومة الإسرائيلية غير معنية بها، فهي متعلقة بالمفاوضات الجارية وبالقضايا

التي سنتداول بصددها. وإذا ما ارتأيتم رفعها إلى قيادتكم في تونس، فسنرى بدورنا ماذا نستطيع أن نفعل.

راح أبو العلاء يقلب الصفحات بدوره فيما تبادل مساعداه، عصفور وماهر، نظرات حائرة.

«لقد كانت تلك الدقائق كلها مشحونة بتوتر شديد» كما سيقول لنا هرشفلد في وقت لاحق.

وعندما انتهى رئيس الدائرة الاقتصادية في م.ت.ف. من مطالعة الوثيقة نهض معلناً!

ـ سوف نحتاج إلى بعض الوقت لدراستها.

غادر الفلسطينيون القاعة قاصدين غرفهم ومن ثم الصالون حيث كان بإمكانهم إجراء اتصالات هاتفية. أما هرشفلد وبونديك، اللذان سيطرت عليهما حالة من التوتر، فقد راحا يزرعان الممرات ذهاباً وإياباً. واقترحت عليهما ماريان هايبرغ، الدائمة الحضور في الكواليس، القيام بنزهة في الريف المجاور. وعلى الطريق، حاولا الحفاظ على توازنهما وتجنب الانزلاق على الثلج المتجلد بتحريك ذراعيهما على نحو يائس.

كان أبو العلاء، في أثناء ذلك، غارقاً في مكالمة طويلة مع أبي مازن، في تونس. وقد استمرت المكالمة زهاء ساعة ونصف، عرض خلالها أبو العلاء بالتفصيل مشروع هرشفلد.

كان المسؤول الثاني في م.ت.ف. يؤيد مبدأ الاستمرار في المفاوضات. وكانت لديه أفكار واضحة تماماً عن الاقتراحات الفلسطينية المضادة التي يمكن تقديمها أثناء المباحثات.

ـ هل ينبغي اطلاع «الختيار»؟ سأل أبو العلاء في أثناء المكالمة.

ـ لا تشغل نفسك بذلك، أجاب أبو مازن، سأتولى أنا إعلامه بما يدور.

من عادة «الختيار»، ياسر عرفات، أن يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل؛ وكان قد استيقظ لتوه وبادر إلى تناول فطوره، المؤلف أساساً من الكورن ـ فليكس، فلم يشأ أبو مازن ازعاجه. «لننتظر نتيجة المباحثات» فكّر هذا الأخير.

عندما عاد هرشفلد وبونديك إلى بورغارد كان الفلسطينيون لا يزالون غائبين. فقد اختلى أبو العلاء بمساعديه ليضع جوابه بالتفصيل. وكانت ساعات ثلاث قد انقضت عندما عاد الوفدان إلى الاجتماع ثانية.

ـ والآن يا أستاذ لنمض قدماً، قال أبو العلاء.

وقد تكلم هذه المرة بالانكليزية، من دون اللجوء إلى مترجم.

وغطس الإسرائيليون والفلسطينيون في عمق الملف الأكثر تعقيداً والأكثر إثارة للاهواء الذي عرفه تاريخ الدبلوماسية المعاصرة. وانقضت ساعات طوال، خُلعت أثناءها السترات وحُلت ربطات العنق، والرجال الخمسة مرتفقون، وقد شمّروا أكمامهم، حول طاولة المباحثات.

اتفق المفاوضون على ضرورة التوصل إلى إعلان مبادىء قبل التفكير باجتياز مرحلة تالية.

ـ يتعين علينا تحقيق قفزة قبل التوصل إلى اتفاق، أعلن هرشفلد. والآن، أصبحت لدينا مقاربة للموضوع.

ـ صحيح، أضاف أبو العلاء، يتعين علينا أن نجتاز «الروبيكون»[1].

واخضعت كل مشكلة لعملية تشريح من قبل الفريقين اللذين عرضا بالتناوب أفكارهما والتوجيهات المعطاة لهما. واستمرت المباحثات حتى ساعة متأخرة من الليل واستؤنفت في صبيحة اليوم التالي. الفلسطينيون، المعتادون على السهر حتى الفجر، لم يتضايقوا من ايقاع العمل، في حين ظهرت علائم التعب واضحة على هرشفلد وبونديك. احتسى الرجال الخمسة كميات كبيرة من القهوة والتهموا ثمانية كيلوغرامات من الفريز. وقد شُدِهَ هرشفلد وبونديك بابي العلاء. فقد كان يضع إلى جانبه على الدوام علبة حلوى كوبية كتبت عليها شعارات مناهضة لأميركا، فيغرف منها باستمرار قطع شوكولا وحبات فستق.

---

(١) نهر اجتازه يوليوس قيصر، من دون الحصول على موافقة مجلس الشيوخ، عندما حزم أمره على غزو بلاد الغال. و «اجتياز الروبيكون» عبارة تعني الإقدام على اتخاذ قرار خطير وعلى تحمل المسؤوليات التي قد تترتب عليه. «هـ.م».

تمحورت المواقف الإسرائيلية حول نقاط ثلاث. النقطة الأولى هي «التدرج»: فليس من الوارد أن يحصل انتقال فوري للسلطة في الأراضي المحتلة، بل سيقتصر الأمر على تولٍ تدريجي لشؤون الصحة، والتربية، والشؤون الاجتماعية، والسياحة، والضرائب المباشرة.

وقد أشير في أثناء المداولات، إلى إنشاء إدارة للكهرباء وأخرى لميناء غزة.

وكانت النقطة الثانية هي غزة على وجه التحديد. أما أريحا، فلم يؤتَ بذكرها في أي لحظة. والحال أن قطاع غزة لم يُعتبر يوماً مشكلة. فالإسرائيليون، وحكوماتهم كافة، طالما راودتهم فكرة التخلص من هذه الأرض الصغيرة التي لا موارد لها والتي هي أشبه ببرميل بارود يقطنه أكثر من سبعمئة ألف فلسطيني. وكان عرفات قد وعد بأن يجعل من غزة «سويتو[٢] إسرائيل». وكان موقف الزعيم الفلسطيني واضحاً بهذا الصدد على حد تعبير حنان عشراوي: «كان يقول لنا: إذا ما انسحب الإسرائيليون من غزة يتعين علينا، بكل تأكيد، أن نأخذ هذا القطاع. ولكن ينبغي أن نحصل، كذلك، على الضفة الغربية مع الحق في أن نقول: إنها تشكل كلاً واحداً. فمن أي مدينة في الضفة الغربية، كان يضيف عرفات، أستطيع الذهاب إلى القدس. في حين لا أستطيع أن أذهب إليها من غزة».

أما النقطة الأخيرة، فقد تركزت على التعاون الاقتصادي بين الكيان الفلسطيني الجديد وإسرائيل. ولما كانت وجهات نظر أبي العلاء وهرشفلد متقاربة بهذا الصدد، فإن هذا الموضوع لم يثر أي خلاف.

بالمقابل، اتسمت المباحثات بالصعوبة بل أحياناً بالتوتر، عندما طرحت على بساط البحث مسألة الانتخابات المقبلة، والتشريع الذي سيطبق في منطقة الحكم الذاتي، ومسألة وضع القدس طبعاً.

---

(٢) ضاحية من ضواحي جوهانسبورغ (جنوب أفريقيا) يقطنها أكثر من مليون أسود. «هـ. م».

عندما افترق الرجال الخمسة بعد يومين ونصف من المداولات، كانت «خطوة كبيرة» قد خطيت على حد تعبير أحدهم.

وقد صارح هرشفلد أبا العلاء وهو يودعه قائلاً:

ـ لقد تفاهمنا على مجموعة من النقاط، وأصبح من الممكن التوصل إلى اتفاق. وغدا في وسعي الآن أن أعود إلى بيتي وأن أباشر العمل. لست أدري ماذا يمكن أن يحصل، ولكن سنحقق شيئاً ما ولا بد.

وعلى الرغم من اتزانه المعهود صارح رون بونديك زميله بعد بضع ساعات، قائلاً وقد رفع قبضتيه إلى الأعلى تعبيراً عن فرحه وظهرت علائم الابتهاج على وجهه:

ـ أنا لست نبياً يا يائير، بل مجرد عالم تاريخ. بيد أني أشعر بأن شبكتنا هي الصالحة. فهي ستتيح التوصل إلى اتفاق، أنا واثق من ذلك تماماً. فبعد هذا الاجتماع، وبعد أن أصغيت إلى اقتراحاتهم، راودني الحدس بأن أمراً عظيماً سوف يطرأ.

وفي تقرير عن هذا اللقاء رفعه يان ايغلند إلى الأميركي دنيس روس كتب وكيل الخارجية النرويجية يقول: «لقد أضحت لديّ قناعة: ما عادت إسرائيل، ولا منظمة التحرير تستطيعان السماح لنفسهما بالاستمرار في النزاع لعامٍ، أو اثنين أو ثلاثة أعوام أخرى».

لدى عودته إلى تونس عقد أبو العلاء، يرافقه أبو مازن، اجتماعين ليليين مطولين مع عرفات. وقد شدّه زعيم م.ت.ف. للعرض الذي قدّمه له مفاوض أوسلو. فللمرة الأولى في تاريخ النزاع، بدت المواقف الإسرائيلية ومواقف المنظمة قابلة للالتقاء.

لم يكن «الختيار» قد أولى حتى الآن اهتماماً كبيراً للشبكة النرويجية. وقد صارحنا في وقت لاحق قائلاً:

ـ كان قد سبق لي أن اعطيت الضوء الأخضر في الماضي لحوارات عديدة مع الإسرائيليين، من دون أن يؤدي واحد منها إلى نتيجة. فلماذا كنت سأعلق كبير

الآمال على فرص نجاح الحوار الأخير؟

في الرابعة والنصف فجراً، وفي أعقاب الاجتماع الثاني مع أبي العلاء، كان عرفات قد انتهى من وضع كامل تفاصيل خطة ستعرف تحت الاسم المرموز «بقع الفهد». وقد أعرب زعيم م. ت. ف. عن حرص شديد على الابقاء على السرية المطلقة للعملية، حتى داخل المنظمة. وهكذا لم يعلم بها إلا حفنة من المستشارين. فبالإضافة إلى أبي العلاء وحسن عصفور، اللذين كانا ينهضان بالمفاوضات، لم يطلع على أمرها سوى أبي مازن ومستشاري عرفات الشخصيَّيْن: ياسر عبد ربه ونبيل شعث. وقد شدد عرفات، عندما جمع مساعديه هؤلاء، على ضرورة الحؤول دون تسرب أي خبر. وقد اتفق على وضع نظام مرموز، واختيرت أسماء مستعارة للإشارة إلى المسؤولين الإسرائيليين وإلى مفاوضيهم، تفادياً لكل مجازفة لدى الاتصال مع تونس.

كانت هموم ثلاثة تشغل بال عرفات. فقد كان الزعيم الفلسطيني حريصاً، أولاً، على كتم أمر المفاوضات عن اللجنة المركزية للمنظمة، نظراً إلى توزع عدد من أعضائها بين عواصم عربية شتى وما قد ينجم عن ذلك من خطر تسرب الأخبار.

كما كان عازماً، وللاعتبارات عينها، على إبعاد القياديين المؤسسين عن هذه المفاوضات، ومنهم على سبيل المثال فاروق قدومي، رئيس دائرة الشؤون الخارجية في م. ت. ف. والمدافع عن خط متشدد. فقدومي يقيم علاقات وثيقة مع دمشق وقد يبادر إلى إعلام السوريين بما يجري.

ـ إذا ما علم الرئيس الأسد بوجود هذه الاتصالات، أكد عرفات لأحد المقربين منه، فإنه سيعمد إلى خلط الأوراق أو يسعى إلى الاستئثار بدور رئيسي.

وبالنسبة إلى عرفات، ثالثاً وأخيراً، فقد كان من الأهمية بمكان أن يبقى الوفد الفلسطيني الرسمي إلى محادثات واشنطن على جهل مطبق بما يحصل وأن يلعب دور ستار دخان مضلل. وبالفعل، تلقى المفاوضون الثلاثة والتسعون، المقيمون في العاصمة الأميركية، توجيهات جديدة مفاجئة من قبل قيادتهم، نقلت إليهم عن طريق نبيل شعث: فقد دعاهم عرفات وأبو مازن إلى تبني موقف

متشدد وإلى رفض كل الاقتراحات التي قد تتقدم بها إسرائيل.

وقد شعر هؤلاء المندوبون بخيبة مريرة عندما أدركوا التلاعب الذي ذهبوا ضحيته.

ـ إنه لأمر مخزٍ قال أحدهم. ففي الوقت الذي كنا نتناول المقبلات كان عرفات يتلذذ بتناول الطبق الرئيسي.

بالنسبة إلى زعيم م.ت.ف. وأبي مازن، كان مشروع الحكم الذاتي لغزّة المقترح من قبل الإسرائيليين نسخة طبق الأصل عن العرض الذي كان قد قدم إليهما في العام ١٩٧٨، بعد إبرام اتفاقيات كمب ديفيد. لذلك اعتبراه غير كاف. وقد صارح عرفات أحد مساعديه بهذا الصدد قائلاً: «لا غنى لنا عن امتداد في الضفة الغربية. فهذا أمر ضروري للحصول على أوسع دعم ممكن من قبل أشقائنا الذين يعيشون في ظل الاحتلال الإسرائيلي».

لم يكن خيار «أريحا» قد طرح بعد على بساط البحث في تلك المرحلة من المفاوضات. وثمة مخطط وضعه أبو مازن نزولاً عند طلب عرفات، كان يلحظ انسحاب عسكري إسرائيلي لا من غزة فحسب، بل أيضاً من كافة المدن الفلسطينية الكبرى في الضفة: من نابلس، رام الله، بيت لحم، أريحا وسواها من المدن. ولما كانت مناطق الإدارة الذاتية هذه تبدو على الخريطة وكأنها بقع جلد فهد، فقد أطلق على هذا المشروع الاسم المرموز الذي أسلفت الإشارة إليه، «بقع الفهد». وفي نظر أبي مازن، كان «النموذج المبدئي» للانسحاب المطلوب اتفاق فك الارتباط الذي جرى توقيعه في العام ١٩٧٤ من قبل إسرائيل ومصر، والذي تميز بانكفاء عسكري إسرائيلي وبعودة تدريجية للأراضي إلى مصر؛ الأمر الذي أتاح للسادات، بعد ثلاثة أعوام، القيام برحلته التاريخية إلى القدس.

وقد أبدى الزعيم الفلسطيني، بالمقابل، استعداده لإرجاء موعد المفاوضات حول مستقبل القدس الشرقية، التي ضمتها إسرائيل إليها، والتي ما فتئت م.ت.ف. تعتبرها عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة.

في أوسلو، كان سفير إسرائيل وممثل م.ت.ف. لا يزالان يجهلان ما يحاك على مرمى حجر منهما.

في إسرائيل، بالمقابل، بدأ الموساد يهتم بتحركات الأستاذين. فعلى الرغم من الاحتياطات التي كان يتخذها هذان الأخيران، فقد كانا يتصرفان بسذاجة الهواة، وكان العملاء الإسرائيليون يعلمون بأنهما يترددان على النرويج. وقد رفع تقرير مقتضب بهذا الخصوص إلى اسحق رابين الذي لم يبد أية ردة فعل. والواقع إن رئيس الوزراء لم يمنح هذه المبادرة أي رصيد. فرابين، على حد قول نمرود نوفيك «هو على الدوام ضد، لا لأنه فعلاً ضد، بل لأنه لا يعتقد بجدية الأمور، ولا يؤمن بوجود محاور جدير. فهو متشكك، ميّال إلى تكرار عبارة: ‹دع عنك هذا، فليس للحكاية من رأس أو ذنب›».

شهراً بعد شهر عاش هرشفلد وبونديك على هاجس ذيوع خبر المفاوضات.

ـ كنا نصبو إلى الانتهاء بسرعة، قال بونديك، لشدة ما كنا نخشى من أن ينهار كل شيء إذا ما تسرب أبسط خبر. ولئن ظلت هذه المفاوضات مجهولة من الجميع، إن في إسرائيل وإن في تونس، فهذا ما اعتبره ضرباً من المعجزة.

وكان هرشفلد يسعى إلى طمأنة صديقه وإلى إسكات مخاوفه الشخصية، بأن يقول لبونديك:

ـ حتى لو ذهبت بنفسك إلى الصحافة لتروي هذه القصة، فإن الجميع سيبتسم وهو يصغي إليك، وما من أحد سيصدق ما تقول.

وقد تتالت أيام شهري آذا/مارس ونيسان/ابريل محفوفة بالمخاطر. فقد رزح الإسرائيليان تحت وطأة توتر متعاظم باطراد، وعانا من تفاقم حالة العزلة التي هما فيها. وكان كلما برزت صعوبة أو نقطة شائكة، قطع الفلسطينيون المفاوضات لعرض الأمر على تونس.

ـ أما نحن، فكنا بمفردنا، قال هرشفلد، فبمن نتصل هاتفياً وليس لنا من وجود رسمي، وإلى من نعود وحكومتنا غير معنية بهذه المفاوضات؟

كان رابين غير مبالٍ، أما بيريز، الداهية والحذر، فلم يكن قد خرج بعد

من الكواليس. وعلى الأرض، صعّد كلا الفريقين لهجتهما. وترافق تجدد عمليات المقاومة بتفاقم الإجراءات القمعية.

وفي الوقت عينه أدلى عرفات، في حديث أجرته معه إذاعة مونت كارلو، بتصريحات كان لها «وقع مشؤوم ومدمّر لدى الرأي العام والأوساط السياسية الإسرائيلية» على حد قول يان ايغلند. ويضيف وكيل الخارجية النرويجية: «فما قاله عرفات، عندما جاء بذكر الدولة العبرية، (سنحرق الأرض تحت أقدامهم). وقد فسّر كلامه على أنه تحريض على تأجيج الانتفاضة».

ـ في آذار/مارس، أفادنا هرشفلد، انتابني شعور بأننا قد انتهينا إلى طريق مسدود. فبالرغم من الخطوة الهائلة التي حققناها في اتجاههم، بدوا وكأنهم غير عازمين على القيام بخطوة مماثلة. فقد استمر الارهاب ولم يفعلوا شيئاً لتحسين الأوضاع.

ويدأ في العشرين من آذار/مارس اجتماع جديد. التقى الإسرائيليان أولاً على انفراد بإيغلند ولارسن. وكان هرشفلد في حالة من التوتر الشديد. فقد خشي، وهو الذي طالما حلم بالسلم، أن تفوته فرصته مرة أخرى.

وقد صارح المسؤول الثاني في الخارجية النرويجية بقوله:

ـ إننا لن نصل إلى أي حل توفيقي إذا ما استمروا في زرع الارهاب على الأرض. وأنا لا أستطيع المضيّ في ممارسة الضغوط على جماعتي لحملهم على تقديم التنازلات. لن تتقدم الأمور على هذا المنوال.

أما في بورغارد، فقد بدا الوضع حافلاً بالمفارقات، بل سريالياً. فلن يثير الإسرائيليون والفلسطينيون في اجتماعاتهم الانفرادية، ولو لمرة واحدة، مسألة العنف في الأراضي المحتلة. وبعيداً عن الجلبة والضوضاء تابع المفاوضون، بكثير من الصبر، عملية نسج مشروع الاتفاق خيطاً بعد خيط. ولكن في الكواليس، نشط المسؤولان النرويجيان على قدم وساق. اتصلا مراراً بأبي مازن وعرفات، مستخدمين الأسماء المرموزة المتفق عليها، ودعوهما إلى تهدئة الوضع. وقد لوحا إلى «خطر إغضاب الختيار الآخر»، أي اسحق رابين الذي خلع عليه المتفاوضون في أوسلو نفس لقب عرفات. أما بيريز، فقد لقب بـ «الأب»، ويوسي بيلن

بـ «الابن».

في أواخر آذار/مارس، وبعد أيام معدودة من رجوع هرشفلد من النرويج، وصل الأميركي دان كورتزر إلى إسرائيل في زيارة خاصة. ولم يتصل هذا المسؤول الأميركي، الذي يتفق الفرقاء كافة على اعتباره أفقه خبير في قضايا الشرق الأوسط في إدارة كلنتون، لم يتصل هاتفياً إلا بمسؤول سياسي واحد: يوسي بيلن. وقد أشار نائب وزير الخارجية الإسرائيلي إلى أوسلو وإلى التقارير المفصلة التي يرفعها إليه أستاذ جامعة حيفا كلما عاد إلى إسرائيل. وكان بيلن، في مطلق الأحوال، قد عزم على اطلاع بيريز على حقيقة ما يجري. وعلى الأثر اتصل كورتزر هاتفياً بهرشفلد وطلب مقابلته.

توجه الأستاذ إلى القدس وهو في حالة من الاكتئاب النسبي. لكن الكلام الذي سمعه من الأميركي كان بلسماً لفؤاده. فقد صارحه كورتزر قائلاً:

ـ ما حصلت عليه حتى الآن في أوسلو كان سيحتاج إلى سنتين أو ثلاث من المفاوضات في واشنطن. إن التوجيهات لردم الهوة التي لا تزال تفصل بين الفريقين صلبة بما فيه الكفاية كيما يستمرا بالتفاوض. إنها لورقة ذات أهمية خارقة. فلا تدعها تسقط من بين يديك أبداً.

«لقد كان لتلك العبارات وقع بليغ في نفسي، أفاد هرشفلد لاحقاً. فقد غدا في وسعي أن أتوجه إلى بيلن وبيريز قائلاً: (إن كورتزر، مع كامل خبرته بالشرق الأوسط، قد دعاني إلى عدم التخلي عن المفاوضات وإلى المضي بها قدماً). لقد رفدنا، في الحقيقة، بدعم قوي فقررنا العودة إلى النرويج».

في أواخر آذار/مارس، بدأ بيريز يتحرك بتؤدة وحذر في مرحلة أولى. فهو يعلم أن رابين يترصد أبسط تحركاته وأفعاله. وقد أفاد مسؤول في الاستخبارات الإسرائيلية، خلال جلسة خاصة، بأن «اسحق رابين يطلع مرتين على نشاط بيريز. المرة الأولى من خلال ما ينقله إليه بيريز، والمرة الثانية من خلال التقرير الذي ترفعه إليه أجهزة الأمن».

وكان وزير الخارجية قد أنبىء لتوه بأن الفلسطينيين قد كاشفوا المصريين بالمفاوضات الدائرة في النرويج. وتعلق حنان عشراوي على ذلك فتقول: «إن المصريين يحتلون موقفاً فريداً يسمح لهم بمحاورة الجميع، وهذا علاوة على أنهم يتطلعون إلى النهوض بدور مهم. وقد أولى عرفات ومنظمة التحرير على الدوام اعتباراً كبيراً للجانب المصري. وكانا يميلان إلى الاعتقاد بأن تدخل القاهرة يمكن أن يكون بنّاءً».

كان الخيار المتاح لشيمون بيريز بسيطاً يتفق واللعبة الخفية التي طالما اعتاد على ممارستها بذكاء: الاحتفاظ لنفسه بالرقابة المطلقة على مفاوضات لم يمنحها بعد كفالته. كان حريصاً على ألا يوحي بأنه يتجاوز رابين، تجنباً لمضاعفات سياسية سلبية، وراغباً، في الوقت عينه، في الحؤول دون أن تعزو الدبلوماسية المصرية لنفسها دوراً لم تضطلع به في الواقع.

وقبل أسبوعين من زيارة رابين للقاهرة، توجه بيريز إلى مصر، ملبياً دعوة نظيره المصري عمرو موسى الذي بادر إلى تنظيم لقاء ولا أغرب.

ففي الاسكندرية، صعد بيريز إلى متن طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للقوات المسلحة المصرية كان قد سبقه إليها كل من أبي مازن وأبي العلاء... وحلّقت الطائرة على مدى ساعتين فوق البحر الأحمر، في مجال جوي ذي حصانة دولية تامة. وقد أتيح لبيريز خلال هذا التحليق أن يستدرك كل ما فاته من معلومات. فعندما حطّت الطائرة، كان قد أمسى على اطلاع تام على أدق تفاصيل مباحثات بورغارد.

وقد حدس رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية، بما أوتي من فطنة وذرائعية، بأن هذه المباحثات مع م. ت. ف. تتميز عن سائر الاتصالات السابقة وبأنها مرشحة لأن تفضي إلى نتيجة.

كان محاوراه الفلسطينيان قد ألحا على نقطة محددة: فقد طالبا بأن يحل مسؤول إسرائيلي رفيع المستوى، من الآن فصاعداً، محل هرشفلد وبونديك. وقد اعتبر بيريز هذا الطلب مشروعاً، نظراً إلى الشوط الهام الذي قطعته المفاوضات. وقد ناسبه أن يضطلع بدور «الشخصية الإسرائيلية المنخرطة في

مباحثات شائكة ولكن واعدة مع م.ت.ف.» ولاسيما أن خصمه السرمدي، رابين، لا يزال على مسعاه إلى تهميشه. فمثل هذا الدور خليق بتكبير صورته والرفع من حظوته. ولكن لا بد من التحرك بسرعة من الآن فصاعداً. وفي طريق عودته إلى إسرائيل راح يستوعب أكثر فأكثر أهمية الأوراق التي بات يحسن كشفها.

كان بيريز، في أثناء مداولاته مع المسؤولين الفلسطينيين، قد استبعد على نحو قاطع مطلب الانسحاب العسكري الإسرائيلي من المراكز المدينية الكبرى في الضفة الغربية. وقد أكد بأن هذا المطلب سيقابل بمعارضة شديدة إن من قبل الرأي العام أو من قبل الطبقتين السياسية والعسكرية في إسرائيل. وقد ردّ عليه أبو مازن، إذ أدرك بأن مخططه «بقع الفهد» قد بات في خطر: «ثمة حقيقة ينبغي ألا تغيب عنكم؛ إنه سيستحيل التوصل إلى اتفاق ما لم تقدموا على مبادرة لها دلالاتها بخصوص الضفة الغربية».

كانت هذه هي البداهة بعينها في نظر بيريز؛ غير أنه كان يعلم علم اليقين أن رابين لا يشاطره الرأي.

كان المطلوب الاهتداء إلى حل يحقق للمنظمة الفلسطينية مكسباً رمزياً ومحدوداً جغرافياً. واستحضر الوزير الإسرائيلي في ذهنه للحال مشروعاً قديماً كان قد جرى تداوله في العام ١٩٧٤.

كان حزب العمل في الحكم آنذاك مع رابين على رأس الحكومة وبيريز في منصب وزير الخارجية.

وقد طرحت، وقتها، فكرة تحقيق انسحاب من طرف واحد من أريحا، إثباتاً لحسن نية إسرائيل تجاه الأردن. ولم تكن أية مستعمرة استيطانية يهودية قد شيدت في جوار هذه الواحة، الواقعة في غور نهر الأردن والتي يقطنها زهاء خمسة عشر ألف نسمة. كان بيريز يدرك بأن للمدينة بعداً رمزياً وتاريخياً. ففي أريحا على وجه التحديد كان الفلسطينيون قد اتخذوا قرارهم بالاتحاد مع الأردن، في أعقاب هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٤٨.

ففي الأول من كانون الأول/دسمبر ١٩٤٨ انعقد اجتماع كبير في فندق نزّال، ضم زهاء مئتين شخصية فلسطينية تمثل كبريات الأسر في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ وقد جرت في ذلك الاجتماع مبايعة الملك عبد الله، جد ملك الأردن الحالي. فإذا ما قيض لمنظمة التحرير الفلسطينية أن توطد قدميها في أريحا فإنها ستعطي الانطباع بأن صفحة الماضي قد طويت نهائياً.

ولكن إن كانت الفكرة جيدة، فإن تطبيقها لن يكون سهلاً. فقد كان بيريز على يقين من أن عرفات سيرفض الاقتراح إذا ما صدر عن إسرائيل. لذلك رسم، على مدى الأيام، تكتيكاً تكشّف عن عملية «بلف» بارعة.

ففي منتصف نيسان/ابريل تسلم الرئيس المصري حسني مبارك رسالة سرية بعث بها إليه بيريز. كانت عبارة عن وثيقة من ثلاث صفحات لا تحمل أي توقيع؛ وقد أثار مضمونها، على الفور، اهتمام الرئيس المصري. فالنص قد أتى للمرة الأولى، بالفعل، بذكر خيار غزة - أريحا. فقد تضمنت هذه الوثيقة، على حد زعم نمرود نوفيك، الذي اطلع عليها، تفصيلاً للفكرة ووصفاً دقيقاً لمنطقها، سواء من منظور الإسرائيليين أو من منظور الفلسطينيين.

وبعد أيام، سافر شيمون بيريز إلى القاهرة حيث التقى نظيره عمرو موسى واجتمع، مطولاً، وعلى انفراد، بالرئيس حسني مبارك. وقد أثار الرئيس المصري، في مستهل الجلسة، موضوع النص الذي كان قد تسلمه والذي احتار في تفسيره.

- آه، إنها مجرد فرضية عمل، أجاب بيريز بلهجة غير مبالية.

أمعن مبارك النظر فيه وهو في حيرة من أمره. ثم سأله:

- لا أكثر من ذلك؟

كان الرجلان يتبادلان أطراف هذا الحديث في صالون من صالونات القصر الرئاسي المطل على الحدائق. وقد أجاب بيريز قائلاً:

- أنت تسألني في الحقيقة إن كنا على استعداد لمنح أريحا حُكماً ذاتياً؟

ـ صح .

مكث رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية صامتاً للحظات ثم قال:

ـ بصراحة، يا سيادة الرئيس، شعوري أنْ أجل.

وهكذا أخذت العملية مسارها. فقد اتصل مبارك على الفور بعرفات ودعاه للحضور. كما كاشف بالأمر مستشاره الخاص ورجل ثقته أسامة الباز.

إن هذا الرجل النحيل، الدائم الحركة، القصير القامة، يبدو وكأنه لا يزال في الأربعين مع أنه قد أصبح في الثانية والستين. وهو إنسان متألق، صاحب نزوات، غريب الأطوار، ميّال إلى الإثارة وحريص على صورته كشخصية يتعذر تصنيفها.

ومن عادته أن يختفي منذ التاسعة مساء في ليل القاهرة فيستحيل على أي كان، حتى على رئيس الجمهورية، الاتصال به. وهو خبير في خفايا العالم السياسي الإسرائيلي ولا يفوته إدراك أدق تفصيل فيه. وقد كان، بصفته هذه، كفيلاً بأن يوفر دعماً دبلوماسياً ناجحاً للفلسطينيين. «ربما كان وحده قادراً على جعلهم يدركون حدود الممكن على صعيد المواقف الإسرائيلية، يقول نوفيك، محاوره المميز. لقد كان يتمتع بمصداقية كبيرة لدى منظمة التحرير التي كان قد نصّب نفسه مدافعاً عنها على مدى سنوات؛ بيد أنه كان يحرص على وضع النقاط على الحروف عندما كانت المنظمة تسيء التصرف». وقد تمرّس على المفاوضات الشائكة ورافق السادات لدى إبرام اتفاقيات كمب ديفيد. وكان من عادته استقبال أبي مازن، وكان هذا الأخير يعرض عليه بعض وثائق م.ت.ف. السرية؛ ويبادر المستشار المصري إلى شطب بعض العبارات، وإلى تصحيح وتعديل بعضها الآخر، قاطعاً الدليل على إمكان تحسين النص وإعادة صياغته في مجمله.

وعندما اطّلع على الأوراق الثلاث التي حولها مبارك إليه، والتي تضمنت عرضاً لخيار أريحا، لم يتردد لحظة في أن يقول بينه وبين نفسه بأن على منظمة التحرير ألا تفوت هذه الفرصة الفريدة.

شارك الباز في اللقاء الذي جمع بين عرفات ومبارك بعد أيام

معدودة. وتعرّض الزعيمان، خلال هذا اللقاء، للمباحثات الجارية في أوسلو.

وأعلن مبارك، أثناء النقاش، موجهاً كلامه للزعيم الفلسطيني:

ـ سوف تحصل بسهولة على الإدارة الذاتية لغزة، ولكن بماذا ستطالب في الضفة الغربية؟

وأجاب عرفات قائلاً:

ـ سوف نطالب الإسرائيليين بسحب قواتهم من سائر التجمعات السكانية الكبرى في الضفة وإن كنا ندرك سلفاً تحفظهم بهذا الصدد.

هز مبارك رأسه وكأنه لم يقتنع بكلام محدثه، ثم قال:

ـ صدقني، لا أمل لك في الحصول على ما تطلب.

وبدا رئيس م. ت. ف. وكأنه فوجىء بما سمع:

ـ هكذا إذن! ولكن ماذا تقترح؟

ـ طالب بأريحا في مرحلة أولى. فسوف تكون نواة الإدارة الذاتية القادمة على كامل الضفة.

ـ أريحا؟

كانت الدهشة ظاهرة على عرفات. وقد أمعن النظر طويلاً في المسؤولَيْن المصريين قبل أن يجيب، موجهاً كلامه لمبارك:

ـ امهلني بضع ساعات كيما أدرس المسألة.

التحق رئيس م. ت. ف. بمستشاره نبيل شعث الذي كان ينتظر في غرفة مجاورة برفقة عدد من المساعدين.

ـ احضروا لي على الفور خريطة لفلسطين، قال عرفات بلهجة آمرة.

وفيما توزع المعاونون، بحثاً عن الخريطة المطلوبة، نقل عرفات إلى شعث اقتراح مبارك.

ـ من الأفضل أن نختار جنين، قال شعث. ففي جنين يمكننا الاعتماد على أناسٍ أكثر نضالية.

- لكن جنين متطرفة إلى الشمال أكثر مما ينبغي، أجاب عرفات. في حين تقع أريحا على مقربة من جسر اللنبي، في منتصف الطريق بين القدس وعمان.

وبعد زهاء ساعتين، عاد ياسر عرفات إلى الاجتماع بحسني مبارك وقد حمل تحت ذراعه عدداً من الخرائط الملفوفة التي ما لبث أن بسطها بتأنٍ فوق طاولة واطئة توسطت الصالون. وقد ميز الرئيس المصري ومستشاره للحال رسم ممر يصل غزة بأريحا عبر الأراضي الإسرائيلية. وسلط مبارك أصبعه باتجاه الرسم قائلاً:

- لن يمر مشروع هذه الطريق.

ونظر إليه عرفات مستغرباً:

- ولكن هذه الطريق ستكون منطقة حصانة دولية. فلا بد من شيء ما للتوكيد على وحدة هذين الجزئين من أرضنا، وعلى أننا نشكل كياناً واحداً.

نفى مبارك بإشارة من رأسه:

- إني أعرف رابين، فلن يوافق أبداً. اكتف بأريحا، في الوقت الراهن، وطالب بالممر في أثناء المفاوضات. إعلَمْ أن غزة وأريحا قد غدتا، من الآن فصاعداً، غير قابلتين للفصل.

وفي أقل من يومين تحولت فكرة بيريز، وفقاً لتوقعات هذا الأخير، إلى مشروع عرفات. وهكذا شهر رئيس م.ت.ف. مطلباً كان قد أملي عليه بصورة غير مباشرة، عن طريق الوساطة المصرية، من قبل أعدائه بالذات. ويبقى على شيمون بيريز أن يقوم بالمهمة الأصعب: بيع مفاوضات أوسلو ومشروع أريحا إلى اسحق رابين.

كان رئيس الحكومة الإسرائيلية، الذي بقي يجهل كلّ ما يُهيأ في الكواليس، قد عقد العزم على أن يواجه تصاعد موجة العنف بإغلاق قطاع غزة كلياً. فلن يسمح لفلسطيني واحد بمغادرة القطاع.

في ٣٠ نيسان/ابريل توجه هرشفلد وبونديك من جديد إلى النرويج

واستمرت إقامتهما فيها حتى الثاني من أيار/مايو. ولم يستقبل النرويجيون الوفدين هذه المرة في بورغارد، بل في هفتبيه هاوس، وهي عزبة غير بعيد عن بلدة ليلهامّر[1].

وقد تنقل الوفدان بين عدد من فنادق أوسلو، بل استضافهما أيضاً الوزير النرويجي للشؤون الخارجية، يورغان هولست، في داره حيث قيض لأعضاء الوفدين تذوق طهو زوجته، ماريان هايبرغ، وبخاصة أطباق لحم الخروف التي اختصت بإعدادها والتي قدمتها لهم مصحوبة بالنبيذ التشيلي.

وقد اتخذت اللقاءات منحى «روكامبوليا»[2].فقد كانت العاصمة النرويجية تستقبل وقتذاك المفاوضات المتعددة الأطراف حول قضية اللاجئين. وكان الوفدان الرسميان الإسرائيلي والفلسطيني على جهل مطبق بالاتصالات السرية الدائرة على بضع مئات من الأمتار، في فندق بلازّا. وقد نهض رود لارسن ومونا يوول بدور الرسول بين فريق أبي العلاء من جهة، وهرشفلد وبونديك من جهة أخرى.

كان هرشفلد يرغم نفسه على التجول في الريف المجاورة سيراً على الأقدام كلما أتته الفرصة. فقد كان يسعى يائساً، وهو الميال أساساً للسمنة، إلى التخلص من الخمسة أو الستة كيلوغرامات الزائدة التي اكتسبها خلال تلك اللقاءات. كما كان يسعى، بمزيد من الجهد والإلحاح، إلى التوصل إلى اتفاق.

ـ ثمة هوة كانت لا تزال تفصل بين مواقفنا، وقد حزمت أمري في نيسان/ابريل على ردمها بالإقدام على مبادرة كنت أعلم سلفاً بأنها لن تحظى بتأييد الحكومة الإسرائيلية. كانت فكرتي أن أتمكن من أن أقول للرسميين لدى عودتي: إن بين أيدينا الآن نصاً حظي بموافقة الفلسطينيين. فإذا شئتم المضي إلى أبعد في المفاوضات، فإنكم تستطيعون الانطلاق من هذا النص الأساسي ثم تحددون التعديلات التي تبغون إدخالها؛ إنهم يعلمون أن مثل هذه التعديلات أمر لا مفر منه.

---

(١) التي ستستضيف لاحقاً الألعاب الاولمبية الشتوية في شباط ١٩٩٤. «هـ.م».

(٢) نسبة إلى روكامبول، بطل مغامرات روائية مشهورة بقلم بونسون دي ترّاي. «هـ.م».

«برهنوا عن حسن نيتكم، كان هرشفلد لا ينفك يكرر على مسامع محاوريه الفلسطينيين خلال تلك المباحثات، واقطعوا الدليل على تصميمكم على المضي قدماً في هذه المفاوضات».

وكانت النتيجة نصاً سمي «وثيقة ساربسبورغ» عاد به هرشفلد إلى إسرائيل وكأنه جوهرة ثمينة. وقد قصد هرشفلد حال وصوله مبنى وزارة الخارجية، حيث استقبله يوسي بيلن على الفور. وبوجه يشع بهجة أعلن الرجل البدين والملتحي، ذو السيماء المرتبكة:

ـ لقد توصلنا إلى مسودة اتفاق.

مكث بيلن فاغر الفم، متأرجح الذراعين، قبل أن يجيب:

ماذا! أجننت تماماً؟

ـ أبداً، سوف ترى، إنه نوع من تمرين مثير للغاية.

سيطرت على نائب الوزير حالة من الذهول الشديد. لم يكن يتوقع أن يتجاوز هرشفلد توجيهاته إلى هذا الحد.

ـ أرني ذلك للحال.

وراح بيلن يطالع الوثيقة بامعان وقد تقطبت ملامحه. وعندما رمق هرشفلد من جديد، بدا وجهه مفجوعاً.

ـ بحق الله ما هذا! هذه الورقة محشوة بأشياء سيئة.

وأجاب هرشفلد ببرودة أعصاب:

ـ اعلم أن ثمة نقاطاً سلبية فيها، ولكني وجدت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن أجهد نفسي للتوصل إلى اتفاق وإما أن أقطع المفاوضات. إن الفلسطينيين قد باتوا يعلمون بأنه في حال جلوس رسميين إسرائيليين الآن إلى مائدة المفاوضات، فإن جولة جديدة سوف تبدأ ويعرفون أن عليهم تقديم بعض التنازلات. قد يقال لي إن هذه الوثيقة تحابي المصالح الفلسطينية! هذا صحيح، ولكن لم تكن ثمة وسيلة أخرى للانطلاق.

بالنسبة إلى أوري سافير، المدير في وزارة الخارجية الإسرائيلية، فإن «٣٠ بالمئة فقط من مضمون النص كان مقبولاً. غير أنه كان قريباً من تصوراتنا على الصعيد الاقتصادي كما كان يتضمن بداية حل وسط». وهذا ما أكده بيلن لاحقاً إذ قال: «كانت الملحقات الاقتصادية قد أنجزت على نحو مرضٍ، وقد تطابقت، فقرة فقرة تقريباً، مع النص كما سينشر في صورته النهائية».

كان هرشفلد قد أعلن في مستهل المفاوضات: «كيما نتوصل إلى إبرام اتفاق يتعين علينا، أولاً، اجتياز حقل ألغام والاهتداء إلى الممر الآمن».

وهذا على وجه التحديد ما حققه مع صديقه بونديك، ومن دون أن يحظى بدعم أو مساعدة. فهذان الرجلان، اللذان كانا يحلمان بالسلم، سوف يتعرضان للنقد من قبل السياسيين بعد أن أنجزا الجزء الأساسي من المهمة.

لقد كانت وثيقتهما بعيدة عن الكمال بكل تأكيد. ولكن الذين جاؤوا من بعدهما وتصدروا الواجهة، كان همهم الأول أن يمحوا آثار الماضي إلى أقصى حد ممكن كيما يعزوا إلى أنفسهم الفضل في أي نجاح محتمل.

٩

شيمون بيريز، اللامحبوب

لقد طابت ليوسي بيلن فكرة أنه بات في مستطاعه أخيراً أن يقدم لشيمون بيريز الشاهد الذي شرع يحرق أصابعه.

لكن بيريز، قبل أن يحيله بدوره إلى رابين، قرر بينه وبين نفسه أن يقطع بمفرده مسافة أخرى طويلة بما فيه الكفاية كيما يعزى إليه الفضل في نصر محتمل.

وفي هذا الطور من قصتنا فإن دوره سيغدو حاسماً. ومن ثم عقدنا العزم، قبل أن نواصل تحقيقنا، على القيام بزيارة له.

أبدى سائق التكسي، الذي أقلّنا إلى شيمون بيريز، ترحيباً بتوقيع اتفاقيات السلام مع م.ت.ف. والشيء الوحيد الذي أدهشه هو أن يكون قد أمكن الاحتفاظ بالسر إلى النهاية في منطقة تعج بالثرثارين.

قال لنا بيريز:

ـ إنه ليس على خطأ من أمره، والصعوبات لم تبرز على الدوام حيث كنا ننتظرها. فأوري سافير، مثلاً، عانى كثيراً كيما يقنع زوجته، الغيور بطبعها، بأن عليه أن يسافر إلى النرويج تكراراً... وتحاشياً للنقار معها لم يجد بداً في النهاية من إطلاعها على الأمر. وإذ استعادت على هذا النحو طمأنينتها، مشت في اللعبة تماماً. لحسن الحظ!

بدا لنا شيمون بيريز وكأنه تغير. فمعالم الارتياح بادية عليه، مثله مثل إنسان تردد طويلاً عند حافة المسبح ثم اكتشف، عندما غطس، أنه يعرف السباحة. لقد تعرفنا إليه بعيد حرب الأيام الستة في منزل دافيد بن غوريون في كيبوتز سدي بوكر في صحراء النقب. والأسطورة تقول إن بيريز يدين بكل شيء لبن غوريون الذي أقله معه ذات يوم في سيارته بطريقة «الأوتوستوب» على الطريق من القدس إلى حيفا. ولا ينفي بيريز هذه القصة، ولكنه لا يؤكدها أيضاً.

ولد بيريز في ١٥ آب/أغسطس ١٩٢٣ في إحدى قرى روسيا البيضاء من أب يمتهن تجارة الخشب، وقدم إلى فلسطين في الحادية عشرة من عمره. وبعد سنوات المدرسة التحق بالكيبوتز، وهناك، وطبقاً دوماً لما تقوله الأسطورة، غازل سونيا، التي ستصير زوجته، قارئاً لها الرأسمال على ضوء شمعة أثناء نوبته في الحراسة. وسواء صحّت القصة أو لم تصح، فلا شك في أن شيمون بيريز يطالع كثيراً. وهو يقدر فرانسوا ميتران كثيراً، ويشعر بأنه ينتمي إلى نفس نادي القادة السياسيين المثقفين الذين يعرفون كيف «يمررون» نكتة أدبية أو يحللون «على الطاير» كتاباً حديث الصدور. إن قلة من الساسة الإسرائيليين يواصلون مثل بيريز تثقفهم. وهو يهوى الكتب التاريخية، والسير، ويعتبر نفسه تلميذاً لكلود ليفي ستروس الذي كثيراً ما يستشهد بكتاباته. وهو ممن يُرمى بالانتهازية مع الناس، ولكن ليس مع الأفكار.

كاشفنا بالقول:

- إن بن غوريون هو الذي علمني الوفاء للأفكار.

لقد كان مؤسس الدولة «الختيار» كما يلقبه الجميع بود، تجاوز الثمانين من العمر حين التقينا شيمون بيريز في داره.

وقد تطرق الحديث إلى الأراضي المحتلة، وسألناه عما إذا كان مستعداً لإعادتها مقابل السلم.

- مقابل السلم، يا صديقيّ الشابين، أنا على استعداد لإعادة الأراضي كلها. وحتى بالنسبة إلى القدس نستطيع أن نتدبر أمرنا بسهولة.

ـ هل أنت من أنصار إنشاء دولة فلسطينية؟

ـ عندما قررت الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ تقسيم فلسطين، قبلنا قرارها فوراً. كان هذا معناه أننا نقبل بإنشاء دولة فلسطينية إلى جانب دولتنا. ولقد كان عليّ ـ صدقاني، لم يكن الأمر سهلاً ـ أن آمر بتوجيه أسلحتنا إلى إخوتنا بالذات، إخوتنا في الإرغون، الذين ما كانوا يريدون أن يتخلوا عما يسمونه بالوطن التاريخي. إن العرب هم الذين منعوا إنشاء الدولة الفلسطينية، بمبادرتهم إلى شن القتال، وبضمهم، بعضهم الضفة الغربية، وبعضهم الآخر غزة.

واستذكر دافيد بن غوريون بعدئذ محادثة بعيدة العهد حفلت منذ ذلك الحين بضروب سوء التفاهم التي مازالت تمزق النفوس إلى يومنا هذا:

ـ في نيسان/ابريل ١٩٣٦، دار نقاش مطول بيني وبين قومي عربي كبير، جورج انطونيوس، وهو رجل عظيم الذكاء. سألته ما الذي يمنع من أن يتحد اليهود والعرب في النضال من أجل تحرير المنطقة. فمعاً، سيكون لنا بأس وقوة. فأجابني أن هذه فكرة طيبة، ولكن ذلك التحرير لن يؤدي في حال من الأحوال إلى إنشاء دولة يهودية، وذلك بكل بساطة لأن العرب يعتبرون هذه الأرض أرضهم ولسوف يقاتلون من أجل أن يحتفظوا بها.

فقلت له: «ولكن هذه الأرض، يا صديقي، تكاد تكون خاوية: مستنقعات في الشمال، والصحراء في الجنوب، وشريط ساحلي بالكاد مأهول. فأجاب انطونيوس مسلّماً: هذا صحيح، لكن أي شعب من الشعوب لا يناضل من أجل جيله وحده، فأبناؤه وأحفاده سيكونون بحاجة إلى هذه الأرض».

فشرحت له أن أرض إسرائيل هي، بالنسبة إلينا نحن اليهود، البلد الوحيد الممكن، البلد الوحيد الذي يرسي فيه التاريخ جذورنا، بينما تحوز الأمة العربية مساحات لامتناهية. لم يوافقني. فعنده أن كل قطعة من الأمة العربية لها هويتها الخاصة، وهي تريد أن تعيشها بصورة مستقلة. كما لم يوافقني عندما شرحت له أن وجود دولة يهودية في فلسطين لا يعرِّض للخطر الحضارة العربية ولا حريتها. فقد كان يخشى أن يُفضي وصول مئات الآلاف من المهاجرين

المتمرسين بالتكنولوجيا الغربية إلى تحويل السكان العرب إلى يد عاملة رخيصة الثمن.

سألته: «لماذا لا تثق بالأمة العربية؟ ألا تؤمن إذن بالطاقة البشرية والفكرية والاقتصادية للعالم العربي؟ لماذا لن يكون في مستطاعه، عندما يتحرر، أن يبلغ بسرعة إلى نفس مستوانا؟» فأجابني: «إنها مشكلة تربية. إن الكثيرين من اليهود الذين يأتون إلى هنا خارجون من الجامعات، بينما غالبية شعبنا خارجة للتو من الصحراء. وإلى أن نلحق بكم، فستكونون قد زرعتم دولة قوية تبادر إلى إملاء التعايش علينا. إن مطامع العرب ومطامح اليهود هي في نظرنا متنافية».

إنكما لتتصوران أنني ما كنت البتة أوافقه. بل كنت أعتقد أنه في وسعنا النضال معاً كيما نتحرر، قبل أن نتعاون سياسياً واقتصادياً من أجل خير شعبينا. وقد أوضحت له جيداً أن العودة إلى أرض إسرائيل ليست بالنسبة إلينا نزوة، بل مشكلة بقاء، مشكلة حياة أو موت. وحذرته من أننا آتون إلى هنا، بالتفاهم معهم أو بدونه، وإننا إذا خُيِّرنا بين المذابح في ألمانيا أو في بولونيا وبين المذابح في أرض إسرائيل، فإننا نختار مذابح هنا.

بيد إنني سألته في النهاية: «ما الداعي لأن نتقاتل؟ أليس من الأفيد للجميع أن نتصالح وأن نعيش جنباً إلى جنب؟».

مرَّر بن غوريون يده بين شعره الأبيض المشعث ونظر إلى كل منا بالتناوب كما لو أنه يسألنا عما نفعله هنا. ثم عاد إلى الحاضر وختم قائلاً:

ـ إذا كنتما ستذهبان لرؤية أصدقائكما في البلدان العربية، قولا لهم إنني مازلت من قلب النقب أطرح عليهم السؤال عينه الذي طرحته على انطونيوس قبل أكثر من ثلاثين سنة.

كثيراً ما عاود شيمون بيريز الكلام معنا حول ذلك اللقاء، وفي كل مرة كنا نقصد فيها بلداً عربياً كان يذكِّرنا بأنه يتعين علينا أن نطرح سؤال بن غوريون.

كان شيمون بيريز واعياً للمشكلة الفلسطينية، خلافاً لغولدا مائير. ولكنه

طالما اعتقد، مثله مثل كل الطبقة السياسية الإسرائيلية، أنه لا ينبغي له الكلام في السلم إلا مع الملك حسين. كان ينبذ فكرة سلم منفرد مع م.ت.ف.وقبل ثلاث سنوات من توقيع واشنطن، رفض أن ننظم له لقاء مع ياسر عرفات أو مع قائد فلسطيني آخر. كان يقول: «إنما مع الأردن ينبغي عقد السلم. وإنما إلى الأردنيين ينبغي أن ترد الأراضي، وعليهم هم أن يتدبروا أمرهم مع عرفات. وإذا كان الملك لا يستطيع أن يوقع وحده السلام معنا، فليأت إلى القدس بصحبة وفد فلسطيني». وكنا نعترض عليه بالقول بأن عرفات سيكون في أرجح الظن في عداده. ولكنه كان يتأمل أن لا، وعلى كل حال ما كان يعتقد بإمكانية ذلك.

متى غيَّر رأيه؟ إنه يتذكر التاريخ بدقة ٣١ تموز/يوليو ١٩٨٨. ففي ذلك اليوم أعلن الحسين ملك الأردن أنه يقطع «الروابط الإدارية والقضائية» مع الضفة العربية، وأنه يلغي أيضاً اتحاد ضفتي الأردن الذي كان أعلنه جده عبد الله عام ١٩٥٠. وهذا معناه أنه ترك الفلسطينيين والإسرائيليين وجهاً لوجه.

تلقى شيمون بيريز ذلك التصريح كصدمة. فالملك قد حطم الأمل الذي يداعبه العماليون الإسرائيليون منذ سنوات والذي اشتهر باسم «الخيار الأردني». وهذا مع أن الملك حسين وبيريز كانا قد اتفقا سراً في لندن قبيل ذلك، في نيسان/ابريل ١٩٨٧، على إطلاق عملية سلام. وكان لاتفاق كهذا أن يتوج حياة شيمون بيريز السياسية، لكن ها هو الأردن يعزف عن مناقشة المسألة الفلسطينية مع إسرائيل. وقد وجه الملك حسين إلى بيريز رسالة تأسُّف أعلن فيها دفن مشروعهما. ولم يبق أمامهما بعد الآن فصاعداً غير أن يتناقشا حول حدودهما المشتركة. ولقد اعتقد بيريز لأول وهلة، وقد فوجىء بمثل هذا التحول، بأن الأمر لا يعدو أن يكون مناورة سياسية. ولكنه أدرك خطأه عندما منع الملك حسين أنصاره من ترويج عرائض تطالبه بالرجوع عن قراره. إن بيريز رجل عملي، وهو يكون في أحسن أحواله عندما يكون مؤمناً بقضيته ـ وعلى هذا النحو تدين له إسرائيل بشبكة اتصالات ممتازة، وبتعميم المعلوماتية في

البلاد، وبمركز ديمونا النووي، وهـذا بدون الكـلام عن وضع حـد لتضخم جنـوني. وبعد ذلـك الفشل مـع الأردن، لم يبق من محاور «مقبـول» سـوى فلسطينيي الداخل، فلسطينيي الصمت. وقد بذل كثيراً من الجهود للاهتداء إلى أرضية للتفاهم.

ولكن بلا جدوى.

فتلك المنظمة الفلسـطينية التي أُبعـدت إلى تونس، والتي أراد الالتفـاف عليها، وقفت بكلية حضورها حاجزاً بينه وبينهم.

ـ لقد فهمت أنه لا بد من مواجهة الأساطير، وكان عرفات واحدة منها. ولم يكن أمامي بد من التسليم بأن مشاعري إزاءه لا يعتد بها، فهو يمثل بالنسبة إلى الفلسطينيين وسائر من كنا نتكلم وإياهم من العرب المحطة الإجبارية على طريق السلام. وعليه، وعندما سنحت الفرصة . . .

كنا مضطرين لأن ننحني إلى الأمام كي نسمع جيداً. فشيمون بيريز يتكلم بخفوت من حنجرته، فيكاد المرء لا يسمعه. والغريب في الأمر أن كلامه لا يغدو مفهومـاً بوضـوح إلا عندمـا «ينرفـز». أما في ذلـك اليوم، عشيـة عيد الغفران، فقد بدا ميالاً إلى المكاشفة.

لقد اعترف بأنه كان صعباً عليه أن يقرر مصافحة اليـد التي مدهـا إليه عرفات أمام عدسات التصوير في واشنطن. وقد همس رابين في أذنه ساخراً: «جاء دورك!». ولم يكن ثمة مناص. فعليه أن يصافح تلك اليد التي سلّحت قتلة أطفال معالوت، وتلك الممدودة التي تضمن السلام للكثير من الأطفـال الآخرين. . .

إن كل تبادل للحديث في إسرائيل لا بد أن يرافقه تناول لمشروبات مرطبة من جراء شدة الحرارة. وقد قطع بيريز تلك اللحظة الوجيزة التي أسلم فيها العنان لمشاعره ليأتي بعصير فواكـه من ثلاجتـه، ثم احتمى من جديـد خلف الوقائع، كما لو أن العواطف لا صلة لها البتة بالتاريخ.

إن سرده لقصة المفاوضات، بكل تقلباتها ومناوراتها، يمثل جزءاً هاماً من

هذا الكتاب. وقد روى تفاصيل كان يفترض به في أرجح الظن ألا يبوح بها - مثلاً كيف أثيرت مسألة أريحا. لعله فعل ذلك من قبيل الصداقة لنا. وربما أيضاً لأنه كان يحدثنا في حضور زوجته التي طالما ردد على مسامعنا أن رأيها يهمه، وفي حضور حفيدته - البالغة الثامنة عشرة - التي كانت ترمقه بعين جيل بكامله.

١٠

رابين يدخل المسرح

في مطلع أيار/مايو ١٩٩٣ قرّ عزم بيريز على إعلام رابين. كان ذلك، على حد تعبير أحد معاونيه، «قراراً اتخذه بلا فرح وأملاه عليه التسليم بالأمر الواقع». فقد بات مستحيلاً عليه بعد الآن «متابعة عزفه المنفرد».

لقد كان يحلم بأن يلعب الدور الأول، لكنه كان يعلم أن معظم الممثلين الذين لهم ضلع بالمسرحية يتمنون مشاركة رابين. بدءاً بعرفات. ففي نظر رئيس م.ت.ف. كان الجنرال ديغول نموذجاً يحتذى، وكان يرى أن عسكرياً له هيبته واحترامه هو وحده المؤهل لأن يفرض على الجيش والرأي العام الإسرائيليين حلاً متفاوضاً عليه.

تم اللقاء في عصر أحد الأيام. تولى رئيس مكتب رابين، وكان رجلاً قصيراً أسمر حلق شاربه للتو، إدخال بيريز إلى حجرة رئيس الوزراء. تبادل الرجلان تحية مقتضبة، حتى بدون أن يتصافحا، ثم جلسا وجهاً لوجه، وقد بقي رابين وراء مكتبه. كانت النوافذ تطل على أسوار القدس، التي كانت الشمس الغاربة تسلط عليها أشعتها الذهبية.

تكلم بيريز مطولاً، وكانت كل كلمة تكلفه غالياً كما لو أنه يتجرد شيئاً فشيئاً من سر لا يقدر بثمن. وكان رابين يصغي، ورأسه منحنٍ إلى الأمام قليلاً، وقسمات وجهه متجمدة. لم تنم أساريره عن أي انفعال. ترك بيريز يشرح كل

شيء بدون أن يطرح أي سؤال: هرشفلد وبونديك في أوسلو، التقدم المرموق الذي تم تحقيقه، مشروع الاتفاق الموقع مع م.ت.ف. «الرديء والجيد معاً، كما تعلم، مثل القصة الخالدة عن الزجاجة نصف المليئة أو نصف الفارغة».

حين أكمل وزير الخارجية عرضه، قال رابين بصوته الوئيد الأجش، وبدون أن يختفي ظاهر اللامبالاة من نظرته:

ـ إنني مطلع على كل شيء.

تلقى بيريز الضربة. بدا متبلبلاً، متشنج القسمات. كان يعتقد أن رابين سيقدر بادرته. فإذا به يجد نفسه وقد وقع في فخ، بل في موقف هو الأسوأ بلا جدال، موقف الناسج الدائم للمكائد.

كان رابين «يعلم»، هذا صحيح، ولكنه كان «يبلف» بإيحائه وكأن ما من شيء يمكن أن يفلت منه. فتقارير الاستخبارات، التي ينقلها إليه رئيس مكتبه، الرجل الحليق الشارب، كانت تمده، حسب تعبير أحد معاونيه، بـ «رؤية إجمالية للوحة، لكنها ما كانت تبين عن غنى التفاصيل».

في تلك اللحظة من المواجهة كان بيريز يجهل ذلك. واستخدم آخر ما بين يديه من حجج:

ـ اقرأ على الأقل النص، وقابل الشخصين اللذين قاما بالتفاوض.

فهز رابين رأسه نفياً وقال:

ـ إنني لمتشكك. إنني لا أعتقد حقاً أن عرفات مستعد لاتفاق معنا.

انصرف بيريز بعد أن أفلح، على كل حال، في انتزاع موعد، بعد ثلاثة أيام، لهرشفلد وبونديك وله.

وما أغرب سخرية التاريخ المليء بالمفارقات، فرابين ما كان يضع أي ثقة في الرجل الذي راهن بكل شيء عليه: ياسر عرفات.

وقد كان رئيس م.ت.ف. قد أسرّ لمبارك، أثناء مروره عند نهاية آذار/مارس بالقاهرة:

ـ كل شيء يسير على ما يرام، لكن لديّ مشكلة، إنني لست متأكداً بعد من أن رابين قد أعلم بوجود مفاوضات في النرويج.

فأجابه الرئيس المصري:

ـ سأطلب إلى سفيري في تل أبيب أن يقترح عليه موعداً.

بعد أربعة أيام التقى رئيس الوزراء الإسرائيلي والرئيس المصري في الاسماعيلية. راحا يستعرضان، وقد جلسا على كرسيين من الخيزران في شرفة مشمسة من القصر الرئاسي، تطور الوضع في المنطقة. في إحدى اللحظات توجه مبارك بالكلام إلى مخاطبه وقد بدا عليه الحرج:

ـ أود أن أسألك توضيحاً: هل أنت مطلع على المفاوضات الجارية في أوسلو؟

أجاب رابين باقتضابه المعهود:

ـ بلى بالتأكيد!

كان لهاتين الكلمتين، الملفوظتين بقوة، وقعهما على مبارك. فكلف مستشاره أسامة الباز بنقل الجواب إلى عرفات. وانتابت رئيس م.ت.ف. سورة غضب وزعق بالباز على الهاتف:

ـ لا أبالي إنْ كان على علم. ما أود أن أعلمه هو هل يوافق على تلك المفاوضات.

وتمخض الغموض الذي يلف هذه النقطة عن مسلسل مغامرات حقيقي. فقد بعث مبارك بالباز إلى إسرائيل للحصول على الايضاحات المطلوبة.

والتقى الباز مطولاً ببيريز. كان كل من الرجلين يعرف ويقدر الآخر منذ سنوات عديدة. ولم يكن بيريز بحاجة إلى من يشجعه كي يفيض في الكلام عن الاتصالات الجارية في أوسلو، التي كان يتتبعها مع ذلك عن بعد، وعزا إلى نفسه بالمناسبة الفضل الأكبر.

عند انتهاء المحادثة أبلغ الباز وزير الخارجية الإسرائيلي:

ـ حسناً، سأذهب الآن للقاء رابين لمعرفة هل هو على اطلاع أم لا.

فشحب وجه بيريز، وأجاب:

ـ دعني أهتم به، فأنا أعرفه وأعرف كيف آتيه.

فحدق فيه الباز وقد ثار عجبه:

ـ أرى أن النرفزة تعم الجميع...

ـ أؤكد لك...

كانت لهجة بيريز هذه المرة تنم عن أكثر من إلحاح: كانت «شبه مترجّية» على حد تعبير أحد شهود المحادثة.

ـ ... إذا التقيت رابين الآن فسوف تفسد كل شيء. عد إلى القاهرة ولا تعقّد الأشياء. إنني أضمن لك أن رابين سيوافق.

عاد أسامة الباز أدراجه إلى العاصمة المصرية، ومنها اتصل هاتفياً برابين. وقد أجابه هذا الأخير على ما قيل لنا: «إنني مطلع، لكني أنتظر جواب الأميركان».

إن للمرء أن يشك في صدق هذه الجملة. فإطلاع الولايات المتحدة لم يكن من أولويات رئيس الوزراء الإسرائيلي. ومن جهة أخرى، ما كان يداعب أحلاماً أكبر مما ينبغي حول جدوى ونجاعة مثل تلك الاتصالات. وقد كان، مثله مثل عرفات، قد أعطى منذ عدة أشهر موافقته على فتح أقنية سرية إسرائيلية ـ فلسطينية: فقد توجه مبعوثون من القدس، بحماية الموساد أحياناً، إلى نيويورك والقاهرة وباريس ولندن والرباط لملاقاة مسؤولين من م.ت.ف. أو شخصيات مفوضة من قبل المنظمة الفلسطينية. وقد جاءت النتائج المحرزة مخيبة تماماً للآمال. وفي نظر رابين ما كان لأوسلو أن تشكل استثناء.

وقد سجل سكرتير رئيس الوزراء على مفكرته في الساعة التاسعة من صبيحة يوم جمعة من شهر أيار/مايو: «موعد بيريز + ضيفين».

رافق هرشفلد وبونديك رئيس الدبلوماسية. لم يمحضهما رابين ثقته، ودار

الاجتماع بلا حرارة في البداية. فالأستاذان الجامعيان كانا في نظر رئيس الحكومة، الذي يؤمن بالصراع الأزلي بين الخير المطلق والشر المطلق، من رجال بيريز، ومن الآخذين بلا قيد أو شرط بأفكاره. وقد استمع إليهما بريبية، ولكن طرداً مع تبسطهما في الكلام ووصفهما سيكولوجية المفاوضين الفلسطينيين وتفصيلهما النتائج المحرزة، شرع انطباع غريب يتكون في ذهنه. كان لا يزال على عدم إيمانه بحسن نية عرفات، ولكنه لم يجد بدأ من التسليم بأن الحلول الوسط التي ارتضتها م.ت.ف. تمثل تقدماً. وفي نظر هذا الرجل الذرائعي، المعتاد على علاقات القوة، كانت تلك المرونة الطارئة على المواقف الفلسطينية بمثابة مؤشر على الضعف والبلبلة اللذين ينخران صفوف م.ت.ف. و «نافذة الهشاشة» هذه كانت تنفرج، في تقديره، عن فرص قابلة للتثمير. وحسب تعبير أحد معاونيه كان رابين هو «الرجل الأكثر قابلية لقراءة خبيئة نفسه والأقل قابلية للتنبؤ بردود فعله»..

وما كان لأي تعريف أن يكون أصدق من هذا في تلك اللحظة.

حينما انتهى هرشفلد وبونديك من الكلام، شكرهما رابين بلهجة مجاملة، بدون أن يصدر عنه أي تعليق، ورافقهما إلى باب مكتبه. ثم عاد أدراجه نحو بيريز.

ـ لا أؤمن بجدية الأمر كثيراً، لكن إذا كنت تريد المضي قدماً إلى الأمام، فأنا موافق.

ابتسم بيريز ابتسامة مقتضبة:

ـ علينا أن نسوي الآن نقطة مهمة.

رمقه رابين بحيرة:

ـ أي نقطة؟

ـ أعلمني النرويجيون أن م.ت.ف. تطلب أن تتابع المفاوضات بعد الآن مع مسؤول إسرائيلي رسمي. وهذا يبدو لي منطقياً.

ـ من تريد أن ترسل؟

بدا بيريز وكأنه فوجىء بالسؤال. ثم أجاب وكأنه ينطق بالبداهة بعينها:

ـ أعتقد أنه في مقدوري الذهاب إلى أوسلو.

انقبض وجه رابين فجأة:

ـ بصراحة، لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة. إنك تشغل منصباً أعلى مما هو مطلوب.

ودارت بينهما مواجهة مكتومة. وتابع رئيس الحكومة قائلاً:

ـ إن واجبنا الأول هو إبقاء المفاوضات قيد الكتمان وانتظار عودة الوفد الرسمي الفلسطيني إلى واشنطن. وعلينا أن نعمل بحيث نوحي وكأن كل ما أحرز في أوسلو قد تقرر في الواقع في العاصمة الأميركية. ومهما يكن من أمر، فإنك ملفت للأنظار أكثر مما ينبغي.

اقترح بيريز بلهجة آسفة:

ـ ما رأيك بأوري؟

ـ إنه لاختيار ممتاز.

كان أوري سافير، مثله مثل يوسي بيلن، ينتمي إلى المجموعة الصغيرة من معاوني بيريز. وهم يُلقبون في إسرائيل بـ «ذوي السترات الزرق» بسبب ربطات عنقهم وستراتهم الزرق الداكنة، كما بسبب هيئتهم كتقنوقراطيين ذوي نظارات. وكان سافير، البالغ من العمر أربعين، قد قطع في مساره الدبلوماسي شوطاً مرموقاً. فأبوه كان دبلوماسياً، وقد صار هو مستشاراً صحفياً لبيريز، ثم قنصلاً عاماً في نيويورك، قبل أن يتسلم قبل شهرين منصب المدير العام لوزارة الخارجية.

كان لامعاً، طموحاً، قادراً على خلب الألباب لفرض فكرته. وقد استدعاه شيمون بيريز فور انتهاء مقابلته مع رابين. ذهل سافير. فالمسؤولية التي ألقيت على عاتقه ساحقة. إنه سيكون أول مسؤول رسمي إسرائيلي يتفاوض مباشرة مع م.ت.ف.

بادر، أول ما بادر، إلى الاجتماع مطولاً بهرشفلد وبونديك. ودرس باهتمام شديد الوثيقة التي حملاها إليه. ونمّت تعليقاته عن روح نقدية قصوى وتأثر بالغ

في آن معاً. في إحدى لحظات النقاش قال للأستاذين:

- النص ليس سهلاً، إنه ينطوي على أشياء جيدة وسيئة. لا نستطيع أن نقبل كل شيء. عليهم أن يرتضوا بتعديلات. إن الوضع سيختلف من الآن فصاعداً عما كان عليه وهم يتفاوضون معكما.

وكان بيريز قد أسرَّ لمعاونيه: «لنترك أوري سافير يعمل. لقد وصلنا الآن إلى ساعة الحقيقة».

قبل أيام من سفره إلى النرويج ذهب مدير الوزارة الشاب، وقد تضاربت مشاعره إزاء أهمية الموضوع، لمقابلة والده. وكاشفه بتوجساته وبطبيعة المهمة التي تنتظره. استمع إليه والده بوقار، ثم وضع يديه على كتفيه وحدق في عينيه قائلاً بحزم:

- عليك بأي ثمن أن تغتنم هذه الفرصة للتفاوض على السلام.

كان التحدي بالنسبة إلى سافير سياسياً وشخصياً معاً. ولقد طلب إليه بيريز أن يطلعه يوماً فيوماً على مجرى المناقشات. أما رابين فقد أبدى اهتماماً أقل. وقد قابله سافير لمدة وجيزة، ولم يعطه رئيس الوزراء سوى توجيه واحد: «فصِّل المطالب الإسرائيلية أكثر».

في أيار/مايو توجه ياسر عرفات إلى فيينا حيث التقى عدداً من الصحفيين الإسرائيليين. لم يكذِّب خبر وجود مفاوضات سرية، لكنه ترك الأمور على إبهامها. وبالمقابل أشار بمنتهى الوضوح إلى فكرة انسحاب عسكري إسرائيلي من الأراضي المحتلة وإلى رغبته في الوصول إلى «سلم الشجعان». وأضاف: «لا نستطيع أن نتكلم فقط عن غزة. فلا بد أن نضيف إليها جزءاً من الضفة الغربية. أريحا مثلاً».

لم يلتقط محاوروه فحوى رسالته، لكن الإشارة المرسلة إلى رابين وبيريز كانت واضحة: فعرفات يؤكد من جديد رغبته في الوصول إلى اتفاق.

في ٢٠ أيار/مايو طار أوري سافير إلى أوسلو برفقة هرشفلد وبونديك. كان بيريز قد قرر أن يحتفظ بالرجلين تقديراً منه، عن حق، بأنهما نجحا في مدى خمسة

أشهر في كسب ثقة الفلسطينيين، وبأنه لا يجوز بالتالي تبديد هذا الجو باستبعادهما. وطبقاً للرواية الرسمية المذاعة، فإن سافير لم يغادر إسرائيل إلا لقضاء عطلة الأسبوع في مدينة «كان» الفرنسية. وما عدا أباه، لم يكن أي فرد من أفراد أسرته على علم بوجهة سفره، ولا حتى زوجته التي لم يبح لها بشيء.

عزز النرويجيون هذه المرة التدابير الأمنية. فقد كلف عشرة من رجال المباحث بتأمين حراسة دائمة للمتفاوضين، بينما تولت مفارز من رجال الشرطة، ممن جرى اختيارهم بعناية، لسد المنافذ إلى مختلف الأمكنة التي ستعقد فيها الاجتماعات. أما السيارات المستخدمة في النقل فستبقى، كما من قبل، مستأجرة، لكن المتفاوضين لن يمروا من الآن فصاعداً بحواجز الجمارك.

حينما وصل الإسرائيليون إلى أوسلو، عشية العشرين من أيار/مايو، بعد مرورهم بثلاث عواصم أوروبية على سبيل الترانزيت، استقبلهم لارسن واقتادهم للحال إلى دار واقعة في قلب الغابة، غير بعيد عن مدرج للتزلج.

انتظروا لعشر دقائق من الزمن وصول مونا يوول، زوجة لارسن، مصحوبة بالوفد الفلسطيني. وتقابل الرجال الستة وجهاً لوجه، في شبه حرج. كانت لحظة خارقة للمألوف بالنسبة إلى أعضاء م.ت.ف: فهذه هي المرة الأولى التي ترفع فيها الحكومة الإسرائيلية المحظورات كافة وتأذن لمسؤول رسمي بلقاء مسؤولين في المنظمة الفلسطينية بغرض إجراء مفاوضات عيانية.

وحرصاً على انفراج الجو بادر لارسن إلى أخذ الأمور بيديه. فقد شدّ أوري سافير نحو أبي العلاء قائلاً له: «اسمح لي بأن أقدم لك عدوك رقم واحد!». ثم تابع مردداً مع جميع المندوبين: «هوذا عدوك رقم اثنان»، ثم: «عدوك رقم ثلاثة». وآثار النرويجي بذلك عدة ضحكات متشنجة. ولسوف يقول لنا لاحقاً: «حاولت أن أدلل على روح دعابة خلافاً للأصول الدبلوماسية حتى أنزع عن الجو توتره». وقبل أن يحتبس أعضاء الوفدين في قاعة الاجتماع صاح بهم: «أو. كي، أيها الشباب، اخلعوا ستراتكم وشمروا عن سواعدكم». كان الجميع متجهمي

الوجوه، فلم تحدث الدعاية أثراً. والتحق لارسن، وقد تجهم بـدوره وجهه، بزوجته وأسرّ لها بالقول: «أعتقد أنني ارتكبت غلطة دبلوماسية مثلى».

وبعد ساعتين دلف إلى القاعـة، فوجـد الإسرائيليين والفلسـطينيين وقـد شمروا أكمامهم وفكوا ربطات عنقهم وانخرطوا في نقاش حار.

كان من رأي ياثير هرشفلد أن الإسرائيليين والفلسطينيين طوروا، خلال الأشهر المنصرمة، «طريقة معينة في الكلام، متحررة من الصياح والعدوانية». ولسوف يندمج أوري سافير للحال في هذا الجو. فطيلة مساء ذلك اليوم، ثم إلى ساعة متأخرة من الليل، سيستعرض هو وأبو العلاء وجهات نظرهما وسيقابلان بينها. وقد أفصح سافير عن أفكاره بحزم واعتدال. وعرض مواقف الحكـومة الإسرائيلية ودوافعها، وذكّـر محاوره بـأن الفريق القـائم على رأس السلطة في القدس «يرغب في وضع حد لـلاحتلال. ولكن لا منـاص من التقدم ببطء، بالاستناد إلى ثقة مشتركة وبادرات متبادلة». وأردف يقول: «إننا نريد أن نؤمن بـأنكم جادون. وعليـه، انسَ مؤقتاً فكـرة دولة فلسـطينية ومستقبـل القدس والمستعمرات الاستيطانية، لأننا لا نستطيع أن نتفاوض جدياً إلا بشرط أن تنحّوا جانباً هذه المسائل».

منذ نهاية الاجتماع الأول قبل الفلسطينيون بألا يثيروا مسألة مستقبل وضع القدس، على حين أن الصياغة الملتبسة للوثيقة التي تم إعدادها بمشاركة هرشفلد وبونديك كان يمكن أن توحي بأن القدس تؤلف جزءاً من خطة الحكم الذاتي.

ولسـوف تتـطور المبـارزة بـين أوري سـافـير وأبي العـلاء بسرعـة إلى ضرب من افتتان متبادل. وهذا مع أن كل شيء كان يفرّق بين الرجلين. فالإسرائيلي البالغ من العمر أربعين عاماً، والمولود من أسرة ميسورة والشاغل لوظيفـة مرمـوقة، أعجب بذكاء وبراعة ذلك المصرفي البالغ من العمر ستين عاماً والمتمرس بالعمل السري وبدقائق الدبلوماسية الشرق ـ أوسطية، ولسوف تجري معظم جلسات العمل، وتعدادها الإجمالي إحدى عشرة، ليلاً وفي الفترة الممتدة ما بين أيار/مايو وآب/اغسطس. وقد انصاع الإسرائيليون في نهاية المطاف لإيقاع الفلسطينيين:

الغداء في نحو الساعة ١٢ ظهراً، ثم مناقشات أولى حتى ساعة العشاء، أما الأشياء الجدية حقاً فما كانت تبدأ إلا نحو الحادية عشرة ليلاً لتنتهي في السادسة صباحاً. وكانت التوترات تبرز في غالب الأحيان حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً، عندما كان أحد الفريقين يبدي تصميمه على «كسر» الآخر. وطيلة تلك اللقاءات كان البعد السيكولوجي حاضراً بقوة. وفي الطرف الفلسطيني كان تقاسم الأدوار واضحاً للغاية: فأبو العلاء معتدل وذرائعي، بينما يتكلم مساعده حسن عصفور بلغة أكثر عدوانية. وكان يهتف أحياناً بالإسرائيليين:

ـ نحن لا نثق بكم، ولا نصدقكم. كل ما تبغونه هو اللعب بنا. إنها لمؤامرة!

كانت كل خطوة يخطوها أبو العلاء إلى الأمام أو يقدم بموجبها تنازلاً تواكبها مهاترات من هذا القبيل. وكانت العلاقات بين الوفدين تتأرجح، في ثنائية دائمة، بين إرادة المودة والكره العنيف الذي كان لا يفتأ يستيقظ وينفجر بين الحين والآخر.

ولقد لعب روح الدعابة دور محرك قوي في تخفيف تلك التوترات وفي تقديم الأشياء إلى الأمام. والواقع إن الإسرائيليين كانوا يعملون، أكثر حتى من جماعة م.ت.ف. تحت ضغط الاستعجال. فسافير، حرصاً منه على عدم لفت الانتباه بكثرة تنقلاته، ما كان يبقى في أوسلو إلا في «الويك إند». وكان يرجع إلى إسرائيل ليلة الأحد ليكون في مكتبه صباح الاثنين. ولسوف تثير هذه الغيبات المنتظمة على كل حال بداية أزمة، إذ إن زوجته ستتصور أنه على علاقة غرامية ما.

كان «الجو» على حد تعبير لارسن وزوجته اللذين كانا متواجدين باستمرار في حجرة ملاصقة، «يشبه الجو الذي ينشب داخل عصابة من الصبيان. فقد كان المتفاوضون ينتقلون على نحو مباغت من لحظات الحبور والقهقهة إلى لحظات برود وحقد».

ومما زاد في احتداد تلك العلاقات أن الفلسطينيين والإسرائيليين كانوا يعيشون وجهاً لوجه في جلسة مغلقة دائماً، ويتشاطرون وجبات الطعام

والأحاديث الليلية والنزهات في الحرج المجاور، ويتبادلون عبارات مرموزة من قبيل:

ـ هل حدَّث أبـوك جدك عن هذا الموضوع؟

ـ بلى، والابن قال لنا بالأمس إنه يحبذ عقد اجتماع آخر.

وكان جرس الهاتف يدق في كل آناء النهار، وعلى الأخص ليلاً. وكثيراً ما كان النرويجيان يستيقظان في الساعة الرابعة صباحاً على مكالمات هاتفية آتية من مقر م.ت.ف. في تونس.

يروي لارسن قائلاً:

ـ بـلغ من حنقي مرة أنني نزعت سلك الخط الهاتفي حتى أتمكن من النوم بهدوء لبضع ساعات.

كان التقدم سريعاً في المسائل الاقتصادية، وبطيئاً وأكثر صعوبة في مسائل الأمن. وعلى حد قول ماريان هايبرغ، التي تعمل كمساعدة للزوجين لارسن، «مـا كانت الخـطط الحمر المـرسومـة في رؤوس المفاوضـين تترك مجـالاً فسيحاً للتقدم».

حينما افترق الوفدان في ٢٢ أيار/مايو، تم الاتفاق عـلى طريقـة إجرائيـة لتنظيم الاجتماع القادم. فكل فريق سيعود إلى «جده» (الاسم المعطى لكل من عرفات ورابين)، وما إن يحدد هذان موقفهما حتى يتولى لارسن تعيين موعد جديد للقاء بالهاتف.

وجه أوري سافير، في الطائرة العائدة بهم إلى إسرائيل، الثناء إلى زميليه في فريق العمل:

ـ إنها المرة الأولى التي إشارك فيها في فريق إسرائيلي متفاهم فيما بينه.

كان صدق هذا المديح نسبياً. فهرشفلد وبونديك معاونان لا غبار عليهما، ولكن التفاوض بلغ درجة من التعقيد لم تترك لهما من دور غير دور الممثل الثانوي الصامت.

ولقد بات سافير مقتنعاً بأنه لا بد من الآن فصاعداً من رجل جديـد إلى جانبه، رجل متمرس بالمراحل الحسّاسة من العملية التفاوضية وقادر على سبك الاتفاق المقبل في إطار قانوني دقيق. فالكثير من النقاط قد بقيت مبهمة، ومن شأن التباسات كهذه أن تحدث مشاكل شديدة الوطأة عندما يتقرّر وضع النص موضع التطبيق.

وكان سافير، طيلة ساعات نقاشه مع أبي العلاء، قد استرعت انتباهه نقطة تفصيلية تبعث على القلق: فالمسؤول الفلسطيني كان يبدو أكثر انشغالاً بالعلاقات مع إسرائيل منه بالواقع اليومي في الأراضي المحتلة حيث تتراكم بالمئات، مـع ذلك، المشكلات التي تتطلب حلاً عاجلاً.

عند وصول الطائرة إلى تل أبيب، كان قراره قد أبرم. وكان شيمون بيريز قد عاد للتو من طوكيو. والتقى سافير بيوسي بيلن أولاً، ثم قصد الرجلان دار وزير الخارجية. وأبدى بيريز ارتياحه للبيان الذي قدمه له معاونه. بيد أن سافير ختم عرضه بالقول:

ـ إننا بحاجة الآن إلى شخص قادر على أن يزن التفاصيل كافة. لا بد لنا من قانوني بارع للغاية يمرر كل بنود الاتفاق على أشعة اللايزر ويكشف أمر كل شذوذ مهما دقّ. وعندي فكرة عمن يمكن أن يكون هذا الرجل.

رمقه بيريز بنظرة شبه هازئة:

ـ ما اسم طائر الفينيق هذا؟

ـ يوئيل سنجر.

فمطّ بيريز شفتيه موافقاً:

ـ إنه لأحسن الاختيارات. أعتقد أن رابين سيوافق.

١١

«الوصفة مُشهِّية، لكن الطهو فاشل!»

في الساعة التاسعة والربع من صبيحة يوم ٢٤ أيار/مايو وصل يوئيل سنجر إلى مكتبه الكائن في قلب العاصمة الأميركية واشنطن. كان سنجر رجلاً يحب الاستيقاظ مبكراً. وكان هذا الاختصاصي في القانون الدولي يعمل منذ عام ١٩٨٩ لدى ماكس كمبلمان، وهو صاحب واحد من أكبر مكاتب المحاماة في واشنطن. وكان كمبلمان مكلفاً بتمثيل مصالح وزارة الدفاع الإسرائيلية ومصالح سفارة الدولة العبرية في العاصمة الأميركية. وفي الواقع، كان يوئيل سنجر متقاعداً. فهذا الإسرائيلي النحيف الطويل القامة، ذو النظرة الحادة والساخرة، كان قد استقال من الجيش في سن التاسعة والثلاثين بعد أن وصل إلى رتبة كولونيل. ولطالما كان يفضل، وهو ابن ممثل مسرحي، أن يعمل من وراء الكواليس، حيث كان يدلل على فاعلية مرموقة.

ومنذ نهاية حرب يوم الغفران، في تشرين الأول/اوكتوبر ١٩٧٣، شارك في جميع المفاوضات الدولية ذات الشأن التي كانت إسرائيل طرفاً فيها. وفي عام ١٩٧٤ شارك في صياغة اتفاق فك الاشتباك مع مصر وسورية، ثم في مناقشات كمب ديفيد عام ١٩٧٨، وأخيراً في مفاوضات معاهدة السلم التي تم توقيعها بعد عام في القاهرة.

ومن ١٩٧٩ إلى ١٩٨٢ مثّل القوات المسلحة الإسرائيلية في مناقشات الحكم

الذاتي التي دارت يومئذ بين إسرائيل ومصر والولايات المتحدة.

وفي عام ١٩٨٣ تفاوض على اتفاق الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، ثم على اتفاق إنشاء قوة من المراقبين المتعددي الجنسيات في سيناء.

وكان هذا السجل الحافل يكفل له من جانب المسؤولين السياسيين اعجاباً لامشروطاً.

يقول أحد معاونيه: «كان سنجر هو حقاً ذلك الطائر النادر صاحب الريش الخارق للمألوف، ولعله كان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يجمع في الرأي بين رابين وبيريز».

وكان بالفعل قد عمل بالتعاون الوثيق مع رئيس الوزراء حينما ترأس الحكومة في عام ١٩٧٤، ثم حينما شغل منصب وزير الدفاع، كما تعاون مع بيريز حينما شغل هذا الأخير منصب وزير الخارجية في العام ١٩٨٦.

وفضلاً عن ذلك كان سنجر يتمتع بميزة أخيرة وأساسية: معرفته التامة بالأراضي المحتلة. فبصفته مسؤولاً قانونياً عن الضفة الغربية وغزة، كانت له اجتهادات في التشريع، كما حرر عدداً من المذكرات القضائية حول مشروعية الأعمال الإسرائيلية في الأراضي المحتلة.

وعلى حد قول أحد الذين عملوا معه «كان سنجر يشبه الفنان القادر على 'إلباس' أي اتفاق كان لباساً قانونياً بمثل البراعة التي 'يُلْبِس' بها خياط كبير حسناء مشهورة من حسناوات المجتمع».

في الساعة العاشرة من صبيحة يوم ٢٤ أيار/مايو كان «الفنان» غاطساً في أحد الملفات عندما تلقى مكالمة مستعجلة من القدس. قال له الرجل الذي يكلمه على الخط بلا مقدمات:

ـ يجب أن تعود إلى البلاد حالاً.

ـ لماذا؟

ـ لا نستطيع أن نوضح لك، لكن عليك أن تستقل أول طائرة مقلعة إلى

إسرائيل. إنني أكلمك باسم رئيس الوزراء ووزير الخارجية اللذين قرر كلاهما أن يدرسا بعض الوثائق التي يريدان أن يعرفا بصددها رأيك القانوني.

رد سنجر قائلاً:

ـ موافق. إنني آتٍ.

قال الرجل على الخط:

ـ نقطة أخيرة. حال وصولك، وقبل أن تأتـي إلى الموعد، مرَّ عـلى فندق هلتون. ثمة غرفة قد حجزت لك. وسيكون في انتظارك في قاعة الفندق الرئيسية رجل. وسيريك شيئاً ما. فتفحصه بعناية.

ألغى سنجر مواعيده كافة واتصل هاتفياً بمـاكس كمبلمان ليبلغه بـوجوب سفره. وقد تذرع بمشكلة عائلية. واستقل طائرة أقلعت ليلاً من نيويورك. وعند وصوله إلى تل أبيب صباحاً قصد، على ما هو عليه من تعب، فندق هلتون. وعند مكتب الاستقبال اقترب منه، على حد تعبيره، رجل «غريب»: غليظ الجثة وملتحٍ ويتكلم بصوت خافت كما لو أنه «متآمر». قال:

ـ صباح الخير. إنني أدعى ياثير هرشفلد.

اتجها نحو القاعة حيث جلسا في إحدى زواياها وناوله الأستاذ نصاً مضروباً على الآلة الكاتبة وهو يهمس: «هـذا اتفاق أعددناه مع م.ت.ف. حبذا لو كان في إمكانك أن تقرأه...».

بدا الموقف لسنجر غاية في اللاواقعية. إن الرجل يطلب منه أن يفحص وثيقة فائقة السرية، على طاولة في زاوية من قاعة الفندق، بمحاذاة من الزبائن الذين كانوا يدخلون ويخرجون. نظر إلى ساعته. لا يزال أمامه نصف ساعة قبل موعده مع يوسي بيلن وأوري سافير. وكان هرشفلد، الجالس أمامـه، لا يفتأ يمشط لحيته بأصابعه وقد بدا في نظرته القلق. وكان بيلـن قد أخـطره بالأمس بعبارة مقتضبة: «سنذهب للقاء بيريز على موعد، لكن ينبغي أولاً أن تذهب إلى فندق هلتون لتقرأ نصك على رجل يُدعى سنجر. إنه اختصاصي قانوني».

رفع المحامي رأسه:

ـ لكن ثمة خمس وعشرون صفحة، هذا طويل جداً. قل لي ما لب المسألة.

تكلم هرشفلد على مدى عشر دقائق، ثم قاطعه سنجر:

ـ فهمت. . . سأقرأ.

بعد خمس عشرة دقيقة حدق، وقد انتهى من القراءة، في هرشفلد ملياً، ثم قال:

ـ هذه الوثيقة رديئة للغاية. وفي الواقع، إنها مثل طبق كاتو لم ينضج. الوصفة مشهِّية، لكن الطهو فاشل تماماً.

مال هرشفلد نحوه:

ـ إذا كنت تقدِّر أن الوصفة معقولة، فعليك أنت أن تحاول طهو الكاتو.

نهض سنجر واقفاً:

ـ لست أجد في الموضوع كبير إغراء. اعذرني، فعليّ الآن أن أذهب. فعندي موعد.

قصد المحامي وزارة الخارجية، حيث كان في انتظاره يوسي بيلن وأوري سافير. سأله حالاً مدير الوزارة باسماً:

ـ هل اطلعت على النص؟

ـ أجل. أعتقد أنه نص رديء للغاية بالنسبة إلى إسرائيل.

وقد كاشفنا سنجر في وقت لاحق قائلاً: «في الواقع، كنت على وشك أن أقول لهم إنه من الأفضل رميه في سلة المهملات، لأنه كان بصراحة في منتهى الرداءة».

وبدت الخيبة والحيرة على محاوريه، وقال سافير:

ـ لكن م.ت.ف. زودتنا بجميع التفسيرات الشفهية التي طلبناها.

أجاب سنجر:

ـ على رسلك، التفسيرات التي تشير إليها قد تكون مثيرة جداً للاهتمام، لكن الوثيقة التي قرأتها رهيبة.

خيم على الغرفة صمت ثقيل. ووجه بيلن كلامه، وقد بدا عليه التعب، إلى سنجر:

ـ حسناً، لنذهب للقاء شيمون. إنه ينتظرنا.

وكان أول سؤال طرحه بيريز:

ـ إذن ما رأيك؟

ـ عمل من قفا اليد!

لم يظهر الوزير انفعالاً، إذ كان معتاداً على لغة المحامي اللاذعة.

ـ لكن في وسعنا أن نوقعه من حيث هو محض اتفاق؟

ـ لا تفكر بذلك!

وسيقول لنا سنجر لاحقاً: «في الواقع، وبصفتهم سياسيين فإنهم ما كانوا يعرفون حقاً ما تعنيه تلك الوثيقة. فلم تكن لهم خبرة بالموضوع، وما كانوا يعيرون التفاصيل اهتماماً».

سأله بيريز:

ـ هل بوسعك تحرير ملاحظاتك كتابة وتسليمها إليّ غداً صباحاً؟

حبس سنجر نفسه في غرفته بالفندق، وسوّد عدة صفحات من ورق الرسائل التي تحمل في رأسها شعار الهلتون. وحرص على المزيد من التدقيق في تحليله. فالوثيقة «على رداءتها» كانت تتضمن نقطة ايجابية واحدة على الأقل: فظاهر للعيان أن م.ت.ف. تبنت موقفاً مختلفاً وأكثر مرونة من ذاك الذي دافع عنه وفدها في واشنطن. ولا شك أن التسوية «التدرجية» للمشكلات تشكل مقاربة جديدة.

بعد أن أوصل سنجر تقريره سافر في اليوم نفسه عائداً إلى واشنطن «مقتنعاً بأن القصة ستقف عند هذا الحد ولن يكون لها ما بعدها». ولكنه ما كاد يصل إلى مكتبه حتى تلقى من جديد مكالمة هاتفية من القدس. وأبلغه الصوت الغفل نفسه فحوى رسالة مقتضبة:

ـ عد حالاً.

روى لنا: «طرت ثانية إلى إسرائيل، وقد اضطررت إلى تلفيق قصة لا تصدق لأبرر بها لدى المكتب سفري».

في مطار اللد، صباح الجمعة، كانت في انتظاره سيارة لتحمله إلى شيمون بيريز. وبدا الوزير متشنجاً:

ـ قرأ رابين الوثيقة وهو يقدّر، مثلك، أنها رديئة للغاية. لكنه يريد أن يكلمك في الموضوع.

ولسوف تستمر المحادثة بين الرجال الثلاثة زهاء ساعتين. وقد بدأ رئيس الحكومة بطرح سؤال على سنجر:

ـ ما رأيك في التفسيرات الشفهية التي قدمها الفلسطينيون؟

ـ إنها قد تشكل عنصراً واعداً.

واستعرض سنجر ورابين وبيريز واحدة واحدة جميع النقاط الخلافية في الوثيقة، والضمانات الشفهية المقدمة من وفد م.ت.ف. وفي نهاية الاجتماع قال رابين لسنجر:

ـ إنني آذن لك بالذهاب إلى النرويج للقائهم ومناقشتهم.

وقد قال لنا أوري سافير: «لقد بدأ رابين يفهم شيئاً فشيئاً أن عرفات هو المفتاح، في خير الأمور وشرها على حد سواء. مفتاح تطور العلاقات الإسرائيلية ـ الفلسطينية، ولكن كذلك، وبصورة ما، مفتاح العلاقات الإسرائيلية ـ العربية».

وحبس المحامي نفسه، طيلة نهاية الأسبوع، في أحد مكاتب وزارة الخارجية، تحيط به كدسة هائلة من الملفات. وطلب أن تحمل إليه المحاضر الكاملة لجميع المناقشات مع م.ت.ف. ابتداءً من مؤتمر مدريد في تشرين الأول/اوكتوبر ١٩٩١ وانتهاء بآخر اجتماع عقد في واشنطن.

وفلَّى المناقشات دقيقة دقيقة. عمل مضجر ومنهك. قال لنا لاحقاً: «لا شيء، لا شيء على الاطلاق خرج من تلك العشرين شهراً من المفاوضات.

لكن هذه القراءة أتاحت لي الفرصة لأفهم ما يريد كل فريق أن يقوله. وقد أعدت أيضاً بناء الأشياء انطلاقاً من تجربتي الخاصة، ومما أفدته من المفاوضات السابقة حول الحكم الذاتي».

بعد انتهائه من مطالعة كدسة الملفات وضع على الورق مجموعة من مئات الأسئلة برسم م.ت.ف.

وفي ١٤ حزيران/يونيو، طار إلى النرويج برفقة سافير وهرشفلد.

حين التقى الوفدان من جديد في فيلا توماس هفتست، في أعالي أوسلو، ما كان أي من المشاركين ليشتبه بأن المناقشات ستمتد إلى ٢٠ آب/اغسطس، أي إجمالياً زهاء مئتي ساعة تفاوض. وجرى اللقاء الأول متوتراً ومنهكاً للقوى. ودام نهارين وليلتين، بلا توقف عملياً. وكان وصول سنجر بمثابة صدمة للفلسطينيين. فهم يعلمون أنه عمل خمس سنوات لصالح رابين وأنه يتمتع بالثقة التامة لرئيس الوزراء. وكان ذلك، بالنسبة إلى م.ت.ف. بمثابة تقدم مهم ودليل على أن رئيس الحكومة الإسرائيلية قد بات بدوره ضالعاً في العملية. كما غدا الفلسطينيون على اقتناع بأن المفاوضات تقترب من نهايتها. ولكن هذا الوهم سرعان ما سيبدده سنجر بقسوة، مستعيداً الأشياء من الصفر.

وقد قال لنا حسن عصفور، معاون أبي العلاء: «إن الحوار مع سافير لم يكن سهلاً، ولكن لم يكن ثمة تعقيدات. وقد برزت الصعوبات مع سنجر. إذا بدأ، أول ما بدأ، بقصفنا بالأسئلة: أكثر من أربعين سؤالاً بالإجمال. لكأننا أمام استجواب حقيقي يقوم به مفتش شرطة. لم يكن في الأمر ما يستساغ».

وعلق أبو العلاء بشيء من الغيظ:

ـ لا أحب هذه الأساليب. ماذا، أنحن أمام امتحان أو اختبار؟

لقد طرح المحامي، الذي كان على معرفة تامة بالحياة في الأراضي المحتلة، أسئلة عينية: «كيف ستتطرقون إلى مشكلة التربية؟ من سيكون مسؤولاً عن هذا القطاع؟ كيف ستقتطعون الضرائب؟». أو كذلك: «كيف ستؤمّنون الشغل للفلسطينيين الذين يعملون اليوم في إسرائيل؟».

وبعد انقضاء لحظات تعكُّر المزاج الأولى حاول أبو العلاء أن يجيب على الأسئلة بهدوء ودقة. قال: «كنت أشعر أن تلك لحظة مهمة. وطبقاً لمعلوماتنا كان رابين لا يزال يتردد في وضع ثقته في م.ت.ف. ولم نكن نحن أيضاً مقتنعين».

ولسوف يترك الفلسطيني انطباعاً عميقاً لدى سنجر، مثلما كان من قبل قد مارس جاذبيته على سافير. ولقد أسرّ لنا المحامي بالقول: «كان في تقديري رجلاً صادقاً، رغم كل الحيل وكل الأفخاخ التي نصبناها لبعضنا أثناء المفاوضات. لقد كان واحداً من العوامل الأساسية التي حدت بي إلى التفكير بأن م.ت.ف. جادة فعلاً. كنت أقدِّر ذرائعيته، طريقته العينية، في تناول المشكلات بدلاً من الكلام في الأيديولوجيا وقرارات الأمم المتحدة والمبادىء الكبيرة».

أما حسن عصفور فقد استمر يستخدم كلمات عنيفة ليوازن واقعية أبي العلاء. فعندما كان هذا الأخير مستغرقاً في وصف مستقبل الإدارة في قطاع غزة، رداً على أسئلة سنجر، قاطعه عصفور على حين غرة قائلاً:

ـ إنَّ أبا العلاء لا يعرف شيئاً من شيء. إنني آتٍ من شوارع غزة وأعرف ما يجري فيها. إنني لا أصدقكم. لقد عاش هو في العربية السعودية، وليس له بالمشكلة معرفة.

ومع ذلك، ولقاء بعد لقاء، راح عصفور يلينُ هو الآخر مواقفه ويقتنع بالإرادة الحسنة للإسرائيليين. ولسوف يجعل أبا مازن، الذي كان من المقربين إليه، يشاطره هذا الشعور. ولسوف يعمل الرجل الثاني في م.ت.ف. بدوره على إقناع عرفات.

مع ذلك لم يكن أي شيء قد حسم بعد في مطلع شهر حزيران/يونيو.

فقد عاد سنجر إلى إسرائيل ونقل ما توصل إليه من استنتاجات إلى رابين وبيريز. كان من رأيه أن م.ت.ف. صادقة فعلاً في رغبتها في التفاوض، وانه لا بد من مواصلة السير على هذه الطريق التي «قد تقود إلى تنازلات حيوية من جانب الفلسطينيين». وكان لهذا التقرير عند رابين، وقع الصدمة.

فطبقاً لما قاله مراقب إسرائيلي يعرف كلا الرجلين معرفة جيدة: «على حين أن بيريز يتطور بالتدريج، مرحلة بعد مرحلة، من خلال رؤية بعيدة المدى، فإن رابين لا يتغير إلا إذا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام البداهة». وذلك ما حدث فعلاً. فتحليلات سنجر، الذي كان يثق فيه ثقة تامة، كانت بمثابة كلمة السر التي فتحت مغاليق قلبه. فهو مستعد من الآن فصاعداً للتفاوض مع م. ت. ف. ولسوف يعترف بالقول لاحقاً: «ما كنت لأترك بيريز يمضي إلى أبعد من ذلك لو أن تقييم يوئيل جاء سلبياً».

طلب إلى المحامي أن يحرر صيغة لمشروع الاتفاق ليجري تقديمها إلى اجتماع أوسلو القادم. ورحل سنجر إلى واشنطن، ووضع صيغة مطابقة مئة بالمئة للمواقف الإسرائيلية. وكان القصد الأول بالنسبة إليه أن يقدم أساساً للمفاوضات. وبعد عشرة أيام رجع إلى إسرائيل وقدم النص إلى رابين الذي أجرى عليه تعديلات طفيفة للغاية.

عندما اطلع الفلسطينيون على الوثيقة، كادوا، كما يروي أوري سافير، أن «يسقطوا مغمى عليهم. فقد كانت صعوبات كأداء تواجه احتمالات تطبيقه في تقديرهم، وقضينا نحواً من ستين ساعة متصلة كيما نحدد النقاط التي نستطيع أن نقدم بخصوصها تنازلات».

استمرت المناقشات ثلاثة نهارات وثلاث ليالٍ، بلا انقطاع عملياً. ووجد يائير هرشفلد نفسه، مثله مثل بونديك، وقد تقلص دوره إلى مجرد مسجل للملاحظات، بدون أن يمنعه ذلك من الافتتان ببراعة السجال الدائر بين سنجر وأبي العلاء.

ولسوف يقول لنا:

ـ لقد كنا، نحن، معماريي المشروع. وكنا نعرف ماذا سيشبه في بنائه. أما يوئيل فكان مهندسه. كان يحسب بدقة كمية الفولاذ والاسمنت اللازمة، وكذلك المجاري والوصلات الواجب تركيبها. كان يصوغ أسئلة عملية للغاية، ويطرح حلولاً قانونية ما كانت لتدور لأبي العلاء، الذي عاش في الخارج،

في بال. وقد فهم هذا الأخير أنه يتعين على م.ت.ف. أن تقدم، بصدد عدد من المسائل، تنازلات أوسع.

كان أعضاء الوفدين ينزلون في فندق في ضواحي أوسلو، تحت أسماء مستعارة. وبعد سهر ليلتين بلا نوم، نزل هرشفلد إلى قاعة الاستقبال.

- أريد مفتاح الغرفة ٢٢٥.

فسألته الصبية التي وراء المنضدة:

- ما اسمك؟

فجحظ الرجل الملتحي الغليظ الجثة عينيه وأجاب، وقد تبلد ذهنه من التعب:

- لم أعد أذكر اسمي.

بعد جلسات طويلة متماثلة، أمكن الاهتداء إلى حل وسط. فسافير وسنجر قد انطلقا من موقف متطرف، ثم خففا شيئاً فشيئاً من تطرفهما. وفي الواقع، كان المحامي قد أعد مشروعاً آخر، أكثر تدقيقاً في التفاصيل، دمج فيه المطالب الإسرائيلية والفلسطينية. وقد أوضح سنجر للفلسطينيين أنه أدرج في مشروعه عدداً لا بأس به من التوضيحات الشفهية التي كانوا قدموها له في أثناء اللقاءات السابقة. ولم يبقَ من نقاط الخلاف سوى خمس.

في أثناء تلك الأيام الثلاثة بلياليها ما انفك المندوبون عن الاتصال هاتفياً بإسرائيل وتونس. وقد لزم بيريز باستمرار الجانب الآخر من الخط. أما أبو العلاء وحسن عصفور فكانا يطلبان باستمرار «الوكالة اليهودية» وهذا الإسم كناية عن مبنى صغير في العاصمة التونسية يقم في الرقم ٩ من شارع أحمد بوكاري، على بعد مئة وخمسين متراً من فيلا عرفات. وفيه تتواجد مكاتب الرجل الثاني في م. ت. ف. أبي مازن، الذي يتولى الإشراف على دائرة الشؤون الإسرائيلية.

وافترق الوفدان وهما يحملان في حقائبهما اليدوية مشروع الاتفاق.

في القدس كان بيريز قد بات مقتنعاً بأن ساعة الوصول إلى حل قد اقتربت فعلاً هذه المرة. وفي ١٦ حزيران/يونيو توجه إلى فيينا ليشارك في مؤتمر الأمم

المتحدة حول حقوق الإنسان. ودارت محادثة مطولة بينه وبين اندريى كوزيريف، وزير الخارجية الروسي وأبلغه الرسالة التالية: «اتصل بعرفات وقل له إننا جادون ومصممون».

وبعد ثلاثة أيام حمل إليه سفير روسيا في إسرائيل جواب رئيس م. ت. ف: «إننا لراضون».

وقرر شيمون بيريز على الأثر أن يبعث إلى القاهرة بنمرود نوفيك، المختص بالمهام الشائكة. ولسوف يلتقي رجل الأعمال الغني هذا مطولاً بأسامة الباز يوم ١٩ حزيران/يونيو. وعلى مدى ساعات سيستعرض الاسرائيلي والمستشار الخاص للرئيس مبارك مختلف النقاط المتنازع عليها. ومنها بوجه خاص المطلب الفلسطيني المتعلق بطريق يصل غزة بأريحا. لكن نوفيك لم تلن له قناة.

فقال له الباز وقد كاد ينفد صبره:

ـ علينا أن نكون خلّاقين! لا بد من أن نجد حلاً، وسيلة لربط المنطقتين.
إنني متفق معك، إن مثل هذا الممر لا يمكن أن يتمتع بصفة الحصانة الدولية، ولا مناص من أن يواصل الجيش الإسرائيلي مراقبة طرفي الطريق. لكن لنهتد إلى تسوية مقبولة من كلا الجانبين.

وغاب أسامة الباز ثلاث ساعات ليستشير عرفات الذي كان متواجداً يومئذ في القاهرة. وخلافاً لما قيل وكتب، فإن نوفيك لم يرفض لقاء زعيم م.ت.ف. وقد أسرَّ إلينا بالقول: «ما ساورني قط هذا النوع من الحظر الايديولوجي».

عند عودته استأنف الباز النقاش مع نوفيك زهاء ساعتين أخريين. ولسوف يلعب رجل الأعمال دوراً مهماً بصدد نقطة معينة: فـ «ميرتز»، هو أحد أحزاب الائتلاف الحاكم في القدس، يدعو إلى حل متفاوض عليه. وكان الباز والفلسطينيون مقتنعين بأن هذا الحزب سيتخذ موقفاً أكثر مرونة من موقف حزب العمل. لكن نوفيك حسم الموقف بقوله: «لا تعللوا أنفسكم بالأوهام. فلا بصدد قضية الطريق، ولا بصدد وضع القدس، يمكن أن يقوم أي خلاف بين أعضاء الائتلاف».

وأشار الباز، في معرض نقله لمطالب عرفات، إلى أن رئيس م.ت.ف.

يتمنى أيضاً لو تكون له سلطة مراقبة نقاط الدخول إلى غزة، وكذلك الجسور على نهر الأردن، وخاصة جسر اللنبي الذي هو نقطة العبور إلى الأردن. ولكن نوفيك قابل هذا الاقتراح أيضاً بالرفض.

على أن اللقاء التالي في النرويج سيأتي هذه المرة صدمة للإسرائيليين. فقد كانوا يتوقعون أن تجري مناقشة نقاط خمس لا تزال موضع خلاف، اقتناعاً منهم بأن الاتفاق في مجمله قد حظي بموافقة قيادة م.ت.ف. والحال أن الوفد الفلسطيني وضع على الطاولة مشروعاً جديداً تماماً يضم نحواً من عشرين نقطة ما أثيرت قط إلى ذلك اليوم.

وانسحب الإسرائيليون لفحص الوثيقة. كانت مصاغة بكيفية ولهجة هما غير تينك اللتين استخدمهما أبو العلاء حتى ذلك الحين. ورجَّح كل من سافير وسنجر أن قيادة م.ت.ف. قد تنصلت من رئيس دائرتها الاقتصادية لأنه تبنى مواقف مرنة أكثر مما ينبغي. وعاد الإسرائيليون أدراجهم إلى قاعة الاجتماع، وبادر سافير إلى مصارحة محاوريه المذهولين بقوله «بلهجة باردة وبعيدة عن الانفعال» على حد ما وصفها هرشفلد:

ـ هذا أسلوب معروف من أساليب م.ت.ف. التي لا تتردد أبداً في أن تترك الفرص الجيدة تفلت من يدها. وفي الحقيقة، إنكم لا تبالون بمصير سكان الأراضي المحتلة، وتؤكدون، ويا للأسف، كل الشكوك التي يمكن أن تخالج المرء بصدد نياتكم.

ورد أبو العلاء وقد انقبض وجهه المنفرج والباسم في العادة:

ـ إننا نتصرف مثلكم. فعندما قدم يوئيل سنجر طلبتم أن نعيد المفاوضات من بدايتها عملياً. وقد قبلنا.

فقاطعه المحامي:

ـ لكن ثمة فرقاً كبيراً. فحتى قدومي وقدوم أوري سافير، لم يكن أي تفاوض رسمي قد بدأ بعد. فقد كنتما تتحدثان إلى أستاذين جامعيين، لا أكثر. ثم إننا في المرة الأخيرة قد اتفقنا جميعنا على خطة. ولقد اعطيتم هذا المشروع

تأييدكم.

توترت اللهجة وتصادمت الأقوال المتبادلة. وقال حسن عصفور بعالي صوته مخاطباً سنجر وسافير:

ـ إنكما تسعيان إلى هدم كل شيء وتستعيدان اللغة واللهجة اللتين طالما تبناهما الإسرائيليون في الماضي. وقد أمضينا شهوراً نتناقش حول المستقبل، لا حول الماضي. وإذا كنتما تريدان الآن التفاوض حول الماضي، فلنوقف كل شيء حالاً.

رد سافير:

ـ لكننا انتهينا من فحص المشكلات كافة وردمنا الهوات كلها. وقد بذل كل منا جهداً مرموقاً حظي بتقدير الطرف الآخر، وها أنتم تحاولون الآن أن تفاوضوا على اتفاق جديد. إننا لا نستطيع أن نواصل.

وترك الوفدان الطاولة وقد انسدّ الموقف تماماً. وحزم الإسرائيليون والفلسطينيون حقائبهم واستعدوا لركوب الطائرة. وذهب لارسن، في حالة من الانهيار، للقاء أبي العلاء:

ـ باسم صداقتنا أطلب إليك طلباً أخيراً: وافق على مقابلة أوري سافير مرة أخرى، ولو لمدة خمس دقائق.

رفض الفلسطيني في أول الأمر ثم ليّن موقفه:

ـ سأذهب للتنزه في الغابة لكي أرخي أعصابي. وسأقابله عند عودتي.

ولسوف يستمر النقاش بينهما لا خمس دقائق بل ساعتين. واقترح سنجر، الحاضر إلى جانب سافير، على أبي العلاء أن «يقطع البطيخة نصفين» وقال: «لقد أثرتم عشرين نقطة جديدة. حسناً، إننا نتعهد بأن نقدم تنازلات بصدد عشر منها. افعل مثلنا بالنسبة إلى النقاط العشر الأخرى».

وأضاف سافير: «لكننا نطلب أجوبة قاطعة: إما نعم وإما لا».

أجاب أبو العلاء بلهجة جافة:

ـ سأنقل هذا الاقتراح إلى قيادتي.

وراح النرويجيون، وقد أقلقتهم هذه الاختلافات، يبذلون جهوداً مضاعفة. فطار يورغان هولست، وزير الخارجية، في نهاية شهر حزيران/يونيو إلى تونس، يرافقه لارسن وزوجته مونا يوول. وكان الغرض من الزيارة «رسمياً» تمضية إجازة بضعة أيام في فيلا مستأجرة عند شاطىء البحر. ولكنه في الواقع التقى بياسر عرفات عدة مرات سراً. وقد أقنع هولست رئيس م.ت.ف. بتقديم تنازلات بصدد النقاط المتنازع عليها.

أجابه عرفات:

ـ حسناً، إننا على استعداد لتغيير مواقفنا، ولكن ليس بصدد عشر نقاط، بل فقط بصدد سبع.

وتم نقل الجواب إلى القدس. وطلب عرفات إلى النرويجيين أيضاً أن يضغطوا على الإسرائيليين كيما يقبلوا أخيراً بفكرة ممر يربط أريحا بغزة. وكانت الخرائط المبسوطة على مكتبه تشير إلى كل الخطوط الممكنة. ووعد هولست بأن يتوسط. وقدم عرفات، وقد أخذ مظهر «جدّ معطاء»، ساعة يد رائعة لابن الوزير الذي لا يزيد عمره على أربع سنوات.

طار النرويجيون بعد ذلك إلى تل أبيب حيث دارت بينهم وبين بيريز محادثات على مدى يومين. كانت الأزمة التي نشبت قد خففت من حماسة المسؤول الإسرائيلي. واستفسر من ضيوفه مطولاً حول معنويات عرفات ونياته. وفي إحدى اللحظات سألهم: «بصراحة، أهو صادق حقاً ومصمم؟».

لقد عصف الشك فجأة ببيريز وكاد يتراجع عن كل شيء. وعلى حد تعبير أحد المقربين إليه: «كان خالجه الشعور بأنه وضع أصبعه على الحل، ثم إذا به فجأة يبتعد. وكان يعلم أن عرفات هو مفتاح جميع القرارات الاستراتيجية وكان يعتقد أنه فهم نفسيته. ولكن ها هو رئيس م.ت.ف. يعود فيصير فجأة لغزاً من الألغاز».

١٢

عرفات على مر الأيام

طالما كان ياسر عرفات غير متأكد من الالتزام الشخصي لرابين، فإنه لم يتابع المفاوضات إلا بعين ساهية، تاركاً لأبي مازن مهمة التحكم بمجراها عن طريق رجله الثاني حسن عصفور. لكن بعد وصول يوئيل سنجر، رجل ثقة رئيس الوزراء الإسرائيلي، إلى النرويج، ضاعف ياسر عرفات من حضوره. وراح يقرأ ويعيد قراءة التقارير التي كان الوفد الفلسطيني إلى أوسلو يوجهها بانتظام إلى تونس، ويمضي ساعات بتمامها على الهاتف مع أبي العلاء الذي طالما عدَّه رئيس م.ت.ف. من جماعته.

لقد دخل ياسر عرفات السياسة من الباب العريض لوسائل الإعلام يوم ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٥٣[١] في القاهرة. ففي ذلك اليوم التذكاري لهزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل في عام ١٩٤٨، حمل الرئيس الشاب لرابطة الطلبة الفلسطينيين عريضة إلى الرئيس المصري. وكان يرافقه صحفيون. وكانت العريضة تحمل آلاف التواقيع، ولكنها لا تتضمن سوى جملة واحدة: «لا تنسوا فلسطين!».

وكان قد كتبها بدمه.

(١) تاريخ توقيع اتفاقيات رودس. «هـ.م».

ولد محمد عبد الرؤوف عـرفات القـدوة الحسيني يوم ٤ آب/اغسـطس ١٩٢٩ في القاهرة، لا في فلسطين. كان الابن السـادس لتـاجـر مزدهـر في أعماله. وكان والد من سيعرف مستقبلاً باسم ياسر عرفات قد غادر القدس إلى العاصمة المصرية عام ١٩٢٧. وقد استقر المقام بالأسرة في شقة جميلة غير بعيد عن وسط القاهرة في حي السكاكيني. وقد أمضى الصبي طفولته في ذلك الجو الكوسموبوليتي الذي كان يتعايش فيه اللبنانيون والأرمن واليونان واليهود بغير تصادم منذ أجيال عدة، وإذ نشأ في جو التفاهم الطيب هذا، فقد راح يحلم بدولة فلسطينية يعيش فيها جنباً إلى جنب النصارى واليهود والمسلمون. لكنه كان يعتقد أيضاً، بسبب ذكرياته في القاهرة، بأن بلداً كذاك لن يضيره أن يكون الإسلام هو دين الدولة فيه.

وقد اقتادنا التحقيق، بطبيعة الحال، إلى تونس، إلى مكتب ياسر عرفات بالذات. على الجدران كانت معلقة خرائط وصور فوتوغرافية، بما فيها صورة المسجد الأقصى. كان ثلاثة أشخاص يتكلمون في آن معاً، وكان زعيم م.ت.ف.ورئيس دولة فلسطين المستقلة يستمع إليهم وهو ينظر إلى رسوم متحركة على شاشة التلفزيون المقطوع الصوت. إنه لن ينسى شيئاً من كل ما قيل، كما أكد لنا. فقد اعتاد على أن يُقاطع باستمرار.

حتى زواجه القريب العهد كان في وسع معاونيه أن يدخلوا عليه في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل. ولكنه، منذ زواجه، بات يكـرس لحياته الخاصة بضع ساعات ـ وهي ساعات أقل مما ينبغي، والحق يقال. وقد بلبل هذا التغيير بعض المناضلين القـدامى، ممن يغيظهم أن يجدوا البـاب مقفلاً في وجوههم.

من هم رجال السياسة الذين يعجب بهم أكثر من غيرهم؟ أجاب ياسر عرفات:

ـ بن غوريون وديغول.

والأول هو، كما لا يخفى، مؤسس إسرائيل.

والواقع أن الصهيونية تمارس سحراً غريباً على الفلسطينيين. لقد كرهوها،

وحاربوها، لكنهم يحاكون تنظيمها. فالآليات الداخلية لمنظمة التحرير الفلسطينية منسوخة في العديد من النقاط عن النموذج العدو. وثمة وجه آخر للشبه: فعرفات يُلقب، مثله مثل دافيد بن غوريون، بـ «الختيار». وهذا لقب أطلق على قادة آخرين مثل تروتسكي وهفويت بوانيي[1]، ولكن فيما يتعلق بعرفات فإن المقارنة ينبغي أن تعقد مع اليهودي «الختيار» الذي كان رأسه أشبه برأس أسد. فمع فارق أربعين سنة بينهما فإنهما ينشدان كلاهما هدفاً واحداً: إنقاذ شعب وإنشاء دولة.

أما ديغول فإن ما يعجب عرفات فيه هو الرجل الذي وضع حداً لحرب الجزائر. فالجنرال اليميني، الصاحي الذهن والمستبد برأيه، عرف كيف يفرض على فرنسا الاستقلال الجزائري وعودة مليون مستوطن. ومارس، ضداً على أنصاره بالذات، عملية «نزع للاستعمار»، وطبق سياسة تحررية ما كان لليسار نفسه أن ينتهجها.

وبدون أن يريد الاعتراف بالأمر، فإن ياسر عرفات طالما آمن، انطلاقاً من مثال ديغول، بأن رجلاً قوياً، رجلاً من اليمين هو وحده الذي يستطيع في إسرائيل أن يتحدى اللاشعبية فيعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ويخلي الأراضي المحتلة. ولقد سعى عرفات غير مرة إلى أن يدخل في اتصال مع رجالات الليكود.

ولقد بدا وكأن الاتفاق ما بين أنور السادات ومناحيم بيغن، الذي أعقبته إعادة سيناء إلى مصر، يعطيه الحق.

وكنا نعلم أنه حاول أكثر من مرة الانفتاح على اليمين الإسرائيلي الذي كان في سدة السلطة آنئذ. وكانت المحاولة الأكثر جدية هي تلك التي جرت في صيف ١٩٨٧.

فقد دخل ممثل م.ت.ف. في الضفة الغربية، فيصل الحسيني[2]، في

---

(١) زعيم ساحل العاج المتوفى في مطلع عام ١٩٩٤. «هـ.م».
(٢) بدعم من سري نسيبه وصلاح زهيقه.

تفاوض مع موشي عميران، وهو من رجالات الليكود المخضرمين.

وكان الإسرائيلي يطلع اثنين من الوزراء على تطور المفاوضات: دان مريدور و إهود اولمرت الذي صار بعدئذ رئيس بلدية القدس.

وكان هدف المفاوضات بسيطاً: الجمع بين إسحق وياسر.

وعن طريق مفاوضيه أعلم عرفات بأنه على استعداد للاعتراف المتبادل ولوقف كل عنف. وبالمقابل، طالب بالجلاء عن الأراضي.

وكان اسحق شامير موافقاً على تلك المناقشات.

وفي ذلك الوقت كان شيمون بيريز يفتش عن اتفاق سري مع الملك حسين. ومن هنا كان حرص شامير على أن يثبت لرجل اليسار الإسرائيلي أنه هو، زعيم اليمين، القادر على الكلام مع الفلسطينيين أنفسهم. لكنه كان يعلم أن قيادة الحزب لن تمشي معه.

وإزاء التقدم السريع للمفاوضات انتابه الذعر، فقطعها. ثم أقصى موشي عميران عن الليكود.

فشامير ما كان ديغول. ولقد كان ذلك، بالنسبة إلى ياسر عرفات، درساً: فالتاريخ لا يعطي نماذج قابلة للتكرار.

بعد ذلك بعام، في صيف ١٩٨٨، انقلب كل شيء رأساً على عقب. فقد تخلى الملك حسين فجأة عن مسؤولية الضفة الغربية، وتوقف عن دفع رواتب قدامى الموظفين الفلسطينيين فيها، وحصر مسؤولياته بالضفة الشرقية من الأردن، وترك م.ت.ف. وإسرائيل وجهاً لوجه. وبالنسبة لعرفات لم تبق إلا فرصة واحدة: التفاهم مع حزب العمل...

أصغى ياسر عرفات، في مكتبه بتونس حيث استقبلنا، إلى هذه التفسيرات. أصحيح أنه على هذا النحو كفّ عن أن يرى في اليمين الإسرائيلي طرفاً شريكاً؟ أصحيح أنه على هذا النحو استدار على عقبيه ونحو اليسار؟ لقد اتخذا سيماء المستمتع بالحكاية والملتذ بعدم التوكيد وعدم النفي. والواقع انه كان منشغلاً بأشياء أخرى. فقد كان يتبادل الحديث مع سفرائه العائدين من البلدان

المبعوثين إليها. ثم قدم لنا قهوة، وبدَّل سيماءه، وأبدى بشاشة، ووزع حلويات. وها قد استرخى بما فيه الكفاية ليعاود الكلام في موضوعنا.

بلى، لقد خامره شعور، يوم انسحب الملك حسين نهائياً من الضفة الغربية، بأن التاريخ يدخل في منعطف، وبأنه لا بد من العمل بسرعة. وفي تلك اللحظة المحددة أدرك أنه لن يستطيع، إذا ما أراد التفاهم مع إسرائيل، أن يتحاشى تقديم تنازلات.

بعد دقائق من إيضاحه هذه الواقعة الأساسية، عاد ياسر عرفات إلى الوراء، طبقاً لتلك العادة الجدلية الرهيبة التي عرف بها زعيم م.ت. ف. لا، ثم لا، لقد أسأنا الفهم، فقد كان أمسى مستعداً للتعاطي مع إسرائيل قبل زمن طويل من تاريخ ٣١ تموز/يوليو ذاك. لكنه امتنع هنا عن تقديم أية تفاصيل، ولم يكشف النقاب عن الشروط التي كان يمكن أن يتفاهم فيها مع الإسرائيليين في الوقت الذي كان لا يزال فيه الأردنيون داخلين في اللعبة.

ولم يذكر عرفات شيئاً أيضاً عن فلسطينيي الداخل. هل كان لموقفهم تأثير على قراراته الخاصة وعلى مجرى الأحداث؟ صمت وتهرب.

ومع ذلك!

لقد وجد مناضلو الأراضي المحتلة، وقد تركهم ملك الأردن لمصيرهم، أنفسهم أمام الفراغ. والسياسة، كما هو معروف، تكره الفراغ. ومن ثم سرعان ما تخيلوا أنهم يسدُّونه بإنشاء حكومة فلسطينية مؤقتة. وبادروا إلى تثبيت أفكارهم على الورق، وحرروا لائحة بأسماء أعضاء الحكومة المقبلة.

اكتشفت الأجهزة السرية الإسرائيلية هذه الورقة المورِّطة لمحرريها في منزل فيصل الحسيني وأسرعت إلى نشرها على الملأ. كان اسم عرفات في رأس اللائحة بطبيعة الحال. لكن مشروع الحكومة كان يضم على الأخص شخصيات من غزة والضفة الغربية، ولا يضم أحداً تقريباً من تونس. وطار كل وهم من رأس عرفات. فهو إذا ترك فلسطينيي الداخل يتفاوضون بأنفسهم على اتفاق، سواء في الضفة الغربية أو في واشنطن، فسيفقد كل سلطة حقيقية على الحكومة الفلسطينية القادمة.

ومن هنـا التضاعف المبـاغت للاتصـالات مع الإسرائيليـين. وقد بعث عرفات برسل إلى محازبي حزب العمل من أمثال يوسي ساريد وشولاميت آلوني، بل كذلك إلى أصدقاء شخصيين لشيمون بيريز مثل كارل كاهانا، وهو يهودي ثري من فيينا.

وروى لنا عرفات كيف فشلت هذه المحاولة أيضاً، وعلى نحو عبثي: ففي اللحظة التي رسم فيها كاهانا خطة للقاء سري مع شيمون بيريز ماتَ هذا الفييناوي بنوبة قلبية.

في أحد الأيام من عام ١٩٩٢ بعث أبو العلاء من أوسلو، عن طريق أبي مازن، بالتقارير الأولى عن مناقشاته مع الأستاذين الإسرائيليين القـريبين من شيمون بيريز. فأمسك عرفات بالسانحة من تلابيبها.

قال لنا:

ـ تغير كل شيء عندما عرفنا أن رابين موافق شخصياً على مفاوضات أوسلو تلك. وقد أقنعنا بذلك وصول أحد رجاله، وهو القانوني يوئيل سنجر، إلى أوسلو. وسنجر هذا وضع على بساط البحث من جديد جملة ما كـان جرى التفاوض عليه. رغم ذلك قررت أن أواصل، ضداً على رأي بعض أصدقائي. كنت، أنا، مقتنعاً بأن هذه المفاوضات هي وحدها ذات القيمـة. وتخليت في ذهني عن جميع المفاوضات الأخرى، بما فيها مؤتمر واشنطن الرسمي.

كان عرفات «يستظرف» بيريز، لكن رابين كان هو من يثير اهتمامه. رابين الجنرال. العسكري، الرجل القوي.

سألنا عما كان يفكر به في الطائرة التي أقلته إلى واشنطن. لم يجب، فهو ما عاد يذكر. لكن حين سألناه عن رأيه بإسحق رابين، قال:

ـ إنه عسكري. . .

ـ لكنك أنت أيضاً عسكري!

فقال:

ـ بلى. لكنني بالإضافة إلى ذلك رجل سياسي.

ـ وراءبن أيضاً.

فأردف يقول:

ـ بلى. ولكني كذلك مهندس بالأشغال العامة.

وانفلت معاونو رئيس م.ت.ف. يقهقهـون. ولكن الأمر لم يكن مجـرد نكتة، فياسر عرفات ما زال يعتز كثيراً بدبلومه من جامعة القاهرة.

وقد كان أحـدنا، بـأمل الإسهـام في اللقاء المستحيـل بين الإسرائيليـين والفلسطينيين، قد قابل ياسر عرفات عدة مرات ابتداء من عام ١٩٦٩.

مقتطفات من مذكرات ماريك هالتر:

١٩٦٩. اللقاء الأول مع ياسر عرفات.

توجهت إلى الأردن، إلى جبل الحسين قرب عمان. كان موجوداً صـلاح خلف، الملقّب بأبي إياد، صديقه منذ عهد الجامعة. لقاء عاصف. بدأت بإعلان مبادىء منحازة لإسرائيل، فاعتبرني رئيس م.ت.ف. جاسوساً، بل ربما أسوأ: مخرِّب.

لحظة استأذنته بالانصراف صاح بي عرفات متحدياً:

ـ أضرب لك موعداً خلال عام في تل أبيب.

فصرخت:

ـ في هذه الحال سأقتلك قبل ذلك بيوم!

لم أكن واعياً على الإطلاق لفحوى كلامي. اصفر وجه عرفات. ثم آثر أن يحمل «طلعتي» على محمل المزحة وراح يقهقه. أعتقد إنني بدأت في تلك اللحظة بالضبط أثير اهتمامه.

بعد ذلك بعام كان عرفات متواجداً في بيروت، لا في تل أبيب. فالكثير من الفلسطينيين كانوا لاقوا حتفهم في أيلول الأسود ١٩٧٠. ومن نجا منهم فرّ، وأحياناً حتى نحو إسرائيل، وانسحب القادة والكـوادر إلى بيروت.

١٩٧٢ ـ اللقاء الثاني.

قبل أن أتوجه إلى بيروت، أردت إبلاغ الأمر لغولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل. إنني أحب غولدا. ونحن نتكلم اليديشية، لغتي الأم. ورغم خلافاتنا حول المشكلة الفلسطينية، فإنها تحتل في حياتي مكان الجدّة التي حرمتني منها الحرب.

أخطرتها بأنني سأزور عرفات. فانتابها سورة غضب بالغة العنف حتى خفت أن تنتهي بعدها علاقتنا البنوية.

ـ كيف يسعك أن تكلم هذا الشخص؟ كيف تستطيع أن تصافح يد رجل أعطى الأمر بقتل أطفال يهود؟ كيف يمكنك أن تصافح هذه اليد الملطّخة بدمائنا؟

حاولت تهدئتها. شرحت لها أن إسرائيل لم تختر أعداءها، وأن السلم إنما يعقده المرء مع أعدائه. وموسى نفسه كلّم فرعون، المسؤول عن موت عشرات الآلاف من الأطفال اليهود. . .

قاطعتني بدون أي هزل:

ـ أنت لست موسى!

أجبتها بتواضع:

ـ أعرف، إن الله هو الذي أمر موسى بأن يكلّم فرعون، لقد قرأت التوراة. أما أنا فلم يأمرني أحد بأن أتكلم مع عرفات عن السلم مع إسرائيل سوى ضميري.

ـ ضميرك!

ـ أجل. ماذا إذا كانت هناك فرصة، فرصة واحدة من مليون للوصول إلى السلام؟ لصون حياة الأطفال، الأطفال اليهود وغيرهم؟ بصدق، يا غولدا، ألا تعتقدين أن الأمر يستحق عناء المحاولة؟

بعد بضع دقائق لانت ورافقتني إلى الباب.

كنت حزيناً للغاية.

لم أكن بحاجة إلى أذنها كيما أتوجه إلى بيروت. لكني، بداعي الاستقامة، بداعي الوفاء، ما كنت أريد أن أتصل بمسؤولين عرب أو فلسطينيين بدون إخطار الحكومة الإسرائيلية. فأنا واعٍ تماماً بأن المسألة تتعلق في المقام الأول بمستقبل إسرائيل وسكانها.

تأخرت في النوم، وأنا في حالة من القلق الشديد. عند الفجر أيقظتني غولدا على الهاتف. نطقت بكلمة، كلمة واحدة بالعبرية:

- ليخ.
اذهب.

لهذا وهكذا ذهبت لأول مرة في حياتي إلى بيروت، لألاقي فيها عرفات. مقابلة عاصفة من جديد، ولكن قصيرة. قصيرة لأنه كان يتعين عليه أن يذهب بغتة إلى دمشق، وعاصفة لأنه كان ينطق بخطاب أشد معاداة لإسرائيل من أي وقت مبق. ليس ثمة أدنى إمكانية للانفتاح. إنه ما زال يريد أن يمحو إسرائيل من خريطة العالم.

١٩٧٨. بعيد سفر أنور السادات إلى القدس. عرفات يدعوني للقدوم لرؤيته من جديد في بيروت[1].
نزلت كما هو متفق عليه في فندق سان جورج. لم يكن أحد ينتظرني. حوالي الساعة الواحدة صباحاً اتصل بي شخص باسم فتحي ليضرب لي موعداً في الضحى. وفي الغداة، وكما العادة في الشرق، صبرت أكثر من ساعتين في قاعة الفندق. ثم وصل رسول شاب. إنهم سيأتون لأخذي ظهراً...

في الساعة الثانية والنصف، أخيراً، توقفت سيارة مرسيدس كبيرة أمام الفندق وأقلتني. وكان السائق مسلحاً.

---

(١) قصة هذا اللقاء واللقاء التالي له معروضة في كتاب: ماريك هالتر: رجل وصيحة، باريس، منشورات لافون، ١٩٩٢.

دارة صغيرة في الضاحية. مجموعة من الفدائيين بالكلاشنكوف يتولون الحراسة. فاوضهم السائق لهنيهة، ثم صف السيارة بين ذهاب وإياب للمسلحين. اقتادوني إلى صالون عارٍ وفاخر الرياش في آنٍ معاً، غاصٍ برجال مسلّحين متوسدين على الأرائك. ما رأيت في حياتي قط مثل هذا العدد من البنادق الهجومية والمسدسات والرشيشات. في الوسط، كان عرفات جالساً في زيه الخاكي، وفي حزامه مسدس. قال وهو يربت على كتفي:

- Welcome back to Beirut!'

وتابع بالعربية، فيما تولى الترجمة فلسطيني ربع القامة، وسألني:

ـ كيف حال السلام إذن؟

قلت:

ـ أحسن. السادات قام بالخطوة الأولى. . .

ـ السادات، هو مصر. ومصر تريد استرجاع أراضيها.

ـ وأنتم؟

فقال عرفات وهو يعلي صوته:

ـ نحن، إنما تعنينا فلسطين.

ـ كل فلسطين؟

فاتخذ عرفات لهجة متشككة:

ـ لتبدأ إسرائيل بإعادة الأراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧.

اغتنمت الفرصة:

ـ لاستعادتها، هل أنت على استعداد للقيام بنفس بادرة السادات؟

ـ الذهاب إلى القدس؟

ـ أجل.

ـ ولكن على الإسرائيليين أن يعترفوا بنا أولاً!

كنت متأكداً من الأمر! كررت سؤالي:

ـ هل أنت على استعداد لتعلن على العالم أجمع أنك تتوجه إلى القدس للتناقش مع القادة الإسرائيليين؟

بدرت حركة تململ عن الرجال المسلحين الجالسين على الأرائك.

ردّ عليّ عرفات كل كلمة من كلماتي. بادرة السادات؟ ماذا كانت بادرة السادات؟ الاعتراف؟ وها هوذا يسأل:

ـ مناقشة ماذا؟

ـ الأراضي المحتلة. كيما تتمكن من أن تنشىء عليها دولة فلسطينية. وهي على كل حال لن تكون بكل تأكيد قابلة للحياة بدون اتحاد مع الأردن، ولكن هذه، بعد كل شيء، مسألة تخصكم. . .

هنا نهض عرفات. أخذ كرسياً واطئاً وجلس بالقرب مني. ورمقني بعينه المخضلّة دوماً وسألني:

ـ هل يقبل الإرهابي بيغن الكلام مع عرفات؟

ـ مع الإرهابي عرفات؟ بكل تأكيد. إذا أعلنت قبلاً أنك آتٍ للكلام في السلام.

ـ لكن إذا لم يقبل؟

ـ إن مئات الآلاف من الإسرائيليين قد ضاقوا ذرعاً بالحرب، وسوف ينزلون إلى الشارع. وفي الديموقراطية يتعين على الحكومة أن تأخذ في حسبانها الرأي العام.

ـ إذا كنت أفهمك جيداً، فأنت تريدني أن أتقدم إلى جسر اللنبي وأن أقول للجنود الإسرائيليين: أنا ياسر عرفات، رئيس م.ت.ف. خذوني إلى السيد بيغن، من فضلكم!

ـ كلا. أريدك فقط أن تدلي بتصريح علني.

جيء لنا بالقهوة. كانت المحادثة قد انتهت. لقد عرف عرفات ما كان يريد أن يعرف، وقال ما كان يريد أن يقول. نظر إلى ساعته ونهض قائلاً بالإنكليزية:

- my friend, I have to go.

وأضاف بالعربية:

ـ تابع، فربما تنجح ذات يوم...

فألححت قائلاً:

ـ في مقدورك مساعدتي. لما لا تنشر تصريحاً؟ إنه سيكون له دوي هائل، وخاصة أنه سيجيء بعد سفرة السادات. إنك لا تجازف بشيء.

ـ إلا بحياتي. إذا نشرت مثل ذلك التصريح، فإن الدكتور حبش سيقتلني.

فقدت صبري:

ـ سيدي الرئيس، أتخاف أن تجازف بحياتك من أجل شعبك؟

أجاب عرفات مغضباً:

ـ ما خفت قط من المجازفة بحياتي من أجل شعبي!

قام الرجال المسلحون عن الأرائك.

واصلت قائلاً:

ـ إن المرء قد يحتاج أحياناً إلى قدر من الشجاعة ليتكلم مع عدوه أكبر من ذاك الذي يحتاجه ليحاربه!

فصاح بي عرفات:

ـ قل ذلك لأصدقائك الإسرائيليين!

ثم أضاف بصوت أهدأ:

ـ كل شيء في أوانه. الوقت لم يحن بعد.

ورددت:

ـ الوقت لم يحن بعد.

تموز ١٩٨٨. عندي فكرة، وأحد الناشرين أبدى عن حماسه لها: لا بد من

الحصول على سيرة ذاتية لعرفات. إذ باستثناء الكوفية وصور تلفزيونية رديئة، وباستثناء شهرة الثوري التي نالها عن طريق الثورة، أو كذلك باستثناء شهرة الإرهابي التي نالها عن طريق الإرهاب، فإن ما من أحد يعرف شيئاً عن الإنسان عرفات، عن طفولته، عن حياته الخارقةللمألوف كمطارَد أزلي، عن عناده. . .

تلفنت إلى تونس.

ـ ما رأيك في الموضوع؟ أن تكتب قصة حياتك؟

تردّدَ:

ـ ليست عندي وقت للكتابة.

صمت. أردف يقول:

ـ لكن إذا كان تحت يدك صحفي. . . رجل أو امرأة، ولكن من الأفضل أن يكون من أصل فلسطيني، ففي هذه الحال نعم، فسيكون في مقدوري أن أروي له قصة حياتي. وبعد ذلك، قد نكتب الكتاب كلانا معاً، ربما. . .

صحفي فلسطيني؟ إنه سيكون في هذه الحال كتاب تبجيل وتعظيم. الايديولوجيا بدل الحياة والمغامرة. لا بد من امرأة.

ذهب بي الفكر إلى سهى، ابنة الصحفية ريموندا الطويل، تلك «الباسيوناريا»[1] الفلسطينية التي ربطتني وإياها رابطة الصداقة. وسهى تمتلك ولا بد القدرة التامة على طرح أسئلة سين وجيم على عرفات.

٢ آب ١٩٨٨. أبلغتني ريموندا الطويل، عند مرورها بباريس، أن «الختيار»، ـ كما قالت ـ يريد أن يراني بأسرع ما يمكن.

من كان ليصدق أن ياسر عرفات، بعد عشر سنوات من استدعائي إلى بيروت، سيوجه إليّ الدعوة من جديد؟

٢٠ آب ١٩٨٨. تونس. نزلت في الهلتون، فجميع الفلسطينيين يأتون

---

(١) الباسيوناريا: لقب بطولي أعطي لدولوريس ايباروري المناضلة ضد الفرنكوية «هـ.م».

إليه. ولقد كانوا في تلك الأمسية بوجه خاص كثرة، إذ اجتمعوا لحضور مؤتمر حول المشكلات المالية لمنظمة التحرير. في الصالون، والمطعم، وعند حافة حوض السباحة: لقد أتوا من العالم قاطبة. إنهم يذكّرونني بالصهيونيين القادمين من أميركا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا...

شتات.

سمعتهم يعلقون على أبسط الأحداث في الأراضي المحتلة، ويطلقون، على الأخص، تنبؤاتهم حول الانتخابات الإسرائيلية القادمة.

إن لفي الأمر فعلاً ما يدعو للتأمل، فهو، بمختصر القول، تاريخ عصرنا: إنهم، وهم المضطهَدون وذوو الرؤية الكلية، يتكلمون عن ديمقراطية الآخرين.

التقيت بمروان كنفاني، الذي يقطن في واشنطن، وبالشاعر محمود درويش الذي يعيش في باريس. إننا بعيدون عن جو بيروت الحربي. فهنا، لا بزات خاكي، ولا قنابل يدوية متدلية من الأحزمة. لقد مرت عجلة الزمن على الرجال وعلى الأفكار.

متابعةً لفكرتي عن السيرة الذاتية، ذهبت مع سهى الطويل لزيارة الزعيم الفلسطيني.

في مكتب مجاور لمكتب عرفات رأيت بعض قادة م.ت.ف. ممن كنت صادفتهم في بيروت. لقد شاخوا. إنهم يعاودون، بأعين متعبة، وقد شمروا قمصانهم، قراءة النص المعدَّل الأخير لتصريح سيحتل مكانه إلى جانب تصريحات كثيرة أخرى. والأوراق المتناثرة على الطاولة ترتجف تحت المروحة.

عرفات أيضاً قد تغير. لحيته ابيضت، وشاهدته يضع نظارات كيما يقرأ.

انكليزيته قد تحسنت، وبات يستغني عن مترجم. سرعان ما أخذ الحديث طابعاً شخصياً. وبما أنه يحب أن يتكلم، ويتكلم، ويتكلم، فقد دامت الجلسة حتى الساعة الثالثة صباحاً.

أصغيت إليه مذهولاً. كان لحديثه، لأول مرة، سحره. أبلغني بأن البند

في ميثاق م.ت.ف الذي ينصّ على تدمير إسرائيل سوف يلغى. وبأنه يقبل مبدأ المفاوضات مع إسرائيل. وأعلمني على الأخص أنه يقبل فكرة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل، وفي سلام مع إسرائيل.

في النهاية ختم قائلاً:

ـ ليس هذا بحديث. لقد تعهدت بألا أعطي أي حديث قبل مؤتمرنا الذي سينعقد في مدينة الجزائر خلال شهر أو اثنين.

ـ حسناً، سأتدبر أمري.

ـ سأضع ثقتي بك.

وسألني أن نُصوِّر كذكرى لهذا اللقاء.

٣١ آب ١٩٨٨. كتبت هذه المعلومات المذهلة في مقال نشر في آن واحد في «نيويورك تايمز» و «لوموند» و «كوريري دي لاسيرا»، وفي «معاريف» في إسرائيل، وفي «اسبريسن» في ستوكهولم، وفي «كامبيو ١٦» في مدريد، و «الأهرام» في مصر.

أيلول ١٩٨٨. أثار المقال فضيحة في داخل م.ت.ف. لكن عرفات لم يكذِّبه. كنت قد نقلت كلماته بأمانة. فعلاً لقد تغير: فقبل عام واحد ما كان ليحرجه أن يتهمني بأنني مخرب.

نهاية ١٩٨٨. مرّ عرفات بباريس ليلاقي القادة الفرنسيين. اقترح عليّ باتريك بوافر دارفور[١] أن نشترك في طرح الأسئلة عليه. وعلى شاشة التلفزة مباشرة أكد ياسر عرفات ما كان قاله لي عن ميثاق م.ت.ف. فالبند المتعلق بتدمير إسرائيل قد بات بحكم الـ Caduc.

---

(١) من أشهر مذيعي التلفزة الفرنسية. «هـ.م».

وكـان للأمـر وقعـه وراح كـل واحـد يفتش عن معـنى «Caduc» في قاموسه: «لم يعد معمولاً به. . مرادفاته: بالٍ، ملغى، عفى عليه الزمن. . .».

لماذا قصَّ كل ذلك عليّ أنا؟

إن عرفات، مثله مثل كثيرين من النـاس، يتصور أن الشعب اليهـودي يشكل قوة إعلامية ـ مالية متشعبـة الفروع في العـالم أجمع، وأن لهـذه الكتلة المتشعبة ممثلين وناطقين بلسانها. وهو يعتقد انني واحد منهم. وبما أنه كان قد بدأ حملة إغراء تجاه اليهود، فقد تذكرني.

ومهما حاولت أن أشرح له أن اليهود ليس لهم لا ملك، ولا بابا، ولا ناطق بلسان، وأن اليهودي البلجيكي أو الفينزويلي أو الفرنسي أو البريطاني ليس إلا مواطن بلده، وانه لا يتكلم إلا باسمه الخاص، فإنني لم أقنعه.

بديهي ان نشر مقابلتنا في ثمانية بلدان في آن معاً ما كان من شأنه إلا أن يعزز فكرته تلك. فهلا أدرك أن ذلك بسببه، وليس بسببي؟

١٩٩٣، تشرين الأول. وجدته نـاحلاً، متعبـاً، وشعره قـد ابيضَّ أكثر بكثير. لكن عينه السوداء تبرق. عـانقني. قَدِمت زوجتـه الشابـة الجديـدة: شقراء، جميلة، مثيرة للاعجاب. المرأة الوحيدة في محيطه. إنها سهى الطويل، الصحفية الفلسطينية التي كنت قدمتها إليه.

ياسر عرفات وسهى ما كتبا قط كتابهما، بل تزوجا.

ذكّرته باليوم الذي جئته فيه بسهى كي تساعده في تحرير سيرته. فأضحكه ذلك. إنه لا يحب الكلام في العواطف.

عند وصولي إلى تونس اكتشفت أن النور الذي يغلف المدينة لا يقل شفافية وذهبية عن نور القدس.

١٣

السلم في خطر

انتهى الاجتماع في الساعة ٧,٣٠ من صبيحة يوم ٦ تموز/يوليو ١٩٩٣ في جو من الحبور. فتوتر الجلسات السابقة قد تلاشى، وبدت الصعوبات كافة وكأنها سويت. كان المندوبون ينزلون في عزبة غير بعيدة عن أوسلو. وهمس هرشفلد في أذن سنجر: «الآن، أعتقد أن الكاتو قد طهي بصورة مضبوطة».

ابتسم المحامي. فطيلة الليل أعاد الإسرائيليون والفلسطينيون كتابة جملة النصوص آخذين في اعتبارهم مواقف الخصم. وتولى حسن عصفور وروث بونديك الضرب على الآلة الكاتبة. كان ثمة ثلاث نقاط لا تزال معلقة، لكنها بدت ثانوية إلى حد أن سافير أعلن قائلاً: «لنتفق على ما تمت لنا تسويته ولنحتفظ بهذه المشكلات الثلاث للمرحلة القادمة. إننا متيقنون من أننا سنجد لها حلاً». ويستذكر هرشفلد: «لقد افترقنا على شعور بالانتصار».

كان من الضروري الانتهاء على عجل لأن معلومات كانت بدأت تتسرب إلى الصحف. فثمة برقية من وكالة الصحافة الفرنسية، صادرة عن العاصمة الأميركية، تشير إلى وجود اتصالات سرية في أوسلو. وهذه المعلومة، التي كذبها النرويجيون بقوة، نشرت في نهاية حزيران/يونيو. وكان مصدر التسرب وزارة الخارجية الأميركية. كما علمت الجيروزاليم بوست بسفرة نمرود نوفيك الخاطفة إلى القاهرة يوم ١٩ حزيران/يونيو. وأشارت هآرتز النافذة في عددها الصادر في

يوم ١٢ تموز/يوليو إلى وجود «مفاوضات سرية».

كذّب رابين النبأ بلهجة جافية مؤكداً أن «إسرائيل لن توقّع إلا مع الوفد الفلسطيني الذي يفاوض الآن معنا في واشنطن».

وأخيراً نُشر مقال في صحيفة أميركية أشار إلى أن يوئيل سنجر يجري مناقشات سرية في العاصمة الأميركية مع نبيل شعث، مستشار عرفات. وما كان أي من هذه المقالات يكشف النقاب عن الحقيقة فعلاً. فالأسماء والأماكن كانت مغلوطة في الغالب، لكن الشبكة شرعت تضيق.

وأرجح الظن أن مصر كانت وراء قسم لا بأس به من هذه التسربات، بسبب اللعبة المثلثة التي كانت تلعبها. فقد كانت تضطلع بدور «الوسيط المستقيم» لدى كل من إسرائيل وم.ت.ف. والولايات المتحدة. وكانت مجموعة صغيرة من المسؤولين في القاهرة هي وحدها المطلعة على سر ما يجري. ولكن أي معلومات سرية، في منطقة «لاغطة» بالشائعات مثل الشرق الأوسط، ما كان لها في نهاية المطاف إلا أن تتسرب وتذاع.

طاب لأسامة الباز أكثر فأكثر الدور الذي يتولاه كوسيط. فقد قدم إلى إسرائيل في مطلع تموز/يوليو، لحظة وجود الوفدين المتفاوضين في أوسلو، والتقى بنوفيك وبيلن وبيريز. وفي مناقشاته مع الرجال الثلاثة اكتفى مستشار حسني مبارك بالعموميات. وفي الساعة ٧,٣٠ من صبيحة اليوم التالي استقبله رابين في منزله. وتبادلا وجهات النظر في مودة حتى الساعة ٩.

قال رابين:

- علينا أن نتوقف. فلديّ اجتماع لمجلس الوزراء.
- كلا...

نظر رئيس الوزراء الإسرائيلي مذهولاً إلى الرجل القصير القامة والعصبي الحركة. وكان الباز، المتقلب النزوات، يستطيب دور الولد المزعج هذا. قال:

- لن ترحل حالاً. كان في امكانك أن تدعوني مساء لكنك آثرت أن تلتقيني

الآن، إذن امنحني ربع الساعة الذي أنا بحاجة إليه.

عاود رابين الجلوس فوق مقعده. وكان الرجلان وحدهما في الصالون.

ـ انني مصغٍ اليك.

ـ أريد أن أعرف هل أنت مطلع حقاً، في كل التفاصيل، على ما يجري في أوسلو؟

بدا لرئيس الحكومة ان السؤال في غير محله وأجاب بشيء من الاغتياظ:

ـ بكل تأكيد، فبيريز يطلعني باستمرار.

رد الباز قائلاً:

ـ ما هذا بجواب. اريد أن أعرف هل أنت على اطلاع على كل كلمة يتم تبادلها. على سبيل المثال، هل تعرف ان الوفدين اختلفا هذا اليوم بالذات حول ثلاثة مواضيع؟

فوجىء رابين وهز رأسه نفياً:

ـ كلا، أجهل ذلك.

رد المصري بلهجة جافة:

ـ حسناً، ينبغي أن أفهم انك لا تأخذ هذه القضية على محمل الجد بما فيه الكفاية.

واندفع الباز في خطبة منفردة دامت زهاء عشر دقائق. وبلهجة أخاذة ومتحمسة راح يشرح لماذا تبقى «طريق أوسلو» هي الأهم، إذ من شأنها أن تفتح الأبواب جميعاً، في حين ان مفاوضات واشنطن لن تنتهي إلى شيء أبداً.

وأضاف قائلاً:

ـ إذا أعطيت موافقتك الرسمية على هذه المفاوضات، باسمك الخاص وباسم دولة إسرائيل، فإنه سيحدث فوراً انفراج.

كان رابين يصغي وهو محتفظ على عادته بهدوئه. وبدا على وجهه مزيد من الانتباه. واتخذ مستشار الرئيس المصري بغتة لهجة رسمية:

ـ انني مبعوث هذه المرة من قبل ياسر عرفات، لأننا وصلنا إلى نقطة حرجة في العملية. ان رئيس م. ت. ف. يريد أن يعرف هل هو يتكلم مع موظفين أو معك.

لبث رابين لهنيهة صامتاً، ثم نهض وزرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم عاد فجلس في قبالة الباز:

ـ تستطيع أن تنقل ما يلي إلى عرفات: انني موافق على كل ما يقال وسيقال في أوسلو.

لقد ارتدت هذه المحادثة أهمية فاصلة. فقد توجه الباز إلى تونس وأبلغ رئيس م. ت. ف.: «الأمر على ما يرام، انها فعلاً الطريق الصالحة. الأمور ستعطي نتائجها».

وما كان عرفات، وهو يواجه معارضة متزايدة داخل منظمته، ليأمل في أحسن من هذا النبأ.

بعد بضعة أيام من زيارة الباز وصل إلى إسرائيل مصطفى خليل، رئيس وزراء مصر السابق. لقد كان هذا المصرفي الأنيق والأنيس واحداً من معاوني أنور السادات المقربين. وكان قد انسحب من الحياة العامة ويجهل كل شيء حول مفاوضات أوسلو، لكن الصورة التي رسمها عن م. ت. ف. كان لها وقعها لدى مخاطبيه. قال لشيمون بيريز وحاييم رامون، وزير الصحة: «على إسرائيل أن تساعد م. ت. ف. على النجاة من الإفلاس. فالمنظمة بحاجة إلى 'حقنة فورية' من سبعين مليون دولار. فلماذا لا تستخدمون صداقاتكم وارتباطاتكم في أوروبا والولايات المتحدة للحصول على هذا المال؟ إذا انهارت م. ت. ف. 'المعتدلة'، فإن متطرفي 'حماس'، المعارضين لكل تسوية سلمية، سيأخذون السلطة في الحال».

كان اقتراحاً غريباً في نوعه هذا الاقتراح الذي يطالب الدولة اليهودية بإنقاذ م. ت. ف. من الافلاس، لكن التفاصيل التي قدمها رئيس الوزراء المصري السابق كانت تؤكد التحاليل المقدمة من قبل أجهزة الاستخبارات. فقد كانت

تقارير الموساد، المرفوعة إلى اسحق رابين، تقدم عن المنظمة الفلسطينية وصف منظمة على وشك الانفجار: فالمقاتلون التابعون لها لم تُدفع أجورهم منذ أشهر. وقائد قوات فتح في لبنان قد بدأ يخرج على سلطة عرفات.

وفي بغداد لم يكن ممثلو المنظمة الفلسطينية قد تلقوا أي مرتب منذ سبعة أشهر، بينما هاجم كوادر م.ت.ف. المقيمون في ليبيا «سفارة فلسطين» ليطالبوا بتسديد متأخراتهم. ولدواعٍ اقتصادية أيضاً تم صرف خمسة عشر ألف بيروقراطي من الخدمة، ممن يعملون في مختلف الإدارات والسفارات التي فتحتها م.ت.ف. في شتى أنحاء العالم.. وتوقف تمويل الجامعات الفلسطينية المنشأة في الأراضي المحتلة، ولم يعد أساتذتها يتلقون أي مرتب. كذلك ما عادت «أسر الشهداء»، من الذين سقطوا في أثناء الانتفاضة أو خارج الأراضي المحتلة، تتلقى أي إعالة.

وكان هذا الضعف المتنامي للمنظمة الفلسطينية والمشكلات التي تصطدم بها ناجمة عن واقعة بسيطة: فهي ما كانت في يوم من الأيام «منظمة تحرير» بالمعنى المعروف.

وحسب ما كتب جيرار شاليان، وهو من أفضل الاختصاصيين العالميين في الموضوع، فإن «حركات التحرير تستفيد من دعم الشعوب التي تمثلها، بينما تسلك م.ت.ف. مسلكاً معاكساً: فهي تدعم الشعب وتدعي أنها تمثله».

وعلى مر السنوات تحولت المنظمة إلى آلة بيروقراطية هائلة تعمل بموجب ميزانيات ضخمة، وينخرها الفساد واللافاعلية.

وما كان سواد الصورة ليقلق رابين. فانهيار م.ت.ف. يمثل في نظره، على العكس، ورقة رابحة كبرى في المفاوضات الجارية. وصحيح ان عرفات بقي غير قابل للالتفاف عليه، لكن هشاشته تقلص من الآن فصاعداً من هامش مناورته. وقد عبّر عن ذلك أحد معاوني رابين بشيء من الكلبية: «لم يعد عرفات قادراً على قطع المفاوضات وهو يعلم ذلك».

وكان رئيس م.ت.ف. يعلم أيضاً أن الاتفاق المقبل، المتفاوض عليه في سرية تامة، قابل لأن يستثير ردود فعل عنيفة داخل هيئاته القيادية ولدى قسم من

السكان الفلسطينيين. ومن ثم، وطرداً مع مرور الأيـام، كان قلقـه يتعاظم. ونادراً ما رآه الذين يشتغلون معه متوتراً وسريع الغضب وكتوماً إلى هذا الحد. وفي مناقشاته مع أبي مازن، كان ثمة سؤال يتردد كاللازمة الموسيقية على شفتيه، كلما أثيرت أمامه نقطة شائكة: «هل أُبلغ رابين؟».

لقد أمسى وسواساً حقيقياً بالنسبة إليه أن يفهم سيكولوجية رئيس الوزراء الإسرائيلي ونياته الحقيقية. وكان يخشى أيضاً من فخ. فخمس وأربعون سنة من المواجهات قد حفرت هوة سحيقة من الريبة وعدم الثقة.

وقد اختار أن يستعمل وسيطاً جديداً ليسبر غور رئيس الحكومة الإسرائيلية. وهذا الرجل الذي استنجد به يدعى أحمد طيبـي.

انه طبيب عربي من سكان إسرائيل في السادسة والثلاثين من العمر، أصله من الطيبة حيث كان والده يدير فرعاً للمصرف الإسرائيلي الكبير هبوعاليم.

وكان أحمد طيبـي قد لفت الأنظار إليه في عام ١٩٨٧ عندما رفض أثناء عمله في مستشفى هـداسـا في القـدس، أن يخضـع للتفتيش مثله مثـل بقيـة المستخدمين العرب.

وكان الليكود يومئذ في الحكم، فصُرف الطيبي من الخدمة.

وللحال نظمت لصالحه حملة من قبل بعض المثقفين الإسرائيليين، بمساندة من بعض المرشحين الشبان للقيادة في حزب العمل، ومن بينهم حاييم رامون الذي سيصير بعد بضع سنوات وزيراً للصحة في حكومة اسحق رابين. وقدمته ريموندا الطويل، التي لم تكن قد صارت بعد حماة عرفات، إلى رئيس م. ت. ف. أثناء سفرة له إلى الخارج.

لقد تم إذن استدعاء الطيبي، بوجهه المستدير والكثير الحركة، إلى تونس في مطلع تموز/يوليو. واستقبله عرفات في الساعة الثانية صباحاً، وسأله:

ـ أحمد، لماذا لا يزال رابين يتردد في إعطائي أريحا؟

لقد كان فلسطيني الداخل هذا من القلّة الـذين يطلعهم أبـو مازن عـلى مجريات الأمور. وكان يعلم أن مفاوضات دقيقة وفائقة الأهمية تدور في النرويج.

لكن سؤال عرفات أخذه على غفلة من أمره. فقد كان يجهل أن أريحا تشكل عنصراً في تلك المفاوضات.

وفك رئيس م.ت.ف. كوفيته. وبدا، برأسه العاري وبزته الزيتونية اللون المشدودة عليه قليلاً، منهكاً شائخاً. وقال للطيبي:

ـ يجب أن تسبر رابين، وأن تعرف هل هو على اطلاع حقاً ومدى التزامه. لا بد لي أن أعرف إن كان جاداً. ولكن بسرعة.

ذهل الطيبي للجو السائد في مقر م.ت.ف : مزيج من البلبلة والريبة. وقد استقبله عرفات على انفراد، ويبدو ان قلة من أعوانه بات لهم حق الدخول عليه مباشرة. وكان واضحاً للعيان ان الزعيم الفلسطيني قد أمسى متشككاً وأقل رغبة من أي وقت مضى في تفويض سلطته إلى أحد.

عند عودته إلى القدس اتصل الطيبي حالاً بصديقه حاييم رامون، وزير الصحة والناطق بلسان رابين. انه الآن في الثانية والأربعين من العمر، وفي عز الرجولة. ويوم ١٧ تموز/يوليو التقاه في مكتبه بالوزارة، وقال له بدون مقدمات:

ـ لقد أذن لي عرفات بلقائك.

فابتسم رامون وأجاب:

ـ لكن رابين لم يأذن لي بعد برؤيتك وبتقديم أي جواب إليك.

فنزع الطيبي نظارته وفرك عينيه وكأنه يريد تبديد حلم مزعج:

ـ اسمع يا حاييم، انقل إلى رابين الأسئلة التي يوجهها اليه عرفات. انه يريد أن يعرف إذا كان رئيس الوزراء على استعداد للتفاوض مباشرة مع م.ت.ف. ومعه هو. وهل هو على استعداد أيضاً لاعتراف متبادل.

وعد رامون بأن يكلم رابين في الموضوع سريعاً. وفي الغداة، في أول العصر، اتصل بالطيبي هاتفياً:

ـ هل تريد أن تأتي إلى مكتبي حالاً؟

وحينما التقى الرجلان من جديد وجهاً لوجه، قال الإسرائيلي:

ـ ان رابين يريد أن يطرح هو أيضاً أربعة أسئلة على عرفات. فهو يود أن يعرف هل تقبل م.ت.ف. بمبدأ حل على مرحلتين: حل وسيط أولاً، ثم حل نهائي.

«ثانياً، هل تقبل م.ت.ف. بأن لا يناقش وضع القدس إلا في مجرى المفاوضات النهائية؟»

«النقطة الثالثة: هل تسلم م.ت.ف. بواقع أن الأراضي المحتلة ستبقى تحت الرقابة الإسرائيلية أثناء المرحلة الوسيطة؟»

«رابعاً، سؤال أخير: هل تقبل منظمتكم أيضاً بأن تبقى جملة مسائل الأمن بين يدي إسرائيل طوال تلك الفترة الانتقالية؟».

تكلم رامون بلا ملاحظات مدونة بين يديه. ثم ختم بالقول: «أنت تعلم، يا أحمد، كم أنا قريب إلى رئيس الوزراء. فإذا جاء الجواب ايجابياً فستحصلون في أرجح الظن على ما تريدونه».

عاد الطيبي إلى بيته وحرر تقريراً بما دار في الاجتماعين، ثم اتصل هاتفياً بعرفات. وما كاد يبدأ بالحديث عن فحوى المناقشات حتى قاطعه رئيس م.ت.ف.:

ـ تعال حالاً.

وصل الطيبي إلى تونس يوم ٢٢ تموز/يوليو. استمع عرفات، بوجه جامد، إلى الشروط التي وضعها رابين، ثم قال:

ـ أريد أن أفكر بالموضوع.

غادر الغرفة تاركاً الطيبي وحده. وبعد حوالي الساعة عاد رئيس م.ت.ف.:

ـ اذهب لرؤية أبي مازن. لقد كلمته.

اجتاز الطيبي على قدميه المئة والخمسين متراً التي تفصل فيلا عرفات عن مكتب أبي مازن. كان هذا الأخير، بشعره الفضي وشاربه الناعم، يرتدي بزة

«صحراوية» قصيرة الأكمام ذات لون أزرق داكن. وبدا في غاية توتر الأعصاب، وهو يحرق لفافةً تلو أُخرى.

أسرَّ الطيبي لنا قائلاً:

- كثيراً ما التقيته في الماضي، ثلاثين مرة على الأقل، لكنه في تلك الأمسية بدا لي وكأنه شخص آخر.

قرأ الرجل الثاني في م.ت.ف. بدوره تقرير الطيبي وقال:

- كل هذا يبدو لي مهماً جداً، أعطني فسحة للتفكير فيه. لنعد إلى اللقاء غداً صباحاً.

في اليوم التالي، في الساعة ١٢ ظهراً، التقى الطيبي ثانية بأبي مازن وهو لا يزال على توتره:

- لقد فكرت مطولاً. لا أفهم لماذا يطرح علينا رابين كل هذه الأسئلة. إنه يعرف موقفنا. لقد سبق وأبلغناه بكل شيء.

وبحركة متجهمة وضع تقرير الطيبي على طاولة واطئة في وسط الغرفة، ثم أضاف قائلاً:

- بصراحة، ليس عندي أية رغبة في أن أجاوب.

- إذا تمسكنا بالصمت، فإن الموقف لن يزداد إلا تفاقماً...

رمق أبو مازن الطيبي بنظرة متشككة. فألح فلسطيني الداخل قائلاً:

- اؤكد لك. ان الإسرائيليين سيفسرون ذلك على أنه إشارة سلبية. يجب أن تعطيني جواباً.

وقدم أبو مازن خمسة أجوبة مكتوبة على الأسئلة الأربعة. وقد قبل بجميع الشروط التي وضعها رابين لكنه أضاف: «ترى م.ت.ف... ان عبارة جملة مسائل الأمن ليست مقبولة. لكن المنظمة تستطيع، بالمقابل أن تدرس عبارة: الأمن الخارجي».

وتوجه بعد ذلك الرجل الثاني في م.ت.ف. إلى الطيبي بالسؤال:

- متى ستعود إلى إسرائيل؟

ـ ليس قبل عشرة أيام. فعليّ أن أرافق عرفات إلى ماليزيا وكوريا وفيتنام.

فصاح أبو مازن:

ـ والله إنك لمجنون! ارجع حالاً واذهب لإعطاء هذه الأجوبة.

أبدى حاييم رامون ترحابه الشديد بالتأكيدات التي قدمتها م.ت.ف. حتى كاد أن يهنىء الطيبي. وأسرّ إليه: «إنه لتطور فائق الأهمية. سأذهب حالاً لرؤية رابين».

وبعد بضع ساعات أصدر رئيس الحكومة حكمه: «إنها المواقف الأكثر تقدماً التي اتخذتها م.ت.ف. في تاريخها قط». وكان رابين بحكمه هذا يخلع قناعاً أنيقاً على واقع شديد المرارة بالنسبة إلى الفلسطينيين: فقد اضطروا إلى القبول بجميع الشروط التي وضعها الخصم.

وإذ بات رابين مقتنعاً منذاك فصاعداً بأن «عرفات علق في الشبكة»، على حد تعبير أحد معاونيه، فقد عقد العزم على ألا يخفف أبداً من ضغطه. وكلف رامون بمعاودة الاتصال بالطيبي في الغداة. وكان الفلسطيني قد ذهب إلى حيفا استعداداً للرحيل لحضور زفاف عندما تلقى النداء:

ـ أحمد، أريد أن أقابلك فوراً.

ـ انني عائد إلى القدس غداً صباحاً. لنتناول طعام الافطار معاً.

أجاب الإسرائيلي:

ـ حسناً، مرّ علي في منزلي.

في الساعة ٨ صباحاً التقى الرجلان حول قدح من الشاي. تعمّد الوزير أن يظهر ابتسامة عريضة:

ـ رابين يقبل نصكم، لكن لا يزال ثمة سؤال معلّق، هو ذاك الذي يتصل بالقضاء. فلم يأت له ذكر.

فأجاب الطيبي وقد بوغت:

ـ إن موقفنا، كما أعاد توكيده أبو مازن، واضح: إن القضاء الفلسطيني سينطبق على جميع الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، بما فيها القدس.

أجاب رامون:

ـ أعرف، لكن رابين يجد هذا الموقف متصلباً أكثر مما ينبغي.

ـ أتبغي جواباً سريعاً؟

ـ أجل.

ـ يجب أن أتكلم مع تونس.

اقترح الإسرائيلي:

ـ اتصل من هنا.

طلب أحمد طيبي مقر م.ت.ف من صالون وزير الصحة الإسرائيلي. وجاء جواب أبي مازن:

ـ ولكن لماذا الإسرائيليون متشكّكون إلى هذا الحد؟ إن مسألة القضاء هذه قابلة للتسوية بسهولة.

أرضى هذا التفسير رابين فأعلن بلسان رامون: «أعرف الآن أن م.ت.ف. وعرفات جادّان تماماً».

وفي الواقع، إن رئيس الحكومة الإسرائيلية رجل استراتيجية بارع ومقاتل. وكما علق أحد معاونيه المقربين. فإنه «بطرحه جميع تلك الأسئلة قد سبر فاعلية خطوط الدفاع الفلسطينية. وقد بات مقتنعاً منذ تلك اللحظة بأنها قابلة لأن تنهار من الضربة الأولى».

والواقع أن السياق الذي كان يتطوّر فيه عرفات ومجموعته الصغيرة من المستشارين كان يزداد وعورة يوماً بعد يوم. وقد كانت العصبية البادية قبل بضعة أيام على أبي مازن، أثناء لقائه بأحمد طيبي في تونس، متأتية من صعوبات جديدة برزت في أوسلو.

كاشفنا أوري سافير بالقول: «لقد ارتكبنا غلطة استراتيجية. لقد جئناهم بوثيقة حظيت بموافقة كل من رابين وبيريز وقلنا لهم: «إمّا أن تقبلوها وإمّا أن ترحلوا». وقد كان في وسعنا أن نكرّر هذه العبارة مليون مرة بدون أن يصدقونا: فقد كان مستحيلاً في نظرهم أن يتقدم اليهود باقتراحات بدون نية مبيتة، وبدون رغبة مسبقة في المناورة. ولقد كانت لحظة قاسية للغاية». فالفلسطينيون اعترضوا على نقاط عديدة. وتلفن سافير لبيريز ـ وكان في باريس ـ بينما تدخّل وزير الخارجية النرويجي، يورغان هولست، لدى عرفات.

حزم أبو العلاء أمره على السفر. وفي اللحظة التي كان يتهيأ فيها لترك طاولة الاجتماع، خاطب سافير الفلسطينيين بقوله:

ـ إنكم لا تفوّتون فرصة لتفويت الفرصة. لقد قمنا بمجهود ضخم، وها نحن نفشل. إنها ليست نهاية الحوار الإسرائيلي ـ الفلسطيني. والتاريخ سيفرض علينا أن نصل إلى اتفاق. سيأتي أناس بعدنا وسينجحون. ولكن بانتظار ذلك فإن المفعول على الأرض سيكون رهيباً لأن قادتنا سيساورهم الشعور بأننا لا نستطيع أن نتكلّم مع الممثلين الفلسطينيين. ولسوف يخرج المتطرفون من كلا المعسكرين وقد تعزّزت مواقعهم، ولسوف يموت أيضاً كثير من الناس. لكن ما دامت هذه هي الطريق التي اخترتموها، فلتكن الأمور كذلك.

كانت مداخلة سافير باردة، جافية. وتدخّل هرشفلد بدوره، ولكن بقدر أكبر بكثير من الانفعال. بل لقد بدا على شفا البكاء وتهدّج صوته من الغضب:

ـ لقد وعدتكم بأن حوارنا الاقتصادي سيتمخّض عن شيء بنّاء أكثر بكثير، ولقد وفيت بتعهداتي. فحكومة إسرائيل تجري مفاوضات سرية معكم. ولقد وعدتكم بأننا سنتوصل إلى اتفاق شامل. ولقد تمّ ذلك. ولقد التقينا على التفاهم، وها أنتم ترتدّون عنه. إنها لمأساة لكم ومأساة لنا.

خرج أبو العلاء وحسن عصفور من الغرفة، باديي التأثر، بدون أن ينبسا ببنت شفة. ولكن بعد بضع ساعات سيتمّ ردم الهوة. ومرة أخرى يكون الإسرائيليون، ببذلهم الجهود المطلوبة، قد فرضوا وجهة نظرهم.

لم يبقَ أمام الفريقين سوى هدف واحد: توقيع الاتفاق بأسرع ما يمكن.

وبعد بضعة أيام عقد في سفارة النرويج بباريس اجتماع. التقى أبو العلاء وبيريز مطولاً، ثم استؤنفت المناقشات مع سنجر وسافير. بدأت في الساعة ٩ صباحاً، ولم تنتهِ إلا في الساعة ٤ من صبيحة اليوم التالي. تقدّم الفلسطينيون باقتراح جديد يذلل عملياً جميع المشكلات السابقة. وطبقاً لما سيقوله سنجر فإن «الاتفاق كان قد أمسى إلى حد كبير بحكم الحاصل. ولقد بات المطلوب الانتهاء منه بسرعة».

وكما سيكتب إيف كيو في مجلة الإكسبريس: «إن الطريق التي تمر بجحيم غزة وعذوبة أريحا صعبة، بل شبه مدوخة. وليس للمرء إلاّ أن يتمنّى أن يكون سالكوها قد أحسنوا قراءة إنجيل لوقا، الإصحاح ١٣، الآية ٢٤: «اجهدوا لتدخلوا من الباب الضيق».

١٤

مصر تتوسط

يبدو أن جميع الأزمات الطارئة في أوسلو تجد حلها على ضفاف النيل. فعرفات قدم إلى مصر لهذا الغرض مراراً، وكذلك فعل بيريز ورابين، كل بدوره. ومع ذلك قيل إن القاهرة ليست إلّا صندوق بريد. مجرّد ساعي بريد يسعى وراء بعض المساعدات المادية. من نصدق؟

لقد بدا لنا مهماً، في هذا الطور من أبحاثنا، أن نذهب إليها نحن أيضاً.

إن ساعة السلم في الشرق الأوسط قد دقّت من قبل عدة مرات في القاهرة. وفي كل مرة تراءى لوسطاء من ذوي الإرادة الطيبة أنهم يقتربون من الهدف وأنهم الشهود على اللحظة السحرية التي يمكن أن ينقلب فيها كل شيء رأساً على عقب.

حزيران/ يونيو ١٩٧٠. في مكتب مفروش بثلاثة مقاعد من الجلد الأخضر أجرينا مقابلة صحفية مع أقرب أصدقاء عرفات إليه، صلاح خلف الملقب بأبي إياد، المؤسس الشريك لحركة فتح، والرجل البارز في م.ت.ف. وعلى المقعد الثالث كان يجلس أبو الهول، رئيس جهاز الأمن في م.ت.ف.

قال لنا أبو إياد: «إننا نهيء قوة أردنية ـ فلسطينية. سوف نأخذ السلطة في عمان ونتفاوض على استعادة الأراضي والسلم مع إسرائيل. إن المستقبل لهو في دولة أو اتحاد كونفدرالي أردني ـ فلسطيني».

بعيد ذلك بقليل كان أيلول الأسود. وأبو إياد نفسه سيتمّ اغتياله في وقت لاحق، في ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ في تونس، على أيدي فلسطينيين يعملون تحت إمرة أبي نضال.

كان مضيف تلك المحادثة حول السلم المجهض لطفي الخولي، الكاتب في الأهرام واليساري على طريقة أهل بلده، أي الظريف والمرح والمعادي لإسرائيل. وقد نقل إلينا في عام ١٩٧٣ دعوة الأمين العام للاتحاد الإشتراكي العربي، سيد مرعي، لحضور ندوة حول العلاقات الفرنسية ـ المصرية في القاهرة التي تنتصب حولها تلك الأهرام الشاهقة التي شارك في بنائها بعض الأسرى من أسلافنا قبل خمسة آلاف عام. . . ومع ذلك، فقد ذهبنا إليها، بلا جدال.

كانت قاعة الاستقبال في فندق شيراتون تعجّ بالناس. شقّ لنا ممثل الاتحاد الاشتراكي المرافق لنا الطريق بمرفقيه إلى مكتب الاستقبال. حدثت حركة في صفوف الجمهور المحتشد وظهرت مجموعة من المسؤولين يحيط بها عشرة من رجال الشرطة. في الوسط أنور السادات وبطرس بطرس غالي، وزير الشؤون الخارجية يومئذٍ.

سألنا بطرس غالي:

ـ ماذا تفعلان في القاهرة؟ تعاليا، سأقدمكما للرئيس.

وهمس بطرس غالي في أذن الرئيس ببضع كلمات، فتملانا السادات لحظة قبل أن يقول بالإنكليزية:

ـ أأنتما قادمان من إسرائيل؟

ـ كلا، يا سيدي الرئيس، بل من الولايات المتحدة، من ندوة في هارفارد.

ـ أتكلمتم عن الشرق الأدنى؟

ـ كلا. بل عن السلام في الشرق الأدنى.

ـ أتعتقدان أنه ممكن؟

ـ وأنت، يا سيدي الرئيس؟

ابتسم السادات وسألنا ماذا نفعل في القاهرة، ثم عرض علينا أن نتناول القهوة معه في بار الفندق.

كان أول شيء قلناه هو أن العرب المصريين واليهود البولونيين يتكلّمون الإنكليزية بلكنة متماثلة... روينا له مساعينا من أجل السلام، وسألنا عن إسرائيل. كان يكثر في حديثه من الصيغ اللامتوقعة، ويشير إلى نهر الأردن بوصفه «تلك الساقية التي يسيل فيها من التاريخ أكثر مما يسيل من الماء».

ـ هل تعتقدان حقاً أن إسرائيل تريد السلام؟

ـ إذا كنت تشك، ففي وسعك أن تضع إسرائيل موضع الاختبار.

ابتسم السادات بملء وجهه:

ـ كيف؟

ـ تكلم معها. إن اليهود يؤمنون بقدرة الكلمة.

قهقه الرئيس المصري ضاحكاً:

ـ أتريدان أن أذهب إلى القدس لأتكلم مع السيدة غولدا مائير؟

ـ لم لا؟

ـ حتى نتكلم حقاً، فلا بد أن نكون على قدم المساواة، والعالم العربي يشعر، عن خطأ أو صواب، أنه مذلّ.

ـ لكن العالم العربي شاسع وإسرائيل صغيرة جداً!

ـ بالضبط.

مسح السادات شاربيه وشفتيه:

ـ إذا عدتما إلى مصر فأخطراني، فسيسرني أن ألقاكما ثانية.

تقدم خطوة نحو المخرج، ثم التفت نحونا ليقول:

ـ تابعا الكلام عن السلم في الشرق الأدنى: فإننا، نحن العرب، نؤمن بدورنا بقدرة الكلمة!

كان هذا اللقاء اللامتوقع أشبه بحلم. وتبدّد السراب بعد أشهر قليلة، في يوم الغفران. الحرب. فمصر هاجمت إسرائيل.

شعرنا بأننا قد غُدر بنا. لقد كان واحد منا قد عرف حرباً في يوم الغفران، وذلك في وارسو عام ١٩٣٩. لا جدال، لا جدال البتة: فليس ثمة من علاقة بين الشيئين، لكن المرء ليس سيد ذكرياته، وبدلاً من بيانات الراديو، فقد كان يتراءى له وكأنه يسمع زعيق الطائرات الألمانية المنقضة. وكادت إسرائيل تخسر الحرب، ثم كسبتها في النهاية بمجهود رهيب، ومع ذلك لم تهتدِ إلى وسائل السلام.

بعد أربع سنوات، في أيار/مايو ١٩٧٧، حدث تغيّر سياسي كبير في إسرائيل. خسر حزب العمل الانتخابات لأول مرة منذ ثلاثين سنة وتخلّى عن السلطة لليكود. وصار مناحيم بيغن رئيساً للوزراء. لقد كان هذا الرجل اليميني المتطرّف قد كاشفنا ذات يوم بأن قلبه إلى اليسار ـ لا يندر أن يسمع المرء مثل هذه المفارقات من فم أشباهه في هذا العالم. ولقد كان فيما غبر رئيساً للإرغون، تلك المنظمة التي قاومت بالسلاح الانتداب البريطاني والتي تميّزت عن غيرها من المنظمات، مثل الهاغانا، بأعمالها الإرهابية الشديدة ضد السكان العرب. واعترى العالم بأسره القلق: فبيغن لن يصنع السلام أبداً، بل إن تصلّبه قد يتسبب في حرب جديدة. ولطالما استشهد المستشهدون بقولة قديمة لبن غوريون: «إذا وصل بيغن إلى السلطة ذات يوم، فسيقود البلاد إلى هلاكها». واليوم قد بات بن غوريون في عداد الأموات. والناخبون، الذين كفلوا النصر لبيغن، لم يبالوا بأصوله البولونية الاشكنازية، وكانوا في غالبيتهم من السيفارديم.

لقد تبدّل الجو في إسرائيل. فما تبقّى من روح الرواد آخذ بالذوبان في مجتمع الاستهلاك، والنوّاب يضعون الآن ربطات عنق كيما يحضروا جلسات الكنيست.

موشي دايان صار وزيراً للخارجية. وكما في كل مرة نلتقيه فيها كرّر بأنه يتمنّى لو يلتقي عرفات لقاء الرجل بالرجل. وكان عرفات موجوداً في تلك الفترة في القاهرة، حيث كان في مستطاع لطفي الخولي، على ما نفترض، أن يجتمع وإياه. وبينما راح لطفي يسعى إلى تنظيم لقاء مع رئيس م.ت.ف، وفّق

السادات بوعده القديم واستقبلنا.

كان من المفترض بالرئيس المصري أن يلقي في الغد خطاباً أمام مجلس الشعب.

قال وهو يغمز بعينيه الطيبتين باسماً:

ـ خطاب مهم. أنتما تعرفان كيف يكون العمل في السياسة: يمتطي واحدنا الحصان، ويروح يخبّ، ويلحق به الآخرون إذا استطاعوا، أليس كذلك؟ حسناً، أمّا أنا فسأمتطي صاروخاً! ولسوف تريان كيف سيجري خلفي جميع أولئك الساسة العجائز مبهوري الأنفاس! إنهم سيتضرعون إليّ كيما أتركهم يستردون أنفاسهم!

لم نفهم شيئاً.

في اليوم التالي نقلت التلفزة الخطاب. الحصان، الصاروخ، كل شيء أضحى واضحاً حينما أعلن السادات:

ـ إنني مستعد لأن أذهب إلى أقصى العالم لأوفّر حياة واحد من أبنائي. إنني مستعد لأن أذهب إلى الشيطان. بل إنني مستعد لأن أذهب إلى إسرائيل.

انفجر مجلس الشعب بالتصفيق.

أمام التلفاز كان ياسر عرفات يشاهد هو أيضاً من القاهرة النواب المصريين يصفقون. ولم يتسنَّ لنا هذه المرة أن ننقل إليه بأنفسنا محاولات موشي دايان للتقرّب. لكن الإسرائيليين بات عندهم من الآن فصاعداً محاور. وجاء عن طريق التلفزة أيضاً ردّ بيغن على السادات:

ـ إننا، نحن الإسرائيليين، نمدّ إليك أيدينا، فلنصنع السلام.

سار كل شيء بسرعة. ففي ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٩٧٧ تلك، أذن الكنيست الإسرائيلي لرئيس الوزراء بدعوة الرئيس المصري. وفي صبيحة يوم ١٩ حطت طائرة أنور السادات في تل أبيب.

عام ١٩٩٣. هانحنذا من جديد في القاهرة، نتقفّى أثر شبكات السلام.

مبانٍ ضخمة لا أسلوب لها ولا طراز تحف النيل من طرفيه، والفنادق تغطي الجزر، والليل يومض باللافتات الإعلانية. اختفت عن الأنظار تلك المراكب البيضاء المحمّلة بالقطن، والمياه السوداء والبطيئة تحمل مراكب سياحية لا تقل بشاعة عن مراكبنا. المدينة تغيّرت تماماً منذ خمسة عشر عاماً، لكن سكانها ما زالوا هم هم. الجموع تزدحم في مثل الكثافة التي عليها الشوارع في الهند. والمصريات ما زلنا ينجبن مليون طفل سنوياً. والتكسي الذي يقلّنا إلى البرلمان قد عنّ له، ويا للتهور، كيما يختصر الطريق، أن يخترق متاهة سوق خان الخليلي. الأزقّة مكتظة بالناس إلى حد بات متعذراً معه على السائق أن يتقدم أو أن يتراجع. أخذنا الذهول عندما أحسسنا بالسيارة ترفع وتحمل من ذراع إلى ذراع لمسافة عدة أمتار، إلى حيث مفترق الطرق، من قبل جمهور المارة الذين فعلوا ذلك بلا جهد، والابتسامة لا تفارق شفاههم.

ابتسم لطفي الخولي هو أيضاً. إنه ما زال يتربّع على عرش مكتبه في «الأهرام»، الفسيح والفارغ. والمقاعد الجلدية الخضراء الثلاثة لا تزال في ركنها عينه منذ حزيران/ يونيو ١٩٧٠. وها هو لطفي الخولي يتذكّر تصريحات ذاك القائد الفلسطيني من على المقاعد نفسها. قال وهو يتنهّد:

ـ أجل، كان يمكن أن نتتهي إلى السلام في وقت أبكر. لكن ذلك كان يقتضي أن يتغيّر البشر. أو أن يموتوا...

بعضهم تغيّر، وبعضهم مات، والسلام قد وقّع.

من كان، في مصر، مطلعاً على مجرى مفاوضات أوسلو؟

إن رئيس وزراء السادات الأسبق، مصطفى خليل، الذي كان أحد مهندسي اتفاقيات كمب ديفيد، يؤكّد أن ثلاثة رجال فقط كانوا على علم بها: الرئيس مبارك، ومستشاره أسامة الباز، الذي أورثه إيّاه السادات، ووزير الشؤون الخارجية عمرو موسى. وأكّد لطفي ذلك، بل عرض تدبير مقابلة مع الباز. من سوء الحظ أن الباز اعتذر في اليوم التالي عن الموعد لأنه كان يتعين عليه أن يحرر خطاب تنصيب حسني مبارك الذي جدد الناخبون بيعته لثالث مرة

لست سنوات قادمة أخرى بنسبة ٩٦ بالمئة من الأصوات. ودُعينا إلى حضور مراسم الاحتفال، واستمعنا إلى الخطاب، ولكن بدون أن نحصل على موعد آخر مع الباز. فعليه أن يعمل في تشكيل الحكومة الجديدة وفي تهيئة سفرتين للرئيس مبارك ـ واحدة إلى أديس أبابا لحضور مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية وأخرى إلى واشنطن للقاء كلنتون . وفي اليوم التالي أُخطرنا من باريس بأننا مطلوبان في إسرائيل. فثمة رجل أعمال مقرب من شيمون بيريز، هـو نمرود نوفيك، يريد إبلاغنا بشيء مستعجل. طلبنا تل أبيب. إنه لشيء مدهش أن تسمع بالهاتف القاهري صوتاً يجيب بالعبرية. وازدادت دهشتنا عندما علمنا ما يريده نمرود نوفيك. إنه يفتش عنا بطلب من سفير مصر في إسرائيل. . . وهذا بدوره يفتش عنا بطلب من أسامة الباز: فالمستشار قد وجد فراغاً في مفكرة مواعيده في اليوم التالي صباحاً، لكي يكشف لنا عن دور القاهرة في مفاوضات أوسلو.

لا شيء نستطيع فعله غير انتظار الغد. في وسعنا أن نجلس، أن نتوقف في مكان ما. ولكن سننتهي بالرمل وقد غطانا. فالصحراء المجاورة تهب رياحها على قلب القاهرة وتذر رمالها على حوافي النوافذ وعلى طاولات المقاهي. وليس أسهل من أن يدع المرء هذه الرمال تدفنه. وهذا له إغراؤه. حسبه أن يتوقّف لهنيهة من الزمن. لكن ما إن اقترح لطفي أن نشترك في ندوة حتى قبلنا بلا تردد. ندوة حول عملية السلام في الشرق الأدنى، مع سفراء الدول المعنية.

ألا كم أحسنَّا صنعاً! كان في جملة الحضور معارف قدامى لنا، ومنهم سعيد كمال ودافيد سلطان. الأول رجل طويل خشن، جهير الصوت، سفير فلسطين في القاهرة، والثاني سفير اسرائيل في مصر، قاهري المولد. وتناولنا طعام العشاء مع الأول، ثم احتسينا القهوة في صباح اليوم التالي مع الثاني. وصحّحا بعض التواريخ، وأغنيا معلوماتنا، وعرّفانا إلى أشخاص جدد.

ثمة طرازان من المصريين: أحفاد الفراعنة والفاتحون العرب. الأوائل ذوو وجوه مفتوحة وهادئة، وجباه مبسوطة، وأكتاف مربعة، وابتسامة عريضـة. والثانون أصغر قامة وأكثر حركة، وأكثر تحفظاً أيضاً. وإلى الفئة الثانية ينتمي

أسامة الباز، بينما ينتمي إلى الأولى عمرو موسى، مثل عبد الناصر ومبارك.

حين زار الرئيس المصري فرنسا في تشرين الأول/ اوكتوبر ١٩٩٣، طرحنا عليه بعض الأسئلة، ولكننا تمكّنا من أن نقابل وزير خارجيته لحسن الحظ لمدة أطول. وقد استقبلنا على طعام الفطور في فندقه. أطلّت امرأة، وكلمته لهنيهة، ثم استدارت عائدة، كالدوامة، إلى طاولتها. وإزاء الدهشة التي بدت علينا قال عمرو موسى بصوت خافت: «أما تعرفتها، شولاميت آلوني وزيرة التربية الإسرائيلية!». وبالفعل، على بعد بضع طاولات منّا، كانت مجموعة تحيط بسفير إسرائيل في فرنسا. ولم يتأخروا في الانضمام إلينا ليثرثروا معنا جميعاً، وكأنّ الحقد لم يفرّق بينهم على مدى خمسة وأربعين عاماً بتمامها.

١٥

أميركا المعمى على بصرها

طار وارن كرستوفر، وزير الخارجية الأميركي، في نهاية شهر تموز/ يوليـو للقيام بجولة في الشرق الأوسط. زار إسرائيل وسورية ومصر ولبنان. وقد وصل في اللحظة عينها التي كانت تتصاعد فيها المـواجهات، في جنـوبي لبنان، بـين الجيش الإسرائيلي ورجال حزب الله.

لم يكن كرستوفر من أصحاب الرؤى، ولا جهبذاً من جهابذة السياسة. فهذا المحامي المختصّ بالدعاوى التجاريـة، والمقيم في لوس أنجلوس، كـان الرجل الثاني في وزارة الخارجية أثناء إدارة كارتر؛ وقد ترك في الذاكرات، بعد أن شارك في المفاوضات حول اتفاقيات كمب ديفيد، صورة رجل قادر على المضي في التصميم إلى درجة العناد، ولكن بدون بريق. وفي الواقع، كان كرستوفر ينوء تحت وقر مهمة ساحقة. فقد كان عليه أن يقود دبلوماسية أميركية باتت محرومة مذ ذاك فصاعـداً من مركـز ثقل وجـاذبية. فـانهيار الشيـوعية والأمـبراطوريـة السوفياتية قد جرد الولايات المتحدة من نقطة ارتكاز أساسية: إذْ لم يعد هناك عدوٌّ له الأولوية على ما عداه ويتيح بالتالي لواشنطن أن تجمع حولها، من خلال تحالف طيِّع، بلدان أوروبا الغربيـة والعديـد من الأنظمـة المعاديـة للشيوعيـة والمزروعة عبر العالم. فنهاية الاتحاد السوفياتي، في كانون الأول/ دسمبر ١٩٩١، قد دقّت ناقوس عصر بأكمله. وكان كرستوفر يعرف ذلك، لكنه بدا عاجزاً عن تصوّر معالم نظام دولي جديد.

كان سلفه، جيمس بيكر، قد صرح: «لقد حطمت الولايات المتحدة الشيوعية بكسبها الحرب الباردة. وقد حطمت أيضاً الراديكالية العربية بكسبها حرب الخليج».

وما كان وزير الخارجية الأميركية الجديد ينكر هذا التحليل في جلساته الخاصة. لكن على حين كان بيكر يستطيع الاعتماد على رئيس، جورج بوش الذي كان يدلل على فاعلية حقيقية في مضمار السياسة الخارجية، كان كرستوفر لا يستطيع الاعتماد على أحد غير نفسه. فاجتماعات الحكومة الأميركية كانت تجري على منوال جامد. فكلّ مشكلة من مشكلات السياسة الداخلية كانت تثير تبادلاً معمقاً لوجهات النظر بين بيل كلنتون ومعاونيه. وبالمقابل ما كان يثار أي موضوع من موضوعات السياسة الخارجية، سواء أتعلق الأمر بالبوسنة أم الصومال أم روسيا أم الشرق الأوسط، حتى يستدير الرئيس الأميركي نحو كرستوفر:

ـ عليك أنت أن تعالج هذا الملف، أيها السيد وزير الخارجية.

ولسوف يقول لنا أحد المشاركين في هذه الاجتماعات: «ما رأيت قط بيل كلنتون يكرّس أكثر من خمس دقائق لمشكلة دولية».

وقد شبَّه العديد من المراقبين السياسة الخارجية لرئيس الولايات المتحدة بكعكة الـ دونت» المفرَّغة في وسطها التي يقدم الأميركان على تناولها بشراهة. وكما قال أحد أولئك المراقبين: «إنه الفراغ، فنحن لم يعدْ لدينا محور للأولويات. ولا نبدي اهتماماً إلاّ بالمواضيع الثانوية، المحيطية».

عند وصوله إلى الشرق الأدنى أدلى رئيس الدبلوماسية الأميركية، وهو رجل قصير القامة، نحيفها، حزين الوجه، بتصريح مدهش: «جئت لأهدّىء هواجس الفلسطينيين والإسرائيليين الذين أقلقتهم عشرون شهراً من مفاوضات غير مثمرة في واشنطن». وأضاف قوله: «إن إسرائيل بحاجة إلى ضمانات جديدة إثباتاً لها أن الولايات المتحدة لن تتخلى عنها أبداً». وقد صعُب على رابين وبيريز أن يقمعا الابتسامة التي ارتسمت على وجهيهما إزاء هذا القدر من الجهل والسذاجة.

كان كرستوفر يبدي عن عناد غريب في نوعه، أسهم، عن غير إرادة منه، في تسريع عقد اتفاق سري. فقد كان يضع في مقدمة أولوياته الوصول إلى تفاهم بين إسرائيل وسورية. وكان يودّ أن يرى سورية تسير في طريق «سلام شامل» لقاء انسحاب القوات الإسرائيلية من هضبة الجولان المحتلة منذ عام ١٩٦٧ والمخضعة للقانون الإسرائيلي من قبل الدولة العبرية في عام ١٩٨١.

بيد أن رابين، مثله مثل أبي هول حقيقي، لم ينبس ببنت شفة إزاء اقتراح كهذا. ولكنه في مجالسه الخاصة كان يسر إلى المقربين إليه: «إن الأولوية بالنسبة إلينا تكمن في الوصول إلى اتفاق مع م. ت. ف. وشرحُ ذلك للرأي العام الإسرائيلي أمر دقيق إلى حد لا يحيجنا إلى أن نفتح، في الحال، جبهة ثانية تجاه سورية».

في ٤ آب/ أغسطس، في القدس، لم يكاشف أحد كرستوفر وفريقه بالمناقشات السرية الدائرة مع المنظمة الفلسطينية. لكن عرفات كان يتتبع زيارة وزير الخارجية الأميركي بقلق، إذْ كان يخشى، بالفعل، أن تسبقه الأحداث باتفاق تمضيه سورية وإسرائيل.

قال لنا أحد معاونيه لاحقاً: «كان يخشى أن يغادر القطار المحطة بدونه، وما كان يريد أن تتكرر التجربة المُرَّة الأولى التي عاشها قبل أربع عشرة سنة عند توقيع الاتفاق بين مصر وإسرائيل».

إن الأمين العام للأمم المتحدة، بطرس بطرس غالي، يتذكّر تماماً تلك المرحلة. فقد كان يومئذٍ الرجل الثاني في الدبلوماسية المصرية: «كنت في باريس، في فندق كريون، يوم ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٨، وكنت أفاوض على كمب ديفيد. وكان السادات يعتقد أنه يتعين علينا أن نسوّي، بالإضافة إلى سيناء، مسألة قطاع غزة، الموكول إلى مصر، وسائر الأراضي المحتلة العائدة للأردن. ومن ثمّ فقد سأل إن لم يكن ثمة إمكانية لتطبيق الشطر الثاني من اتفاقية كمب ديفيد على غزة أولاً. وقد رفض عرفات وبيغن ذلك رفضاً قاطعاً، وقال لي السادات: (ما دام لا أحد يريده فلا داعي لأن نلحّ. إنها لم تعدْ

مشكلتنا». لو فعلنا لكنّا ربحنا خمسة عشر عاماً».

إنّ عرفات لم ينسَ ذلك. وهو يعرف أيضاً أن كمب ديفيد كان يعطي السكان داخل الأراضي المحتلة حكماً ذاتياً ضمن صيغة أضيق من تلك التي يفاوض عليها حالياً، لكنّه ندم بمرارة على كونه لم ينتهز الفرصة.

في سورية، التقى وارن كرستوفر بالرئيس الأسد لمرتين على التوالي. ولقد أثبت الرجل، المتربّع على سدة السلطة في دمشق منذ ثلاث وعشرين سنة، أنه في مستوى السمعة التي ذاعت عنه. فببراعة لامتناهية أسمع الأميركي الكلمات التي كان هذا الأخير يودّ سماعها.

وفي ختام تلك المحادثات صرح الأميركي بزهو: «أعتقد أننا أنقذنا العملية الجارية». وكان المقصود: ما بين إسرائيل وسورية.

كانت كلمات سريالية، منطوقاً بها في منطقة غالباً ما تتحدى كل منطق. وكرستوفر، الذي يعتقد أن اتفاقاً بين إسرائيل وسورية هو العمود الفقري لكل سلام مقبل، دافع عن هذا الملف بضراوة.

أمّا كلنتون فكان يمضي عطلته في مارتنز فاينيارد، وهي جزيرة كثر الإقبال عليها مؤخراً، غير بعيد عن بوسطن، بعد أن سبقه إلى غزوها مئتان من رجال حرسه. وقد أمضى أيامه بصحبة آل كنيدي الذين يقطنون في الجوار، ولعب الغولف مع هيلاري، وتناول طعام العشاء مع الكاتب وليم ستايرون أو كاترين غراهام، المالكة الثرية لجريدة واشنطن بوست. رسمياً، كان كلنتون «يقاوم» إغراء التدخل في شؤون السياسة الخارجية. وهذه الصيغة التي فاه بها أحد مستشاريه حملت المراقبين والخبراء على الابتسام، وقد صحّح أحدهم بقوله: «إنه بالأحرى العدم المطلق في المسائل الدبلوماسية».

ما كاد كرستوفر يعود إلى العاصمة الأميركية حتى أُعلم بالتقدُّم الذي أحرزته «القناة النرويجية». وكان التقرير الذي بين يديه، والصادر عن هولست وايغلند، المسؤولين عن دبلوماسية أوسلو، يصف بالتفصيل كل ما تمّ الاتفاق عليه. ومع ذلك لبث كرستوفر على تشكّكه. وشجعه دنيس روس ـ وكان إلى جانبه ـ على المضي قدماً في هذه الطريق. وجاء جواب وزير الخارجية: «إنهم لن

يتوصّلوا أبداً إلى تحويل اتفاق للمبادىء إلى سلم دائم».

وفي الحقيقة، كان كلنتون وإدارته يظهران عدم اهتمام متزايداً بعملية السلام التي أطلقها بوش وبيكر في مدريد. ووجد إسحق رابين نفسه أمام وضع محيِّر. فالديموقراطيون يبدون تجاه إسرائيل من المحاباة أكثر بكثير مما كان يبديه سابقوهم، ولكنهم كانوا يشبهون، على حد تعبير أحد معاوني رئيس الوزراء «طبيباً ساهراً كل السهر على مريضه ولكنه عاجز عن وصف علاج له».

أثارت تلك الجولة التي قام بها الوفد الأميركي في الشرق الأوسط أزمة مفتوحة بين عرفات ومسؤولي الداخل الفلسطيني الذين يفاوضون في واشنطن. وقد قالت لنا حنان عشراوي لاحقاً: «كنّا نعلم أن وفدنا قد تمّ تركيبه ليمهد الطريق أمام مفاوضات من وراء الكواليس».

وما كان مثل هذا الكلام ليخفي المرارة. فمنذ عدة أسابيع كانت نتف من المعلومات تصل إلى أعضاء ذلك الوفد. فهم يعرفون أن المفاوضات التي ما ينفكّون يجرونها منذ واحد وعشرين شهراً مقطوع عليها الطريق تماماً. وتهيأ فيصل الحسيني وحنان عشراوي لتقديم المقترحات الفلسطينية الجديدة إلى كرستوفر عندما اكتشفا فجأة أن عرفات قد أبلغ الأميركي نصها، يوم ٩ آب/ أغسطس، عن طريق المصريين. والأدهى من ذلك بعد، في نظر فلسطينيي الداخل، أن المحتوى قد جرى تعديله. فقد قدم عرفات، في الصياغة، تنازلات مهمة، ولا سيما حول مستقبل وضع القدس الذي قبل بأن تتمّ مناقشته في المرحلة الختامية بينما كان الوفد يطالب بأن يطرح هذا الملف على بساط البحث حالاً.

دارت مواجهة حقيقية عندئذٍ بين تونس و«بيت الشرق»، مقرّ فلسطينيي الداخل الكائن في القدس الشرقية. وثارت مرارة فيصل الحسيني وحيدر عبد الشافي. وأمرهما عرفات بأن يقدما رسمياً لكرستوفر الوثيقة المعدلة. فرفضا، وقرر عبد الشافي أن يقاطع زيارة الأميركي، بينما سيلتقيه الحسيني وعشراوي لمدة خمس عشرة دقيقة ليقدما إليه الوثيقة المعدلة. وقد ذكر لنا أحد معاوني كرستوفر

أنه «كانت بادية عليهما المرارة والخيبة»، وأضاف: «كانا ممزّقين بين الوفاء والتمرد. وكنا نعتقد أن هذه الخلافات داخل م. ت. ف ستجعل التوصّل إلى اتفاق أمراً بعيد الاحتمال».

حتى اللحظة الأخيرة قاتل الحسيني وعشراوي كيما يحصلا من عرفات على تعديلات في الوثيقة. إنما بلا جدوى. وفي إحدى اللحظات بلغ من شدة التوتر على الهاتف أن صاح رئيس م. ت. ف بمخاطبيه:

ـ عندما يكون المرء ساعياً مكلفاً بنقل البريد، فإنه لا يفتحه.

كان التشبيه جارحاً إلى حد حمل الحسيني وعشراوي وعبد الشافي على التفكير بالاستقالة. وكان مأخذهم على عرفات أنه يبيع نضال الفلسطينيين وأهدافهم بالرخيص لقاء قطعة أرض لن يقيض لها أن تكون أكثر من كاريكاتور دولة. ولكنهم سرعان ما انتظموا في الصف ورضخوا. فرئيس م. ت. ف لا يغفر أي خروج على سلطته.

بعد بضعة أيام، في منتصف آب/أغسطس، جازف أسامة الباز باللعب بالنار. فقد استقبل هنري سيغمان، رئيس المؤتمر اليهودي الأميركي الواسع النفوذ. فلطالما عارض «اللوبي اليهودي» في الولايات المتحدة بشراسة أدنى حوار مع م. ت. ف. وتبادل سيغمان والباز وجهات النظر بمودة. وفي إحدى اللحظات سأل الأميركي:

ـ هل تعتقد أن مفاوضات واشنطن ستخرج في النهاية من المأزق وتحرز تقدماً؟

فرمقه الباز بنظرة هازئة قبل أن يجيب:

ـ سيدي الرئيس، إذا كنت تريد أن تترك عينك على الكرة، فاسمح لي بأن أعطيك نصيحة. إن الكرة ليست في واشنطن. . . بل في أوسلو.

شُدِه سيغمان. إنه يعرف أن العاصمة النرويجية تستضيف رسمياً مفاوضات متعددة الأطراف وذات طابع فني صرف. ولقد بدا له كلام المصري أشبه بنكتة. ولسوف يحدِّث معاونيه عن الموضوع وهو يهز كتفيه قائلاً: «أوسلو، إن هذا لعبث حقاً!».

أثناء ذلك كان المتفاوضون، المنعزلون في قلب الغابة الإسكندنافية، يتابعون مباراتهم. فالمشروع لا بد أن يكون جاهزاً قبل ١٤ أيلول/ سبتمبر، آخر يوم في تلك الجولة من مباحثات واشنطن. وقد تقدم الفلسطينيون باقتراح خيار «غزة - أريحا» عن جهل منهم، بطبيعة الحال، بأن الفكرة إنما أطلقت من قبل بيريز. وحينما صاغ أبو العلاء هذا الاقتراح، أجابه يوئيل سنجر:

- سأكلم رابين في الموضوع.

وحينما عادا إلى الإلتقاء قال المحامي للفلسطيني:

- أطلعت رئيس الوزراء على مطالبكم بخصوص أريحا، فلم يقفز من فوق كرسيه.

وفي الواقع، كان سنجر يؤيّد ذلك الخيار. وقد شرح لرابين بأن تلك «نقطة بالغة الأهمية بالنسبة إلى الفلسطينيين».

وبالمقابل أبدى أوري سافير قدراً أكبر بكثير من التحفّظ، ولم يحجم حتى عن الإعلان أثناء اجتماع فيما بين المسؤولين الإسرائيليين: «لا يجوز أن تشكّل أريحا جزءاً من الإتفاق».

وفي الحقيقة، ما كاد المبدأ يُقر حتى ظهرت الخلافات بين الوفدين في مقاربتهما له. فقد اقترح الإسرائيليون منح الحكم الذاتي لمدينة أريحا وحدها، بينما طالب الفلسطينيون بأن يشمل هذا الحكم الذاتي جملة القضاء. وألحّ سنجر على أن يبقى سدس مجموع السلطات الفلسطينية متمركزاً في أريحا. وأثيرت مسألة مهمة أخرى: أين سيمارس المجلس الفلسطيني سلطته كما يلحظها النص؟ أعلى غزة وأريحا وحدهما أم على جملة الأراضي؟

ونقطة دقيقة أخرى كانت مثار خلاف. هل ستحول السلطات كافة إلى الفلسطينيين أثناء المرحلة الأولى، أو جزء منها فقط؟

منذ أواسط شهر حزيران/ يونيو كان إسحق رابين قد كاشف يوئيل سنجر بأهدافه: «حال التوصل إلى الإتفاق سننقل النتائج، بدون أن نكشف شيئاً منها، إلى الوفدين الإسرائيلي والفلسطيني المتواجدين في واشنطن. وعلى هذا النحو

سيكون في مستطاعنا تفادي ما قد يؤخذ علينا من كوننا أجرينا مفاوضات رسمية مع م. ت. ف».

كان الرجلان يتناقشان في مساء أحد أيام الصيف في منزل رئيس الوزراء. وقد رد سنجر للحال:

ـ سيكون هذا نهجاً رديئاً. لعدة أسباب. فإنه لضرب من الوهم والخيال، يا سيدي، أن نتصوّر أنه سيكون في مستطاعنا أن نأخذ ذلك الاتفاق الأولي ونبعث به إلى واشنطن ليوقعه وفدنا كما لو أنه مشروعه الخاص.

حدّقت عينا رابين الزرقاوان في سنجر بفضول:

ـ لماذا؟

ـ أولاً لأنني مقتنع بأن أعضاء وفدنا سيرفضون توقيعه. ثانياً، أعتقد أنه لا بد من عقد اتفاق بين إسرائيل و م. ت. ف يتبادل بموجبه الطرفان الاعتراف أحدهما بالآخر.

ـ مستحيل. هذا أكثر مما يطاق.

كانت لهجة الإسرائيلي الأول قاطعة، كما لو أن كلام محدثه قد جرحه.

أصر سنجر، بدون أن يبدي تأثراً بتلك الحركة المزاجية، قائلاً:

ـ من المؤكّد أنه سيحصل تسرب وسينكشف أن إسرائيل فاوضت م. ت. ف. فماذا سيحدث عندئذٍ؟ سيكون بلدنا قد تخلى بكل بساطة عن موقفه التقليدي القائم على عدم التفاوض مع المنظمة الفلسطينية بدون أن يحصل على شيء بالمقابل. فما دمنا نقبل بالتناقش معهم، فلا بد أن يلتزموا بوعود كثيرة، وقبل كل شيء بترك الإرهاب وبالاعتراف بحق إسرائيل في الوجود.

ـ بوعود كثيرة. . .

ردد رابين العبارة بلهجة متهكمة ثم أضاف:

ـ . . . بصراحة، لا أعتقد أن م.ت.ف موافقة على أن تقطع لنا تلك الوعود.

ـ لنحاول.

ـ كلا، يجب أن نرجىء ذلك إلى ما بعد.

ـ إلى ما بعد سيكون الأوان، يا سيدي رئيس الوزراء، قد فات. فما إن يذيع نبأ هذه المفاوضات حتى تكون م. ت. ف قد حصلت من إسرائيل على اعـتراف شبه رسمي هـو لها كـافٍ. وعند ذاك لن تكـون مستعدة لمـزيـد من الالتزامات.

لم يقع السيناريو الذي اقترحه سنجر موقعاً حسناً لدى رابين وبيريز. وكما سيقول أحد المقربين إليهما: «الكلام مـع م. ت. ف شيء، ولكن الاعتراف رسمياً بالخصم الذي طالما حاربـاه بعنف طيلة ثلاثـين عامـاً كان يتـطلّب من الرجلين مجهوداً نفسياً جباراً».

ولكن سنجر، الذي كان من رأيه أن ذلـك عنصر أساسي في أي اتفـاق مقبل، راح يضغط لحمل رابين على تغيير موقفه.

وفي أثناء لقاء جديد اقترح صياغة «مشروع موازٍ يتضمن تفاصيل اعتراف متبادل بين إسرائيل و م. ت. ف».

ومن جديد أجاب رابين:

ـ كلا، لا تفعل ذلك.

ولكن المحامي لم تثبط همته، بل تقدم باقتراح آخر إلى رابين وبيريز. ولئن رفضه المسؤولان، إلّا أن سنجر قد شعر هذه المرة بتغيّر طفيف في موقف رئيس الوزراء المتشدّد. فقد طلب إليه قائلاً:

ـ دعني على الأقل أقوم باستكشاف شخصي وفردي وغير رسمي. سوف أختبر الفلسطينيين، ولكن ذلك لن يكون ملزماً لأحد سواي، وليس بحال من الأحوال لدولة إسرائيل.

فجاءه جواب رابين:

ـ فليكن، إنني موافق، افعل كما ترى!

في نهاية حزيران/ يونيو سلّم سنجر لأبي العلاء وثيقة من بضع صفحات بعنوان: «مقترحات شخصية ليوئيل سنجر». وكان النص يتحـدث عن اتفاق لاعتراف متبادل.

في تونس دُرست الوثيقة مطولاً من قبل عرفات وأبي مازن، ولكن سنجر لن يحصل على ردّ فعل إلا في نهاية تموز/ يوليو. فعند انتهاء أحد الاجتماعات في النرويج وارفضاضه عن أزمة، وفيما كان أعضاء الوفدين يفترقان ببرود، اقترب أبو العلاء من سنجر وأوري سافير وقال:

ـ إن الأمور ستسوء مصيراً، لكنكما لم تسألاني عن مآل المشروع الثاني للإتفاق؟

فأجاب سافير:

ـ أجل، ما جوابكم؟

فرد الفلسطيني دونما تكلّف:

ـ مبدئياً، نحن موافقون على اعتراف متبادل.

وفي الواقع، إن المناقشات بصدد هذه المسألة ستعرف هي الأخرى انطلاقة صعبة.

فقد تقدم الفلسطينيون بمشروع أول لم يعتم الإسرائيليون أن رفضوه رفضاً جازماً. وقد قال سنجر لمحاوريه متهجماً:

ـ إن ما تقترحونه لهو على «أسلوب م. ت. ف القديم». إننا نبغي لغة واضحة، على حين أنكم أكثرتم من الكلمات المعسولة ومن الصيغ ومن «اللطائف» مما اضطرني إلى استعمال مكبرة لأكتشف الالتزامات والإكراهات. لا بد من البساطة والإيجاز. إذن عاودوا من جديد.

وجاء اللقاء التالي مخيِّباً هو الآخر. فقد أعدّت م. ت. ف هذه المرة وثيقة تتضمن التزامات متبادلة. واكتشف الإسرائيليون، على ذعر منهم، فقرة جاء فيها: «سوف يلغي الطرفان الميثاق الوطني الفلسطيني»، وبعد بضعة أسطر كان ثمة بند آخر ينصّ على أن «الطرفين سيتوقفان عن ممارسة الإرهاب».

وفي الجلسة قال سافير مستنكراً:

ـ هذا غير مقبول. إننا لا نمارس الإرهاب ولا نقود منظمة فلسطينية. وعليكم أنتم أن تتعهدوا بالتزامات مقابل اعتراف إسرائيل بكم كممثلين للشعب الفلسطيني.

وأضاف سنجر:

ـ لهذا ينبغي أن يكون كل شيء واضحاً، دقيقاً. . . ومن طرف واحد.

فردّ أبو العلاء مازحاً:

ـ إنكم لبحاجة أنتم أيضاً إلى إيجاد حل، لأننا أشبه بسرطان يأكل شيئاً فشيئاً معدتكم. أتعرفون ما هو انطباعي؟ إذا توصلنا إلى اتفاق مزدوج، أي إلى توقيع اتفاق مبادىء واعتراف متبادل، فسنجد جميعنا أنفسنا في وضع من لم يعد لديه سوى رصاصة واحدة في ماسورة بندقيته. وهذه الرصاصة، إذا ما أطلقت، فلن ترجع أبداً. وما من أحد، بعد أن تمهر الوثائق من أسفلها بالتواقيع، بقادر على أن يعود القهقرى إلى الوراء. لا رابين ولا عرفات.

أجاب سافير:

ـ هذا صحيح تماماً، ولكن إلى أن نصل إلى ذلك اليوم فلن نسهِّل عليكم الأشياء.

فرماه أبو العلاء بابتسامة عريضة:

ـ ليطمئن بالكم، فنحن أيضاً لن نسهلها عليكم.

استمرت عملية شد الحبل من قبل الطرفين إلى يوم ٢٠ آب/اغسطس. ففي ذلك اليوم قدم بيريز إلى النرويج في إطار زيارة رسمية للبلدان الإسكندنافية. وكانت هذه الجولة بمثابة واجهة لإخفاء ما هو أساسي: فإعلان المبادىء المتفاوض عليه بأخذ ورد شديدين على مدى ثمانية أشهر بات أخيراً جاهزاً للتوقيع من قبل الطرفين في حضور رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية.

وفي ١٤ آب/أغسطس كان بسام أبو شريف، الناطق بلسان عرفات، قد اقترح في مقابلة أجرتها معه صحيفة ليبراسيون الفرنسية: «تشكيل حكومة فلسطينية» يكون مقرها في أريحا. وبعد ذلك بيومين ردّ بيريز مباشرة بأنه موافق على «اختبار» الحكم الذاتي لأريحا وغزة.

وطرداً مع اقتراب موعد الاستحقاق في ٢٠ آب/اغسطس كان التوتّر في صفوف الأطراف الرئيسيين يتصاعد. وفي تونس انتقل ياسر عرفات من حال

القلق إلى حال الحبور. وراح يردّد على مسامع أبي مازن بصوت متهدّج بالانفعال:

ـ ستكون لنا أخيراً تحت أقدامنا أرض نقف عليها. شيء ما محسوس وملموس.

وحاول، عن طريق النرويجيين، أن يسبر غور الأميركان وأن يستشف وضعيتهم الذهنية إزاء تقدُّم المفاوضات. واتّصل هولست، رئيس دبلوماسية أوسلو، بوارن كرستوفر. وجاء جواب وزير الخارجية الأميركي بارداً:

ـ إن الرئيس كلنتون سيعتبر في الأرجح هذا التطوّر مثيراً للاهتمام.

كان من الواضح للعيان أن وزارة الخارجية الأميركية باقية على تحفظها وتشكّكها. وعندما سيسأل بيل كلنتون بعد بضعة أسابيع، متى تمّ إبلاغه بالاتفاق، سيجيب ببراءة:

ـ بصراحة، إنني أحاول أن أُعمل ذهني، ولكن ذاكرتي لا تسعفني بشيء.

في ١٧ آب/ أغسطس، في الساعة الثالثة صباحاً، مرّت بعرفات نوبة قلق أخيرة. فقد كان يخشى أن يكون النص، الذي سيوقع بعد ثلاثة أيام، يخفي في طياته فخاخاً أخرى لمنظمة التحرير. وفي هزيع الليل اتّصل هاتفياً بسعيد كمال، سفيره في القاهرة وقال له:

ـ هل يسعك أن توقظ حالاً طارق شاه وأن تضعه في أول طائرة متجهة إلى أوسلو؟ أريده أن يقرأ مواد الاتفاق قبل أن يصار إلى توقيعه.

كان طارق شاه النظير المصري ليوئيل سنجر أثناء مفاوضات كمب ديفيد. والرجلان يعرف كل منهما الآخر جيداً لأنهما تفاوضا، بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٢، على «اتفاق» الحكم الذاتي.

وكان يعمل آنئذٍ مستشاراً قانونياً للوفد الفلسطيني إلى مفاوضات واشنطن الثنائية الأطراف. وفي الفجر جاءه الضوء الأخضر من مبارك. فطار في الضحى إلى روما ومنها استقلّ الطائرة المتجهة بعد الظهر إلى أوسلو. والتقى في غرفته بالفندق أبا العلاء الذي سلمه النص. وتصفحه طارق شاه بعناية، ثم التفت،

عندما انتهى من قراءته، نحو الفلسطيني الجالس على أحد المقاعد:

ـ ممتاز، ليس لديّ ما أقوله. من حرّره؟

أجاب أبو العلاء بشيء من الحرج:

ـ قانوني إسرائيلي، يوئيل سنجر.

ابتسم المصري وقال بمرح:

ـ آه، إنه سنجر. لا تعليق.

وفي إسرائيل بدا كل من رابين وبيريز في مظهر متعارض. فالأول لبث على جموده، بينما أظهر الثاني انفعالية، وأعطى رئيس الحكومة، المحب للدقة والمنهجية، توجيهاته الأخيرة لسنجر:

ـ لا ينبغي أن نأخذ على عاتقنا التزاماً يكون مرهوناً بغيره. بل لا بد لكل اتفاق أن يقف على قدميه لوحده.

أمّا بيريز فقد شعر بأنه يوشك أن يصيب الهدف. فمنذ عشرين سنة وهو يتطلع إلى مخرج كهذا يكفل له موطىء قدم في التاريخ. إنه يعلم، وهو المناور وصاحب الرؤى معاً، أنه فوَّت في الماضي فرصاً لما جُبل عليه من تردّد وروح تكتكة. ولكنه عاقد العزم الآن، وقد أدرك السبعين من العمر، على أن يمضي إلى النهاية اقتناعاً منه، كما أسرّ لبعض معاونيه، بأن «توقيع السلام هو الشيء المهم الوحيد الذي ما زال عليّ أن أفعله في حياتي».

ذات مساء، وفي جلسة على انفراد مع أوري سافير ويوسي بيلن، راح يكشف عن دخيلة نفسه مطولاً. فبلهجة مكتئبة تكلّم عن متاعب العمر، وعن الصعاب التي يلاقيها رجل السياسة كيما يبقى على مستوى مطامحه، ثم أضاف قوله:

ـ إن غولدا مائير ودايان ما أمكنهما أن يفعلا شيئاً من أجل الوصول إلى سلام.

فسأله سافير:

ـ وأنت؟

أجاب بيريز:
ـ أنا، كان في مستطاعي. ولكن كان لا بد من انتظار الوقت المناسب.

سأله محاطباه عن الشخصية الإسرائيلية التي تحظى بإعجابه أكثر من أي شخصية سواها:
ـ بن غوريون.

وعلى حد قول سافير فإن «بيريز كان يعتبر نفسه وريثه. فمنذ بعض الوقت كان بدأ يتكلم عن شرق أوسط جديد، إذْ فهم أنه بدون ذلك السلام فلن يكون في المستطاع تغيير أي شيء».

عندما طار الوزير الإسرائيلي إلى ستوكهولم صبيحة الثامن عشر من آب/ أغسطس كانت أربع نقاط لا تزال موضع خلاف في مشروع الاتفاق، وقد تشبّث كل من الطرفين بمواقفه.

قبل أن يغادر إسرائيل اتّصل بيريز هاتفياً بيوهان يورغن هولست، وزير الخارجية النرويجي الذي كان ساعتئذٍ يتناول طعام فطوره.
سأله بيريز:
ـ يوهان، لماذا لا تأتي إلى السويد؟ لنلتقِ في ستوكهولم. ففي مقدورك أن تساعدنا على تسوية الصعوبات الأخيرة.
أجاب النرويجي:
ـ بكل تأكيد، سأركب للحال طائرة مقلعة وآتي للقائك.

بعد بضع دقائق رنّ الهاتف في سيارة تيرج رود لارسن الذي كان متجهاً نحو منزله في برغن، على الساحل الغربي للنرويج.
جاءه الصوت:
ـ آلو، تيرج، أنا شيمون. تعال بأسرع ما تستطيع إلى السويد. إنني ذاهب إليها، سأنزل في هاغا كاسل، مضافة مدعوّي الحكومة السويدية.

ما كاد بيريز يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها حتى التفت نحو سنجر الذي كان حاضراً في مكتبه وصاح به:
ـ يوئيل، خذ أغراضك، وتعالَ معي.

ولكن على الرغم من كل جهود دوائر وزارة الشؤون الخارجية، ما استطاع سنجر أن يحصل على مقعد في نفس طائرة بيريز. ولم يصل بالتالي إلى ستوكهولم إلّا بعد أربع ساعات.

وما كان أي من الدبلوماسيين المكلّفين بإعداد زيارة وزيرهم للبلدان الإسكندنافية ليخطر له في بال أن هذا الأخير هو على وشك توقيع بروتوكول سلام مع م. ت. ف.

في الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ مساءً، وبعد انتهاء الجزء البروتوكولي من زيارته للسويد، عاد بيريز إلى المضافة النازل فيها بصحبة سنجر. وهناك التحق به بعد قليل هولست ولارسن وزوجته مونا يوول. وقد وصل النرويجيون في حالة من التكتّم الشديد حتى لقد بدا عليهم وكأنهم متآمرون حقيقيون.

جلس الجميع في الصالون بديكوره الجميل. كانت معلّقة على الجدران لوحات قديمة. أخذ هولست سماعة الهاتف وركب رقم خط عرفات الخاص في تونس، فجاءه صوت رئيس م. ت. ف على الطرف الآخر من الخط. فقال هولست:

ـ سيدي الرئيس، إن الوزير بيريز إلى جانبي. في مستطاعنا أن نبدأ العمل إذا كنت مستعداً.

فأجاب عرفات:

ـ كلا، أبو العلاء غائب، ولا أعرف أين أجده. دعْ لي قليلاً من الوقت.

وسوف ينتظر بيريز وهولست والآخرون ساعة ونصف ساعة. وكان منتصف الليل قد مضى حينما تمكّن عرفات أخيراً من أن يجمع حوله، في مكتبه، جميع معاونيه. وإلى جانبه جلس أبو العلاء، وكذلك أبو مازن وحسن عصفور وعبد ربه.

ولسوف تستمرّ المناقشات إلى ما بعد الخامسة صباحاً على ذلك الخط الهاتفي المحمي جيداً من التنصُّت. ولقد دارت بين تونس وستوكهولم بالإجمال خمس عشرة مكالمة هاتفية ـ ولعب هولست دور الرسول والوسيط بين المعسكرين. وفي

كل مرة كان يتعينّ عليه فيها أن يأخذ رأي الإسرائيليين كان يحطّ السماعة قائلاً للفلسطينيين:

ـ سأعاود الاتصال بكم.

في البداية تكلم عرفات، ولكن سرعان ما ابتعدت إنكليزيته عن الدقّة التي يتطلبها المستوى التقني للمناقشة. وفجأة سمع النرويجي هزيزاً أصم. ورنّ صوت رئيس م. ت. ف في السماعة:

ـ لقد أوقعت التلفون وأنا أناوله لأبي العلاء الذي سيتولّى متابعة النقاش.

وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً آوى بيريز إلى فراشه تاركاً سنجر وآفي جيل، مساعده، يتابعان النقاش. كانت نقاط الخلاف تدور حول شروط تطبيق اتفاق غزة ـ أريحا. وكان رابين قد طلب أن يتمّ إبلاغه، ساعة فساعة، بتقدّم المفاوضات.

ولمرتين أيقظ سنجر بيريز. في المرة الثانية، بعد الساعة الرابعة صباحاً، كان موضع الخلاف صياغة نقطة تتصل بتعيين مقر المجلس الفلسطيني المقبل.

سأل بيريز سنجر بدون أن يفيق تماماً:

ـ هل ينبغي أن نطلب رابين؟

فهزّ سنجر رأسه نفياً:

ـ كلا، إنها مسألة صغرى، محض مشكلة لغة. أعتقد أننا نستطيع أن نقرّر بأنفسنا.

أجاب بيريز:

ـ حسناً، لا داعي لطلبه على الهاتف.

في الساعة ٥ والدقيقة ٣٠ صباحاً، كان الاتفاق قد تمّ. كان عبارة عن إعلان مبادىء يمنح الفلسطينيين لا «استقلالاً ذاتياً» (Autonomie - كما نقول بالفرنسية بغير دقة)، بل «حكماً ذاتياً» (Self-governement). والفارق، على دقّته، كبير. فالإستقلال الذاتي ينطبق على جماعة ما بدون تعيين مكان إقامتها، أما «الحاكم الذاتي» فيمارس ضمن نطاق جغرافي محدد كأساس

مادي. ويقضي الاتفاق أيضاً بإجراء انتخابات عامة، تحت إشراف سلطة دولية، على جميع الأراضي خلال مدّة أقصاها تسعة أشهر من توقيع الاتفاق. وبانتظار الانتخابات سيمارس مجلس فلسطيني، يقيم في أريحا وتسميه م. ت. ف، سلطته على الضفة الغربية وغزة تمهيداً لنقل السلطات، بما فيها سلطات الشرطة.

قال هولست لعرفات بالهاتف: «سيدي الرئيس، كل شيء تمّت تسويته». وطرقت أذنيه صيحة فرح عارمة في الجانب الآخر من الخط.

انتحب ياسر عرفات، وهو جالس إلى مكتبه، وقتاً غير قصير قبل أن يعانق رفاقه كافة. وأصدر أمره: «ائتوا بمصوّر فوتوغرافي». فالقائد الفلسطيني مصمّم على تخليد تلك اللحظة، وقد قال لمعاونيه:

- إنها بداية عصر جديد، خاتمة عشرات السنوات من النضال.

كانت الدموع تترقرق في عيون الفلسطينيين كلهم. وفي ستوكهولم تهيأ هولست ولارسن، وقد نال منهما التعب كل منال، للعودة إلى أوسلو لإعداد احتفال التوقيع الذي سيجري في الغداة، ودوماً في سرية كبيرة. وقد تقرّر أن يغادر أبو العلاء وحسن عصفور ومحمد أبو غوش تونس فجراً ليصلوا إلى النرويج مساء.

قبل الصعود إلى الطائرة، المتهيئة للإقلاع، ناقشوا مع بيريز تدابير الأمن الواجب اتخاذها. فألحّ الإسرائيلي على نقطة بعينها: إن سائر أعضاء الوفد الإسرائيلي، ممن يشاركون في الرحلة، يجب أن يبقوا على جهلهم بما يجري.

وفي اللحظة التي همّ فيها هولست بمفارقة بيريز، قال له بلهجة مهاتِرة:

- إنني مسرور لأن النرويج أمكنها أن تلعب دوراً من الطراز الأول، في حين أن السويديين هم الذين تولّوا في عام ١٩٨٨ عملية فتح الحوار بين م. ت. ف والولايات المتحدة. إن التنافس بين كلا الشعبين قد كان على الدوام، كما تعلم، قوياً. ولكننا الآن سبقناهم في أرضهم بالذات، وانطلاقاً من عاصمتهم. هذا فضلاً عن أننا تركنا لهم دفع فاتورة التلفون!.

فصل أخير: اتصل بيريز وسنجر هاتفياً برابين ليشرحا له الكيفية التي سوّيا بها آخر النقاط المختلف عليها. فأخذت رئيس الوزراء سورة غضب شديد:

ـ إنني أعارض الكلمات التي استخدمتماها. وأرفض أن يُوقع الاتفاق إذا لم تعدّل هذه النقطة.

واضطر لارسن، وهو على وشك الرحيل، لأن يتدخل لمرة أخيرة لدى عرفات لتسوية ذلك الخلاف.

بعد بضع ساعات التقى بيريز، وقد تحمّم وحلق ذقنه، بالصحفيين الإسرائيليين الذين رافقوه في سفرته. وقال لهم بلهجة تحريضية وإقناعية:

ـ بصراحة، لا تضيّعوا وقتكم في مرافقتي الآن إلى أوسلو. فهي زيارة روتينية، خالية تماماً من كل أهمية.

١٦

رابين الصموت

لقد كنا نبّهنا: أن رابين، الخجول بالفطرة، وذا العقلية العسكرية، شخص يصعب الدخول إلى سره، حتى بالنسبة إلى أصدقائه. وهو، بحكم تشكّكه وارتيابه، نادراً ما يسلك دروباً جديدة؛ ولكنّه إذا اقتنع بعداله قضية أو بحتمية عمل ما، يمضي إلى النهاية بلا تردّد أو حيرة.

وهذا ما حصل على وجه التحديد إبان مفاوضات أوسلو. فمنذ أن نقل يوسي بيلن «الشاهد» إلى بيريز الذي نقله، بدوره، إلى رابين، احتفظ هذا الأخير به حتى النهاية.

ولد رابين في القدس في العام ١٩٢٢ وقضى الجزء الأكبر من شبابه في الكيبوتزات قبل أن يلتحق بالجيش. وثمّة شخصيتان بارزتان مارستا تأثيراً عميقاً عليه. ايغال الون، أستاذه في مدرسة قدوري الزراعية، والذي سيصبح وزيراً للخارجية. وإسحق ساديه، مؤسّس البالماخ، تلك المجموعة القتالية الطليعية المؤلفة في غالبيتها من الكيبوتزيين والتي سوف تعطي الجيش اليهودي معظم جنرالاته. ولقد كان لإسحق ساديه، وهو وجه أسطوري حقيقي في إسرائيل، وريثان: ايغال الون وموشى دايان. دايان، المقرّب من بن غوريون وبيريز، انخرط مبكراً في الحياة السياسية. إسحق رابين، الأصغر سناً، والمحسوب على الفريق الخصم باعتباره تلميذاً لالون، ظل عسكرياً.

وقد شغل منصب قائد الأركان العامة عندما أصبح موشي دايان، الجنرال الأعور، وزيراً للدفاع قبيل حرب الأيام الستة.

كان لقاؤنا بإسحق رابين للمرة الأولى خلال عام ١٩٦٧ ذاك.

بعد النصر، ألقى في جامعة جبل المكبِّر العبرية خطاباً أثار الدهشة. فقد اهتدى فيه يومها إلى اللهجة والنبرة اللتين تميِّزان الخطب التاريخية الكبرى. وقد كان، منذ ذلك الحين، بمثابة صيغة أولية للتصريح الذي سوف يدلي به في واشنطن بعد ستة وعشرين عاماً في أثناء حفل التوقيع على الاعتراف المتبادل بين إسرائيل و م. ت. ف. فغداة احتلال الضفة الغربية وسيناء والجولان والقدس الشرقية، أعلن الجنرال رابين أن الشعب اليهودي ليس بشعب مهيمن. وأن إسرائيل بلد ديمقراطي وأن عليها بالتالي أن تختار بين الديمقراطية والهيمنة لتعارضهما. ومن ثمّ فإنه يتعين على إسرائيل أن تعيد الأراضي المحتلة مقابل الحصول على السلام.

وقد زار إسحق رابين فرنسا في العام ١٩٧٥، بصفته رئيساً للحكومة. وروينا له تفاصيل اتصالاتنا مع الفلسطينيين، وحدَّثنا هو عن اتصالاته مع المصريين والتي كانت تتم يومها عن طريق العاهل المغربي. ولكن رابين هزم في الانتخابات التي حصلت بعد عام. وقد ذهب خلفه، مناحيم بيغن، إلى كمب ديفيد ووقع على معاهدة السلم مع أنور السادات. فكانت هذه أعظم خيبة مني بها في حياته.

بعد انتخابات تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨، تولّى إسحق رابين وزارة الدفاع في حكومة الاتحاد الوطني. وقد بادر على الفور إلى عقد محادثات مع القادة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، حتى مع المتمين من بينهم إلى م. ت. ف. ولكن الفلسطينيين لم يحصلوا على موافقة تونس. وبعد ذلك بقليل ألقي القبض على عدد منهم من قِبل «شين بيت»، إذْ إن المخابرات الإسرائيلية اعتبرتهم إرهابيين لا محاورين. ولم يعدْ فلسطيني واحد في الأراضي المحتلة يتجرّأ على التفاوض مع الإسرائيليين من دون الحصول على موافقة عرفات المسبقة.

والحال أن ياسر عبد ربه كان من بين القادة الفلسطينيين الذين دعوا، في

العام ١٩٨٨، إلى عقد حوار مع رابين. وقد غدا، بعد خمسة أعوام، واحداً من قياديي م. ت. ف الخمسة الذين تابعوا مفاوضات أوسلو.

وقد خلّف هذا الفشل أثراً بليغاً لدى رابين الذي مكث على ريبته في فلسطينيي الأراضي المحتلة عندما عاد إلى الحكم.

أيار/ مايو ١٩٩٣. إسحق رابين، الذي أصبح رئيساً للوزراء من جديد، يستقبلنا وهو منبسط الأسارير، شبه ودّي، في فندق هرتزليا حيث يمضي عطلة نهاية الأسبوع برفقة زوجته ليا. كان الإسرائيليون والفلسطينيون قد باشروا وقتئذٍ مباحثاتهما في أوسلو. ولم يأتِ رابين بذكر تلك المباحثات، غير أنه أفصح عن آراء غير متوقّعة حول الجيل الجديد من الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة، هؤلاء الذين يعرفون جيداً إسرائيل، بل ويتكلّمون لغتها.

ـ كنت آمل مثلكما أن يتمكن هذا الجيل الجديد من فرض نفسه، وأن يغدو قادته الجدد، الذين يعرفوننا أفضل مما يعرفنا القادة الموجودين في تونس، محاورين حقيقيين لنا. والحال، سرعان ما اتّضح لي، أنّه كلما تعين عليهم الرد بوضوح على اقتراحاتنا، استأذنوا بالانصراف وذهبوا لاستشارة تونس. فقلت لنفسي أنه سيكون من الأسهل، بالنسبة للجميع، السعي إلى حل المشكلات مباشرة مع تونس.

وقد التقينا إسحق رابين مرة ثانية من أجل هذا الكتاب. استقبلنا بالقميص، من دون سترة، في مكتبه في القدس وبدا لنا وكأنه قد خلع عنه تحفّظه المعهود. لم يمتنع عن الإجابة عن أيّ سؤال ولم يحاول تجنُّب الخوض في أي موضوع، بل كان سعيداً بأن يتكلم.

لقد لاحظنا، أكثر من مرة، أن الأشخاص الذين يبدون قساة هم، أحياناً، على قدر كبير من الهشاشة. فعندما يخرج رابين عن تحفّظه، فإنه يحني رأسه إلى اليسار كطفل تحلوا لك مؤاساته. ومن دون تحفّظ روى لنا كيف أبلغه شيمون بيريز بمفاوضات أوسلو وكيف أجابه، ببساطة متناهية: «لنجرّب».

ولكن متى أنبأه شيمون بيريز بذلك؟ «منذ البداية» يوضح رابين. والواقع

أن الآراء تتضارب حول هذه النقطة بالذات. غير أن شيمون بيريز يحذّرنا قائلاً:

ـ كلّ ما قد يروى لكم عن علاقاتي مع رابين بهذا الخصوص لا أساس له من الصحة. ففي البداية، كنّا نعقد لقاءاتنا على حدة. من دون شاهد.

ويصادق رابين على ذلك. ولكن مع بعض التحفّظات، على ما يبدو. وقد شرح لنا كيف أنه لم يعلق وقتها كبير الآمال على الشبكة النرويجية، وكيف أنّ الوضع السياسي هو الذي حثّه على ألّا يدع هذه الفرصة تفوته. صارحنا بقوله:

ـ لقد أدركت بسرعة أن المفاوضات المتعدّدة الأطراف لن تنتهي إلى حل. فإن كان الله قد تواجد بين بيغن والسادات، ففي واشنطن لم تتواجد بين الإسرائيليين والفلسطينيين سوى وسائل الإعلام. ومن ناحية أخرى، إذا كان العرب يتّخذون من الفلسطينيين ذريعة للاستمرار في حالة الحرب مع إسرائيل، إذنْ يكفي في هذه الحال حلّ مسألة الفلسطينيين كيما نزيل إن لم يكن الحرب، فعلى الأقل سبب وجودها.

ومع تراكم محاضر جلسات مفاوضات أوسلو على مكتبه، أدرك إسحق رابين أنه يتعين عليه أن يتدخّل مباشرة:

ـ كان شيمون بيريز يستطيع أن يأخذ ما شاء من المبادرات ما دمت أنا الذي سأحاسب، بصفتي رئيس الوزراء، على كل تقصير في اليقظة والحيطة أو، بالعكس، على كل تقاعس عن اتخاذ القرارات. ولو ثبت، لسوء الحظ، أنّ عملية السلام ضارة بمصالح إسرائيل، فإن المتظاهرين كانوا سيحتشدون تحت نوافذي أنا!

ما كان شعوره في الطائرة التي أقلّته إلى واشنطن للتوقيع على الاتفاق؟ عن هذا السؤال يجيب بأن العاطفة لا بد أن تبقى غائبة عن السياسة. إنه مقتنع بذلك، بيد أنه يضيف أن عشية تصويت الكنيست على الاتفاقات المبرمة مع م. ت. ف أنبأه رئيس مكتبه، إيتان هابر، بوصول وفد من معاقي الحرب. وقد انتاب إسحق رابين قلق شديد لمجرد فكرة مواجهتهم، حتى أنه سأل إن كان مضطراً فعلاً لاستقبالهم. فأجيب أن أجل. وقبل أن يسمح لهم بالدخول

تجرع كأساً من الويسكي. وانفصل عن مجموعة المحاربين القدامى المعاقين الناطق بلسانهم - وكان يجلس في كرسي متحرك - وأعلن لإسحق رابين بأن الوفد قد جاء بهدف دعم سياسته السلمية.

- لقد بكيت، اعترف لنا رابين. للمرة الأولى في حياتي بكيت على مرأى من الناس.

١٧

«أوسلو، زيارة خالية من كل أهمية»

كان العشاء في مقر احتفالات الحكومة النرويجية في ١٩ آب/ أغسطس في أوسلو مملًا إلى الحد الذي تنبأ به بيريز. فقد ناقش أعضاء الوفدين الإسرائيلي والنرويجي في جو رسمي وبارد مسألـة التعاون بـين البلدين. وهمس صحفي إسرائيلي وهو يميل على أذن جاره متهكماً: «يا له من لقاء مهم!». والمسكين ما كان مطلعاً على خفايا ما يجري، وما كان له أن يتخيّل طبيعة السر الذي يتشاطره في صدريهما كل من يوهان يورغن هـولست وشيمون بـيريز. وبـالفعل، كـان الرجلان يتبادلان الابتسامات المهذّبة والعبارات العـادية بـين طبق من سمك السلمون وآخر من حلوى توت العُلّيق.

بُعيد الساعة الحادية عشرة مساءً أعرب بيريـز، وقد تـذرّع بالتعب، عن رغبته في الانسحاب. وما هي إلّا دقائق معدودة حتى كان جميع المدعـوّين قد نهضوا وتقدموا باتجاه المخرج.

كـان شارع بـاركفاين، الـذي يقع فيـه المبنى الذي دارت فيـه السهرة، يبعـد مئات الأمتار لا غير عن القصر الملكي. ولم يلحظ المشاركون شيئاً ملفتاً للنظر، ومع ذلك فقد كان الحي مطوّقاً برجال المبـاحث. وفي هذه المـرة كانت دائـرة مكافحة الجاسوسية في الاستخبارات النرويجية تتعاون مع «الموساد». وكان عدد من العملاء الإسرائيليين، ممن وصلوا خلال الأيام السابقة، يراقبون المكان.

كان الهدف من العشاء الرسمي التمويه على ما هو أساسي. ففي تلك اللحظة عينها، في الطرف الآخر من المدينة، في الطابق الثاني والثلاثين من الجناح الملكي في فندق بلازا، كان المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون يتواجهون بصدد آخر التفاصيل. وكان اتّفقوا جميعهم على وجوب الانتهاء قبل منتصف الليل. وانصرف أبو العلاء واوري سافير، وقد انتحى كل منهما ركناً، إلى تحرير الخطابين اللذين سيلقيانهما بعد بضع ساعات بمناسبة التوقيع.

كاد يائير هرشفلد أن يتسبّب في تأخير كل شيء. فقد كان كُلِّف بأن يضرب على الآلة الكاتبة نص الاتفاق، ثم اكتشف المندوبون أنه أخطأ في تفصيل بالغ الأهمية.

فبدلاً من أن يضرب: «الفترة الانتقالية لن تتعدى خمس سنوات»، وهي العبارة التي كان اتفق عليها الطرفان، كتب: «الفترة الانتقالية ستكون خمس سنوات».

صحّح المندوبون العبارة حالاً، لكن هرشفلد اعترف لهم وهو في أشد الحرج: «أعتقد أن الوثيقة التي سلمتها لرابين لا تتضمن عبارة: 'لن تتعدّى'».

وساد التجهم الجميع. وهتف أحد الفلسطينيين:

ـ هذا رهيب، إننا لا نستطيع أن نوقّع.

واقتضى الأمر الاتصال على عجل بالقدس وانتزاع موافقة رابين على مضض منه.

بعد انتصاف الليل بنصف ساعة رنّ جرس الهاتف في الغرفة. لم يرفع أحد السماعة، لكن الرجال السبعة الحاضرين فهموا معنى الإشارة. وبعد بضع دقائق طُرق باب الغرفة. وتولّى عملاء المباحث السرية إخراج الإسرائيليين والفلسطينيين من مخرج محجوب عن الأنظار بعد أن جعلوهم يعبرون مطابخ الفندق. واقتادوهم إلى سيارات نقل صغيرة كانت تقف بالجوار. كانت جميع نوافذ السيارات مسدودة. وسار الموكب لمدة عشر دقائق في شوارع أوسلو المقفرة، قبل أن يتوقف عند الرقم ٤٥ من شارع باركفاين. وكان هولست ولارسن وبيريز ينتظرون في الطابق الأول من المبنى، في القاعة البرتقالية. وكانت معلّقة على

الجدار لوحة تمثّل حصانٌ جرّ وراعياً مع قطيعه.

انضم أعضاء الوفد الإسرائيلي إلى بيريز، بينما انتظر الفلسطينيون في غرفة ملاصقة. ثم انفتحت أبواب البهو. وشدّ أبو العلاء وشيمون بيريز، وقد تقنّع وجههما بالرصانة، على يدي بعضهما بعضاً. كان الجوّ رسمياً ومنفرجاً في آن معاً. وقد أكّد لنا أحد الشهود في وقت لاحق: «كنا نسبح في اللاواقع. ففجأة فهمنا أن خمس وأربعين سنة من المواجهات الدامية والأحقاد المؤرّثة قد تكون على وشك التلاشي نهائياً».

كانت طاولة خشبية قد نصبت في وسط الغرفة. وكانت هي عينها التي استعملها رئيس الوزراء كرستيان ميشلسن عام ١٩٠٥ للتوقيع على إعلان استقلال النرويج.

جلس أوري سافير وأبو العلاء جنباً إلى جنب ووقّعا بالأحرف الأولى من اسميهما «أ. س» و«أ. ق» (أحمد قريع، الإسم الحقيقي للمسؤول الفلسطيني) على الأوراق العشرين التي تتألف منها الوثيقة المحرّرة بالإنكليزية والموضوعة في ملف أحمر رقيق مربوط بخيط ذهبي. وسوف يضيف يوهان يورغن هولست فيما بعد الحرفين الأولين من اسمه باعتباره «شاهداً». وهذه الوثيقة تشبه في كل نقاطها تلك التي ستذيل بالإمضاءات يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر في حديقة البيت الأبيض. وتشير المقدمة إلى أن «حكومة دولة إسرائيل» و«الوفد الفلسطيني» ممثلاً الشعب الفلسطيني يتّفقان على أن الوقت قد حان لإنهاء عقود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بحقوقهما المشروعة والسياسية المتبادلة، والسعي للعيش في ظل تعايش سلمي وبكرامة وأمن متبادلين ولتحقيق تسوية سلمية عادلة ودائمة وشاملة ومصالحة تاريخية من خلال العملية السياسية المتفق عليها.

إنّ هذا النص هو في جوهره إعلان مبادىء يجد تكملته في مشروع الإتفاق الذي ينصّ على سلطة حكومية ذاتية للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة يبدأ تطبيقه في قطاع غزة ومدينة أريحا أولاً. وهذه الوثيقة، الواضحة والدقيقة بصدد بعض النقاط، مبهمة وغامضة عن قصد بصدد بعض النقاط الأخرى. وهي في المقام الأول بمثابة برنامج، لائحة مسائل يتعينّ التفاوض عليها

لاحقاً مسألة مسألة. ولسوف ينيخ هذا الالتباس، الذي تقصّده المفاوضـون، بثقيل وطأته على بقية العملية. ومع ذلك، فإن الحدث الذي شهدته تلك القاعة في قلب الليل لهو شيء شبيه بالمعجزة حقاً.

تكلّم أبو العلاء وأوري سافير باقتضاب أمام الجمهور المنفعل. جاء خطاب الفلسطيني حساساً ومعتدلاً. وهنأ شيمون بيريز الذي بلغ في ذلك اليوم بالتحديد سبعين سنة من العمر. وقال: «إن هذا الاتفاق لهو بنوعٍ ما هدية عيد ميلاد».

فتحت قناني شمبانيا، لكن الوزير الإسرائيلي رفض الكأس التي قدمت له. فقد كان تلقى، قبل بضع ساعات، برقية تفيده بأن سبعة جنود إسرائيليين لقوا حتفهم في عملية جرت في غزة. إن الحدث الذي هو أحد فَعَلته لتاريخي حقاً، وغـير مسبوق، لكنـه يعلم أنّ الدرب الـذي لا يزال مـطلوباً اجتيـازه طويـل ومأساوي. وتولّى تصوير الاحتفال برمته فريق من المباحث النرويجية. ولسوف يتلقى الفلسـطينيون والإسرائيليـون نسخـة من الفيلم، لكن تقـرّر، بـاتفـاق مشترك، ألاّ توزع أبداً كاسيت الفيديو تلك. وهذا لسبب حاسم: فالموقّعون قد وقّعوا أيضاً، على ما يُفترض، ملاحق سرية جرى إيـداعها بمنتهى العنـاية في صناديق غير قابلة للفتح عنوة. ومن جملة تلك الملاحق، على ما تناهى إلينا، ملحق من ثلاث صفحات يشير إلى التزام م. ت. ف بعدم إنشاء دولة فلسطينية في نهاية السنوات الخمس من المرحلة الإنتقالية. وهذا أمر، إذا صحّ، يشكّـل تنازلاً ضخماً ويصعب الإقرار به من جانب عرفات. وثمة بند آخر يفصّل، على ما تناهى إلينا أيضاً، الوسائل التي سيعتمدها الجيش الإسرائيلي لتأمين حمـاية المستوطنين الإسرائيليين.

طار بيريـز في الغداة إلى إيسلنـدا، تاركـاً أوري سافـير في أوسلو لمتابعـة المناقشات. ولسوف يتوقف، بعد ذلك، في فنلندا حيث سيلتقي من جديـد، سراً، يورغن هولست وورود لارسن ومونا يوول.

واستجوب رابين مطولاً منافسه القديم فور عودته. وروى بيريز ما كاشفه به

أبو العلاء، على انفراد، عند نهاية الاحتفال: «إن الأمر سيسير فيما إذا تمّت تسوية مسائل الأمن ومشكلة التنمية الإقتصادية معاً».

لقد بات رئيس الوزراء الإسرائيلي يعرف مذ ذاك فصاعداً أنه أمسى «شريك عرفات المتلازم معه» كما سيكتب لاحقاً الصحفي الإسرائيلي إهود يعاري. حقيقة واقعة ما كان يمكن حتى تصوّرها قبل بضعة أسابيع. لكن رابين بقي مشغول البال. فحتى إذا كان الاتفاق الذي تمّ توقيعه يشكّل «خير صفقة يمكن لإسرائيل الحصول عليها»، حسب تعبير أحد المفاوضين، فإن العديد من النقاط لا تزال غير واضحة. وبالمقارنة مع اتفاقيات كمب ديفيد، فإن التطبيع الجاري بين إسرائيل و م. ت. ف يحفّ به قدر هائل من الإلتباس والتعقيد. ولئن يكن بيريز قد نوّه بالأهمية التاريخية للوثيقة وفوائدها بالنسبة إلى إسرائيل، فإنّ رابين قد توقّف، هو، عند نقاط الضعف فيها وكرّر في أكثر من مناسبة على مسامع بعض المقرّبين إليه: «إن المبدأ قد تمت الموافقة عليه، ولكن يبقى علينا أن نفاوض على ٨٠ بالمئة من تطبيقه».

إنّ الخيار الذي أخذ به هو «الأرض مقابل السلام»، وهو المبدأ الذي نصّ عليه القراران المشهوران للأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨. فالإسرائيليون سيسحبون بسرعة كبيرة قواتهم من غزة وأريحا (بعد أربعة أشهر كحد أقصى من توقيع الاتفاق)، ثم من سائر الضفة الغربية. وبالمقابل، سوف يعترف الفلسطينيون بإسرائيل ويعقدون معها اتفاقيات تعاون. ولكنّ رابين يرهص بأن توقيع هذا الاتفاق الثاني سيشرط أكثر فأكثر تطبيق الاتفاق الأول. وبالفعل، لقد بات في حوزة الفلسطينيين الآن ورقة رابحة، وسيلة ضغط. ففي وسعهم أن يقولوا: «بدون اعتراف متبادل شامل، فلن نصادق على إعلان المبادىء». وهذا القرار بربط الاتفاقين قد يكون لإسرائيل بمثابة فخ. وإزاء احتمال كهذا كان من رأي رابين الامتناع عن التلويح برايات الانتصار عالياً وإحاطة الاتفاق بأقل قدر ممكن من الاحتفاء. قال: «لنكتفِ بتقديمه على سبيل التجربة أو الاختبار».

بيد أن كلاً من رابين وعرفات كانا عاقدي العزم، مع ذلك، على الانتهاء من العملية بسرعة تفادياً لإتاحة الوقت لخصومهما كيما ينظّموا صفوفهم ويشنّوا

هجوماً مضاداً.

في تونس، كانت الأصوات قد ارتفعت ضد ذلك الحدث الذي لم يكن عرفات قد أعلنه بعد رسمياً. فالشاعر محمود درويش، أحد الوجوه الكاريزمية في م. ت. ف، استقال من اللجنة التنفيذية للمنظمة الفلسطينية بعد مواجهة مطوّلة مع عرفات. وقد أخذ عليه السرية المطلقة التي أحاط بها تلك المفاوضات، والتنازلات التي قدّمها لإسرائيل، وكذلك المخالفات النظامية العديدة التي تشوب بعض الشؤون المالية للمنظمة. وقال: «إنني أتكلم باسم قسم كبير من الشعب الفلسطيني».

فردّ عرفات وقد اصفرّ وجهه:

ـ إن الشعب الفلسطيني سيّء التهذيب أحياناً.

قال درويش:

ـ إذا صحّ ذلك، فلماذا لا تختار لنفسك شعباً آخر؟

وفي نظر الشاعر إن عرفات و م. ت. ف «قد اختارا من الآن فصاعداً طريق الذرائعية والواقعية السياسية بدلاً من طريق المثالية». ولسوف يضيف بعيد ذلك قائلاً: «إن ضميري لا يسمح لي بأن أشارك في مغامرة غزة ـ أريحا هذه. إننا نقول وداعاً لتاريخنا، في حالة من الفوضى. وندخل في مرحلة جديدة نحن لها غير مهيئين». والعديد من كوادر المنظمة يشاطرونه تحليله هذا.

في القدس راقب رابين تلك التوتّرات بقلق. فموقع عرفات، رغم تصاعد الاعتراضات، لا يزال منيعاً وغير قابل للالتفاف عليه، ولكن ما كان لرابين إلاّ أن يخشى من هبوب موجة عاصفة تطيح به.

إنّه يعلم أن ديمومة ذلك الاتفاق ستستند، في المقام الأول، على الدعم الذي سيوفّره له حليفه الرئيسي الذي كان قد نحّاه إلى ذلك الحين جانباً: الولايات المتحدة الأميركية. فهي تشكّل القوة الوحيدة القادرة على أن تضمن له الجوهر والتطبيق معاً. وفضلاً عن ذلك، فإنها تتمتع بنفوذ كبير لدى العديد من

الأنظمة العربية، ولا سيما دول الخليج النفطية. وأخيراً، فإنّ الدعم الأميركي من شأنه أن يساعد رابين على «بيع» الاتفاق للرأي العام الإسرائيلي.

في ٢٥ آب/ أغسطس اتّصل رئيس الوزراء، بعد الظهر، بوارن كرستوفر بالهاتف. كان وزير الخارجية الأميركية يمضي إجازة بضعة أيام في كاليفورنيا. وما أنبأه به رابين تركه «بلا صوت بكل ما في الكلمة من معنى» حسب تعبير أحد الشهود. ولسوف يصحّح المسؤولون الأميركيون الموقف بسرعة بإعلانهم عن «غبطتهم» بالمآل الذي آلت إليه الأمور. أمّا في واقع الأمر فكانوا مجروحين. فقلة الثقة التي يمحضونها لعرفات وعدم التقدير الذي يكنّونه لبيريز، الذي يعتبره العديد من الخبراء في الطرف الآخر من الأطلسي «سياسياً بلا أفق واسع»، قد أديا بهم إلى أن ينظروا بعين الازدراء إلى تلك «الشبكة النرويجية». ولسوف يعترف مساعد لكرستوفر قائلاً: «كيف كان لنا أن نعطي أية مصداقية لمفاوضات كان باشرها قبل ثمانية أشهر اثنان من الهواة، أستاذان جامعيان إسرائيليان يجهلان كل قواعد الدبلوماسية؟».

ولسوف تبذل إدارة كلنتون قصاراها لتحجب عن الأنظار واقع الغشاوة التي كانت تضرب على بصرها: فقبل بضعة أيام لا أكثر كان مسؤولون في وزارة الخارجية الأميركية قد كرّروا نصيحتهم للدبلوماسيين الإسرائيليين بـ «تحاشي كل اتصال مع م. ت. ف».

ومع ذلك فلقد أثبت كرستوفر، يوم ٢٥ آب/ أغسطس، أنه ممثّل بارع. فقد أبلغه رابين قائلاً:

ـ سيدي وزير الخارجية، أودُّ لو تستقبل بأسرع ما يمكن الوزير شيمون بيريز الذي سيعرض عليك تفاصيل الاتفاق.

فأجاب الأميركي:

ـ بكل تأكيد، متى يزمع القدوم؟

ـ في وسعه أن يسافر غداً. أو بعد غد.

فوجىء كرستوفر بهذا الاستعجال، ولكن ما كان في مقدوره إلاّ أن يوافق.

وقبل أن يقفل السماعة أضاف رابين قوله:
ـ من الضروري أن تبقى هذه الزيارة محاطة بأكبر قدر من الكتمان.

أفادنا أحد المقرّبين إلى كرستوفر فيما بعد: «على مدى تلك المحادثة كان رابين يلحّ تكراراً على نقطتين: فمسؤولية الاتفاق تعود إليه كلها وبيريز لم يكن إلاّ رسوله. وكان رئيس الوزراء يريدنا أن نطلع على جميع التنازلات التي قدّمها والتي هو مستعدٌّ لتقديمها. ولقد كان وصل إلى نهاية الخط المستقيم وهو يريد الآن تطمينات متينة بصدد مساندتنا».

وصاغ رابين أيضاً مطلبين. فهو يتمنّى أن يقوم وزير الخارجية الأميركي بإعلام ملك الأردن الحسين، ورئيس وزراء لبنان رفيق الحريري، ووزير الخارجية السوري فاروق الشرع. ولسوف يتصل كرستوفر أولاً بدمشق. وقد أبدى الوزير السوري تفاجؤاً وحذراً. وأجاب: «سأطلع الرئيس الأسد».

كان الملك حسين منكبًّا على العمل في قصره المطل على عمان حينما تلقّى المكالمة الآتية من كاليفورنيا. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً في العاصمة الأردنية. ولم يخف الملك امتعاضه.
ـ إنّ الأردن، يا سيدي الوزير، ليس مجرد بلد مكلف باستقبال اللاجئين الفلسطينيين. لقد كنّا نفضل لو يجري اطلاعنا.
فأجاب كرستوفر بشيء من الخرق:
ـ لكني كنت أعتقد، يا صاحب الجلالة، أن الرئيس عرفات قد أطلعك.
فأجاب الحسين بجفاء:
ـ كلا. لطالما وعدني بأن لا نتقدّم إلا معاً، وهانذا ألاحظ أنه لم يفِ بكلمته.

إن الملك، المتربّع على العرش منذ اثنين وأربعين عاماً، يتخوّف من أن يكون نظامه هو المتضرّر من ذلك الاتفاق. فستّون بالمئة من سكّان الأردن فلسطينيون. وأية تغيّرات ديموغرافية واقتصادية من شأنها أن تؤثر سلباً على البلد.

وفي الواقع، وبعد الهزة التي تعرّض لها التضامن العربي والقومية العربية من جرّاء حرب الخليج، ها هم الفلسطينيون يفصمون بدورهم عراهم مع بلدان المنطقة. ولسوف يلاحظ أحد المراقبين المصريين قائلاً: «إنّهم يفصلون قضيتهم عن قضية الأمة العربية».

جرى الإعداد بدقة لسفرة بيريز إلى كاليفورنيا. ولم يكن لأحد علم بها باستثناء رابين ورئيس مكتبه ويوسي بيلن وأوري سافير ورئيس الموساد. ولأسباب تتعلّق بالأمن وبالسرية تقرّر ألا يركب الوزير طائرة إسرائيلية. واقترح هولست، المشارك في السفرة، استخدام طائرة نرويجية. وبصحبة لارسن ومونا يوول غادر أوسلو في ٢٧ آب/ أغسطس صباحاً. وتوقفت الطائرة لمحطة وجيزة في قاعدة عسكرية قرب تل أبيب ليصعد إليها شيمون بيريز ويوئيل سنجر، انتهاكاً لعطلة يوم السبت، ثم عاودت انطلاقها باتجاه سويسرا.

بعد أربع ساعات حطّت الطائرة في جنيف وتوقفت في طرف أحد المدارج على مقربة من طائرة أخرى جاهزة للإقلاع وغير حاملة لأية علامات تدلّ على هويتها. وفي مدى بضع دقائق انتقل جميع الركاب من طائرة إلى طائرة وطاروا باتجاه لوس أنجلوس.

كانت محطة فنية واحدة مقرّرة: غوز بـاي، وهي قاعدة جوية كندية تقع في برزخ بحري غير بعيد عن الدائرة القطبية. وكانت الاستخبارات الإسرائيلية، التي خطّطت لكل شيء، قد وقّتت العملية بحيث تحطّ الطائرة في قلب الليل، في تلك البقعة الضائعة من الكرة الأرضية، وفي فترة تكون فيها الرحلات الجوية قد تقلّصت إلى الصفر. ومشى المخطّط بلا أي معوقات.

خرج بيريز من الطائرة لينشّط حركة الدم في ساقيه لبضع دقائق في المطار المقفر. لم يكن ثمة غير امرأتين من عاملات النظافة تكنسان الممرات. فجأة لمحته إحداهما، وهرعت للقائه وهي تبتسم ملء وجهها:

ـ يا سيد بيريز، توقيع من فضلك.

استدار الإسرائيلي على عقبيه للحال متجهماً، وابتعد بخطى سريعة.

بعد بضع ساعات أخرى حطّت الطائرة في قاعدة بونت موغيو البحرية، الواقعة بجوار سانتا بربارا، مصيف وزير الخارجية الأميركي، وكانت حالة الإنذار قد أعلنت فيها.

تقدّم وارن كرستوفر، وإلى جانبه دنيس روس، من الطائرة على المدرج لاستقبال ضيوفه، ثم دلف الجميع إلى أحد الأبهاء في منجى من الأنظار. ولسوف يحاول الأميركيون، وقد أخذوا على حين غرة، أن يمثّلوا أدوارهم وأن يتصرّفوا ببراعة وكأن شيئاً لم يكن. وبالفعل، هنأ وزير الخارجية الأميركي بيريز والنرويجيين وأعلن عن «استعداد الولايات المتحدة لتأمين الدعم الكلي لهذا الاتفاق».

وقد قال أوري سافير فيما بعد: «لقد تصرفوا بكرم كبير، لأنهم فهموا فوراً أنّ هذا الحدث يغير وجه الأشياء. ولقد أثبتوا أنهم براء من صغر النفس الذي ما كان، في رأيي، إلاّ ليسم بميسمه مسلك أي بلد أوروبي آخر».

وتقدم وزير الخارجية الأميركي، الذي كان تحدث مطولاً بالهاتف قبل ذلك مع بيل كلنتون، باقتراح: تنظيم احتفال كبير في واشنطن للمصادقة على الاتفاق. ونالت الفكرة إعجاب بيريز وهولست.

ولسوف يتّصل إسحق رابين، فور مغادرة بيريز، بكرستوفر ليستعلم عن نتائج اللقاء. فالإسرائيلي الأول يريد أن يطمئن إلى أن وزيره قد تصرّف كـ «رسول أمين» ولم يسع إلى عزو جميع أفضال الاتفاق إلى نفسه.

فيما كان شيمون بيريز ويوهان يورغن هولست يحلقان فوق الأراضي الأميركية، سقطت برقية في ردهات تحرير الصحف كافة. كانت تكشف عمّا أراد جميع المعنيين أن يبقوه طي الكتمان: فالمسؤولان عن الدبلوماسية الإسرائيلية والنرويجية قد التقيا للتوّ سراً وزير الخارجية الأميركي في كاليفورنيا.

كان مصدر تسرب النبأ موظفاً عالياً في وزارة الخارجية الأميركية كان كرستوفر قد أعطاه كتعليمات: «إحاطة اللقاء الذي تمّ بالسرية المطلقة». وقد حرّر الرجل للحال مذكرة بعث بها من فوره إلى العشرات من المسؤولين في

الوزارة وجاء فيها بالحرف: «لقد التقى السيد بيريز والسيد هولست سراً بالسيد وارن كرستوفر. والمطلوب قطعاً الحفاظ على سر هذا الاجتماع».

في القدس ساد الوجوم. وانتابت رابين سورة غضب بارد. لقد بات يعلم أنه يستحيل من الآن فصاعداً إخفاء الحقيقة؛ ولسوف يبذل قصاراه ليؤخّر إلى أبعد مدى ممكن لحظة ذيوعها على الملأ. وكانت المفاوضات ما زالت تدور حول اتفاق الاعتراف المتبادل. وكان لا يزال يتعيّن عليه أن يكسب بضعة أيام أخرى.

وببرودة أعصاب ويكلبية ناجزة تصرف رئيس الحكومة. فحتى قبل أن يعود بيريز، استقبل مطولاً في مكتبه أعضاء الوفد الإسرائيلي إلى مباحثات واشنطن. وعلى الرغم من اثنين وعشرين شهراً من مناقشات غير مثمرة كانوا يتهيّؤون للرجوع إلى العاصمة الأميركية حيث سيتمّ، يوم ٣١ آب/ أغسطس، افتتاح جولة المناقشات الحادية عشرة.

وطبق رابين على أولئك الدبلوماسيين، الذين أدّوا له بدون أن يعرفوا على مدى تلك الشهور دور «الواجهة»، تعمية إعلامية شاملة. فقد تكلم بسطوة وطلب إليهم أن يظهروا تصلّباً في وجه المطالب الفلسطينية. وأضاف قوله:

ـ ليس هذا أوان التنازل، إذ إن م. ت. ف لم تكن قط مثلها اليوم في وضعية سيئة إلى هذا الحد.

نظر أعضاء الوفد إلى بعضهم بعضاً متفاجئين. وتابع رابين:

ـ حتى تكون لديكم صورة دقيقة عن الموقف، فقد طلبت إلى الجنرال أوري ساغي أن يقدم أمامكم عرضاً.

كان الرجل الذي دخل إلى المكتب بزيّه الرسمي هو رئيس الاستخبارات العسكرية. وبوجه عادم الانفعال وصوت بارد تابع «تعمية» أعضاء الوفد الذين كان لعرضه وقعه العميق في نفوسهم. ومما قاله: «إن م. ت. ف في حالة إفلاس تام، وعرفات يترنّح على قدميه. وتكفي الآن ‹نقفة› صغيرة للتطويح به».

إن رئيس الوفد، إيلياكيم روبنشتاين، لن يغفر لرابين هذه المداورة. فمنذ الإعلان عن التوصل إلى اتفاق سري شجبه علناً وامتنع عن العودة إلى واشنطن.

كان تقرير آخر، صحيح هذه المرة، يشغل بال رابين. فبناء على طلبه قامت أجهزة «شين بيت»، المكلّفة بالأمن الداخلي، و«أمان»، جهاز الاستخبارات العسكرية، بتحقيق في الأراضي المحتلة. وجاءت النتائج باعثة على القلق: فثمة عشرة آلاف مستوطن يهودي على استعداد لحمل السلاح لمعارضة أية خطة لحكم ذاتي. وأضاف التقرير: «إن منظمة حقيقية من طراز م. ج. س[1] يمكن أن ترى النور». وكان رابين يعلم أن انفجار عنف لا كابح له من شأنه أن يوقف عملية نقل السلطات.

وعرفات أيضاً يخشى احتمالاً كهذا. وقد أسرّ لأبي مازن: «إذا غرقت غزة في الفوضى، فلن نجد في إسرائيل شخصاً واحداً على استعداد للتخلي عن أراضٍ أخرى». واستذكر الرسالة التي أوصلها إليه بيريز، عن طريق هولست، ليلةَ تفاوضهما في أوسلو: «حيّدوا بسرعة راديكالييكم، فنحيِّد معارضتنا».

وما كان يجهل أن الإسرائيليين سيمدون إليه يد العون لمحاربة «حماس»، ولكنه لا يستطيع، لمجرد ذلك، أن يتورّط في صراع لا هوادة فيه مع الإسلاميين. فمثل هذا الاختيار قد يفضي إلى حرب أهلية شاملة بين الفلسطينيين.

إنه بحاجة إلى أن يحصل من رابين على بادرة للتهدئة. ولسوف يطلب من زياد أبو زياد أن يجسّ نبض رئيس الوزراء. والهدف: الحصول على إرجاع قسم من الأربعمئة مناضل من جماعة «حماس» ممن أبعدوا إلى جنوب لبنان في كانون الأول/ دسمبر ١٩٩٢.

إن زياد أبو زياد هو «عين» عرفات في الأراضي المحتلة. فهذا الفلسطيني، البالغ من العمر أربعة وخمسين عاماً والمولود في ضواحي القدس، مكلَّف بمراقبة تحركات فيصل الحسيني، زعيم فلسطينيي الداخل، الذي يرى فيه رئيس م. ت. ف منافساً.

---

(١) إشارة إلى منظمة الجيش السري الفرنسية التي عارضت مشروع ديغول لمنح الجزائر استقلالها. «هـ.م.».

التقى زياد بأفراييم سنيه، المستشار العسكري لإسحق رابين. الرجلان يعرفان بعضهما بعضاً منذ زمن بعيد. المناقشات دارت على بساط مكشوف. رابين أعطى موافقته على إرجاع قسم من المبعدين، رغم معارضة وفده في واشنطن. ولكن العسكريين الإسرائيليين اشترطوا أن يؤذن للمبعدين بالعودة بمعدّل خمسة في اليوم. فاستدعى عرفات أبا زياد.

ـ اسمع، أريدهم أن يرجعوا جميعاً دفعة واحدة، أو في أسوأ الأحوال على دفعتين.

نقل الفلسطيني الرسالة. وتلقى بعيد ذلك اتصالاً هاتفياً من سنيه الذي أبلغه: «كلفني رابين بأن أقول لك أنك تستطيع أخذهم متى تشاء، جميعهم معاً أو على دفعتين، حسب ما يوافقك، فهو ليس عنده مانع».

نقل زياد أبو زياد هذا الكلام إلى رئيس م.ت.ف. فكان رد هذا الأخير: «انقل تحياتي وعرفاني لرابين. فهي بادرة طيبة قد صدرت عنه».

قال لنا أبو زياد: إن الاتفاق المعقود في النرويج «يمنع من الآن فصاعداً على عرفات ورابين التراجع القهقرى. فكلاهما، بمعنى من المعاني، عالق في الفخ، ومحكوم عليه بأن يتابع عملاً سياسياً. وإعلان المبادىء الذي جرى توقيعه يمثل فقط جواز السفر الذي يسمح من الآن فصاعداً للطرفين بالتقدم في حقل من الألغام، حيث يتعين على كل واحد منهم أن يحسب بدقة خطواته ليتجنب أن ينفجر به لغم، فيفجِّر معه الجميع».

يوم الأحد ٢٩ آب/ اغسطس أبلغ شيمون بيريز الحكومة الاسرائيلية في اجتماع عقدته بكامل أعضائها بالاتفاق الذي تم توقيعه مع م.ت.ف والذي ينص على حكم ذاتي فلسطيني مقبل في غزة وأريحا. وبعد يومين أذاعت اسرائيل النبأ رسمياً، في اللحظة عينها التي كانت تفتتح فيها في واشنطن الجولة الحادية عشرة للمفاوضات الثنائية الأطراف. ويبدون أن يظهر على حيدر عبد الشافي، رئيس الوفد الفلسطيني، أي انفعال، صرّح قائلاً وكأن شيئاً لم يكن: «إننا سنواصل العمل لمنع انهيار عملية السلام».

ومع ذلك، وحسبما قالت حنان عشراوي، «كانت ساعة الواجهات والتمثيليات قد انتهت». فالمفاوضات الحقيقية قد استؤنفت عشية اليوم السابق في أوسلو. وفي اليوم التالي افترق أعضاء الوفدين الذين كانوا لا يزالون ينزلون في الطابق الثاني والثلاثين من فندق بلازا. فاتفاق الاعتراف المتبادل اصطدم بعدة نقاط متعثرة. فالاسرائيليون يريدون من م.ت.ف أن تتخلى عن «النضال المسلح» وليس فقط عن «الارهاب». وهم يريدون أيضاً نهاية الانتفاضة وإلغاء ميثاق المنظمة. ولقد كان عرفات صرّح في باريس أنه بات بحكم «المتقادم» Caduc، ولكن الميثاق كان لا يزال ينص على زوال دولة اسرائيل.

في ٢٠ آب/ اغسطس استبعد سنجر وسافير ثلاث وثائق قدمها الفلسطينيون. وفي إحدى اللحظات هتف أبو العلاء بسنجر بلهجة تجمع بين الغيظ والسخرية:

- بالمناسبة، يا يوئيل، لماذا لا تكتب أنت اقتراحاً، ثم نقوم نحن بمناقشته؟

فأجاب المحامي:

- موافق. سآخذ مشاريعكم الثلاثة وسأكتب شيئاً يكون بسيطاً وواضحاً في آن معاً.

رد أبو العلاء:

- اتفقنا.

وسيتم تعميد النص الذي اقترحه الاسرائيلي من قبل الوفدين باسم «وثيقة النقاط السبع»، وسيُعتمد أساساً للمفاوضات اللاحقة.

وفي الواقع، وكما كان يخشى رابين، فإن الاسرائيليين سيجدون أنفسهم وقد علقوا في الفخ. فالطرفان سبق لهما أن اتفقا على أن توقيع إعلان المبادىء سيكون مستقلاً تماماً عن التوصل إلى اتفاق بصدد الاعتراف المتبادل.

ومع ذلك، وفي الأيام الأولى من أيلول/ سبتمبر، أعلن الوفد الفلسطيني لسنجر وسافير:

ـ بدون اتفاق شامل حول الاعتراف المتبادل، لا توقيع على إعلان المبادىء. فياسر عرفات لا يستطيع أن يسمح بذلك.

فرد سنجر:

ـ لكننا كنا اتفقنا على ألا نربط بين الوثيقتين.

فقال أبو العلاء مسلّماً:

ـ نعم، هذا صحيح. لكن فات الأوان الآن. لقد حدث تسرب، وبات الجميع يعلمون أننا نتفاوض معكم.

وتضمن الاقتراح الأميركي، المسلَّم إلى القدس وتونس، فكرة احتفال كبير في واشنطن يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر. وقد قطع بذلك نهائياً كل إمكانية للانسحاب أمام المسؤولين الاسرائيليين. وبات يتوجب في مطلق الأحوال توقيع اتفاق الاعتراف قبل ذلك التاريخ.

في ٣١ آب/ اغسطس شرع رابين وبيريز بـ «بيع» الرأي العام الاسرائيلي مشروع الحكم الذاتي. وأمام البرلمان صرّح رئيس الوزراء: «إن آفاق السلام قد غدت مفتوحة الآن. فثمة حركة، في مجمل العالم العربي، باتجاه السلام. لا أريد أن أقول إنه لن تكون هناك عقبات أو صعوبات، لكني مقتنع بأن أفق السلام قد بات مفتوحاً الآن».

إن انهيار أسطورة «اسرائيل الكبرى»، التي يحامي عنها اليمين الاسرائيلي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، قد خلق صدمة حقيقية لدى المعارضة. ولوّح بنيامين نتانياهو، زعيم الليكود، بخطر إنشاء دولة فلسطينية يكون من نتيجتها تحول اسرائيل نفسها إلى دولة «سريعة العطب».

أما عرفات فقد بذل، من جانبه، نشاطاً دبلوماسياً مكثفاً. وفي ذلك اليوم نفسه اتصل، من الصباح الباكر، بدمشق. لكن الرئيس السوري رفض أن يكلمه. وقال رئيس م. ت. ف، وقد أربكه الحرج، لموظف القصر الرئاسي: «قل للأخ الحبيب، حافظ الأسد، إنني أتمنى أن أتمكن من لقائه في أسرع ما يمكن لتبديد كل سوء تفاهم».

وطار الزعيم الفلسطيني حالاً بعد ذلك إلى الاسكندرية حيث كان في انتظاره الرئيس مبارك. وشكر عرفات الرئيس المصري بحرارة على مساعدته. فردّ هذا الأخير: «لقد اتخذتَ قراراً طيباً وشجاعاً. انظر إلى مصر. لقد رجعنا إلى السلام، بمبادرة السادات، ونحن نحاول الآن أن ننمي اقتصادنا وأن نبني بلدنا. تلك هي غاية كل عملية السلام».

وافق عرفات على رأي محدثه وهو يوليه ابتسامة متكلفة. وفي الواقع، كان العرض الذي قدمه مبارك بعيداً عن مشاغله الفورية، فهمّه الأول هو عداء الرئيس الأسد. فلو قرر الرئيس السوري مقاومة الاتفاق لاستطاع أن يخلق «جبهة رفض» حقيقية تنحاز اليها دول عربية أخرى. وجعل اعتماده من جديد على الوساطة المصرية. وشرح مخاوفه لمبارك. فوعده الرئيس المصري قائلاً: «سأطلب الرئيس الأسد والملك فهد. هل تريدني أن أفعل ذلك الآن؟».

ابتهج رئيس م.ت.ف. ولكن الاتصالات لم تجدِ فتيلاً. فالرئيس السوري كان مجتمعاً إلى ملك الأردن، الحسين، الذي وصل لتوه إلى دمشق في زيارة غير متوقعة. فالتقارب الاسرائيلي ـ الفلسطيني لم يقابل بالارتياح من قبل الزعيمين.

وجاء جواب ملك العربية السعودية جافاً هو الآخر. فقد قال لرئيس الدولة المصرية: «أشكرك على إعلامي، لكني لا أريد أن أسمع شيئاً عن عرفات».

فحقد الملك فهد على القائد الفلسطيني كبير منذ أن وقف هذا الأخير إلى جانب صدام حسين أثناء حرب الخليج.

في عصر ذلك اليوم طار عرفات إلى السودان. التقى مطولاً بحسن الترابي، منظّر النظام الاسلامي الممسك بمقاليد السلطة في الخرطوم. ويرى العديد من الخبراء الغربيين أن النظام السوداني يوفر دعماً قوياً للعديد من الحركات المتطرفة الإسلامية. ولسوف يبذل عرفات قصاراه لإقناع الترابي، وهو رجل مثقف وبشوش، باستخدام كل نفوذه لدى المسؤولين عن «حماس» كيلا يندفعوا في معارضة عنيفة للاتفاق.

في ٢ أيلول/ سبتمبر وصل عرفات إلى الدار البيضاء حيث التقى مطولاً

بالملك الحسن الثاني. لقد كان العاهل المغربي أول مسؤول عربي يفتح حواراً مع الاسرائيليين، عندما استقبل موشي دايان، ثم رابين وبيريز. وكانت عدة لقاءات مهمة بين مسؤولين من الدولة العبرية وشخصيات فلسطينية، قد دارت فوق التراب المغربي. وأخيراً، فإن الملك يترأس لجنة القدس التي أنشأتها منظمة المؤتمر الإسلامي.

حال وصوله إلى المغرب أدلى عرفات بتصريح قرن فيه الشاعرية بالتهديد: «إن الدولة الفلسطينية في متناول أيدينا. وعلمنا الفلسطيني سيخفق سريعاً فوق أسوار القدس ومآذنها وكاتدراثياتها».

ولدى عودته إلى تونس، عصر ذلك اليوم نفسه، اطلع رئيس م.ت.ف على رسالة مرموزة بعث بها اليه رابين: «إنّ هذا الكلام غير مقبول. تذكر بنود اتفاقنا».

هل كان رئيس الوزراء الاسرائيلي يشير إلى البنود السرية التي قيل إنه قد تم التفاوض عليها؟ مهما يكن من أمر، فإن عرفات لن يعود أبداً إلى الكلام في العلن عن دولة فلسطينية.

في ٣ أيلول/ سبتمبر دارت، في جلسة مغلقة، مواجهة طويلة وصاخبة بين الرجل ذي الكوفية وبين أعضاء اللجنة المركزية لفتح، كبرى الحركات التي تتألف منها م.ت.ف. ومن أصل الثماني عشرة شخصية التي تضمها هذه اللجنة كان ستة أعضاء غائبين. فإيليا خوري، وهو أسقف مسيحي، مريض إلى درجة لا تسمح له بركوب الطائرة إلى تونس. ومحمود درويش، الشاعر، وشفيق الحوت، ممثل م.ت.ف في لبنان، قد استقالا إعراباً عن عدم موافقتهما على أساليب عرفات. والثلاثة الباقون قد قرروا مقاطعة الجلسة. ولسوف تستمر هذه الجلسة خمس عشرة ساعة.

بلغ من احتداد المناقشات أن اثنين من المشاركين تركا الاجتماع. وقد أُخِذ على عرفات طرائقه وعقده لاتفاق كان ينبغي أن يحظى أولاً بموافقة المجلس الوطني الفلسطيني. ورفض رئيس م.ت.ف كل الاقتراحات بدعوة هذا المجلس الفلسطيني للانعقاد للبحث في «خيار غزة ـ أريحا». وصاح أبو زكي، وهو من

المحتجين: «لقد تفاوضت سراً طيلة أشهر ثمانية لتتخلى عن حلم دولة فلسطينية».

إن الرجال، الذين يحيطون بعرفات، هم في غالبيتهم من نازحي ١٩٦٧ حينما احتلت اسرائيل غزة والضفة الغربية. ويبادر خالد الحسن، وهو من مؤسسي فتح، إلى الاعلان بدوره بعالي صوته: «إن هذا النص لا يذكر شيئاً عن عودة اللاجئين الذين اضطروا إلى النزوح عام ١٩٤٨. إلى أين نحن سائرون؟».

وكان من رأي فاروق القدومي أن إعلان المبادىء المتفق عليه مع اسرائيل «وصمة عار». والرجل، المسؤول رسمياً عن دائرة الشؤون الخارجية في م.ت.ف، حانق على عرفات لاستبعاده من المفاوضات. وبُعيد ذلك الاجتماع طار إلى بغداد ليجري محادثات مطولة مع صدام حسين.

بلغ من حدة العبارات المتبادلة أن صاح أحد أعضاء اللجنة المركزية بعرفات: «يصعب عليّ من الآن فصاعداً أن أنظر في وجهك مباشرة». وكان رد رئيس م.ت.ف: «سوف يشكرني أبناؤك ذات يوم!».

انتهى الاجتماع في الساعة ٣ من صباح السبت ٤ أيلول/ سبتمبر. وقال عرفات لمعارضيه قبل رفع الجلسة: «إن النص الذي قدمته اليكم اتفاق بيننا وبين اسرائيل، وما من أحد يستطيع أن يغير فيه كلمة أو حتى أن يضيف إليه فاصلة. تقبلونه كما هو أو ترفضونه كما هو. من ضد؟».

ارتفعت أربع أيدٍ. فختم عرفات بقوله وهو يرمق بنظره باسماً الأعضاء الثمانية الآخرين في اللجنة المركزية:

ـ حسناً، أعلن أن نتيجة النقاش جاءت مؤيدة لي، وأن الاتفاق قد تمت الموافقة عليه.

١٨

آباء وأبناء

بعد الآباء، الأبناء. إننا نسمع بكنى ما هي بغريبة عنا، لكن الأسماء ليست هي نفسها. . .

إنهم أبناء رجال عرفناهم. أبناء الذين لم يكفوا، على مدى ثلاثين عاماً، عن محاولة تشييد السلام. إنه لصغير ذلك العالم الـذي يتنازع ثم يتصـالح. واسرائيل بلد متناهٍ في الصغر، والفلسطينيون، بدورهم، محـدودو العدد. ولا عجب، في خاتمة المطاف، أن نعود إلى التقاء الأشخاص أنفسهم.

إن الجهود المخلصة التي بذلها الآباء ذهبت هباء. وقد تعين على الجيل الثاني أن يتدخل ليكتب لها النجاح.

لقد فاوض رون بونديـك في أوسلو منذ اليـوم الأول، إلى جانب يـائير هرشفلد. وهو، على غرار هذا الأخير، يدرِّس تاريخ الشرق ـ الأدنى في جامعة تل ـ أبيب.

والـده، هربـرت، صحفي اسرائيلي ـ دنمـاركي معروف. وابن الـرابعة والثلاثين هذا، القصير القامة، ذو العينين الدائبتي الحـركة من وراء نـظارة مصدّفة، يتذكر جيداً مناقشات والده مـع الكاتب عمـوس إيلون ومعنا بـالذات. كنا نبحث عن الطريق إلى السلام، وها قد اهتدى اليه، في الوقت المناسب،

الصبي الصغير الذي كان يصغي الينا بانتباه.

وفي الجانب المقابل، كلف ياسر عرفات ابناً آخر، هو سريّ نسيبه، بتنظيم الإدارة.

ولكم من ساعات أمضيناها ونحن نتداول سراً مع والد سريّ، أنور نسيبه! فأنور نسيبه، الوزير الأسبق للملك حسين، والرجل الفذ الشخصية، كان قد استقال من الوزارة في أعقاب حرب الأيام الستة كيما يبقى في القدس. وكانت داره الفسيحة تقع في الجزء الشرقي من المدينة، الذي استولى عليه الاسرائيليون من الأردنيين، في قبالة فندق «أمريكان كولوني».

لم يكن الابن، في ذلك الحين، يبدي كبير اهتمام بأوهامنا.

ولقد درس، بعدئذ، في الولايات المتحدة، ثم أصبح يدرِّس في جامعة بير زيت؛ ومنذ سنوات وهو يناضل في سبيل حمل م.ت.ف على التفاوض مع اسرائيل.

يُعد موشي سنيه من بين مؤسسي دولة اسرائيل. فقد كان القائد التاريخي للهاغانا، ثم تولى قيادة واحد من الحزبين الشيوعيين الاسرائيليين الخارجين عن إرادة موسكو.

ابنه، أفراييم، على صورته؛ مربوع، بل بدين، ذو وجه مدور، بشوش، تضيئه ابتسامة عابرة. وقد ورث عن والده نشاطه وغدا جنرالاً، ونائباً، ورئيساً للجنة الدفاع في البرلمان.

ويتذكر أفراييم سنيه مشاريعنا، ومقالاتنا، واتصالاتنا ونداءاتنا. وقد احتفظ بجميع رسائلنا إلى والده.

وقد كلّف إسحق رابين، رئيس الوزراء، أفراييم بأن ينظم مع عرفات محادثات موازية لمحادثات أوسلو.

وقد صارحنا قائلاً، وهو يضحك: «شيء لا يصدق، أليس كذلك؟ ولاسيا أن هنالك أموراً فاتتكم معرفتها! ففي إبان حرب لبنان، كنت مسؤولاً عن قطاع لبنان الجنوبي. وذات يوم من عام ١٩٨٢ صعدت، في بيروت، إلى

سطح بناء يقع في الوسط التجاري، بصحبة الجنرال دروري، والرائد اللبناني حداد، والأميركي درابر، مساعد فيليب حبيب. وفجأة ظهر ياسر عرفات في مناظيرنا. كان يصعد إلى متن باخرة، بصحبة هيئة أركانه. كانوا يبدلون منفاهم بآخر. وتمكنت من قراءة اسم الباخرة، فلم أصدق عينيّ: الأطلنتس. أهو نذير؟ وأريته للآخرين. ولا ريب في أن الفكرة عينها راودتنا نحن الأربعة، غير أن الأميركي هو الذي عبّر عنها إذ قال بصوت مسموع: «ماذا لو غرقت ‹أطلنتس› هذه على غرار القارة المغمورة؟» عرفات... كنت أراه في منظاري بوضوح تام، لكأني سلطت نحوه جهاز تسديد. ثم... ثم هأنذا أرى نفسي اليوم أقوم بدور الوسيط بينه وبينه إسحق رابين».

١٩

المواجهات الأخيرة

في الخامس من أيلول/ سبتمبر كان شيمون بيريز في باريس. أفادنا قائلاً: «لقد أصبحنا على قاب قوسين أو أدنى من السلام الكامل». في صبيحة ذلك اليوم التقى بيريز بنظيره الفرنسي آلان جوبّيه قبل أن يطير نحو جنوب غربي فرنسا، حيث كان فرنسوا ميتران قد دعاه إلى تناول طعام الغداء على مائدته، في مزرعته الكائنة في لاتشه[1]. وقد سأل الرئيس الفرنسي، الذي كان يرتدي سترة فاتحة اللون وقميصاً مفتوح الياقة، «صديقه الاسرائيلي القديم» عن التقدم الذي أحرزته المفاوضات المتواصلة في باريس والدائرة حول الاعتراف المتبادل. وأجابه شيمون بيريز قائلاً: «الإرادة قائمة، أما التاريخ فلم نتوصل إلى تحديده بعد».

ولقد انكشف سر المفاوضات، لكن الصحافة عجزت عن تعيين مكان تواجد المفاوضين.

وفي اليوم التالي، في السادس من أيلول/ سبتمبر، طار ياسر عرفات إلى دمشق. أجرى مع الرئيس حافظ الأسد، وعلى مدى ست ساعات، محادثات دارت في «جو من الاخاء، والمودة والكرامة» على حد تعبير زعيم م.ت. ف. والحال أن اللقاء كان اتسم بالبرود والتوتر. فقد أصغى الرئيس السوري بصمت، والاستياء بادٍ عليه، إلى الشروح المسهبة التي قدمها الزعيم الفلسطيني.

(١) بلدة فرنسية في مقاطعة اللاند. «هـ.م».

وقد أثارت حجة بعينها سخط الأسد. فقد أفاده عرفات بحصوله على تأييد اثنتي عشرة دولة عربية، من بينها ست دول خليجية غنية كانت قد تبنت، في الآونة الأخيرة، موقفاً معادياً من م.ت.ف ومن زعيمها.

وقد بدد هذا النبأ آمال الزعيم السوري المعقودة على عزل المنظمة الفلسطينية في الساحة العربية. وأدرك الرئيس الأسد أن الأميركيين قد وضعوا ثقلهم، ولا بد، في الميزان لنيل تأييد تلك الأقطار كافة. بل حتى جاره الأردني لم يتأخر عن قلب موقفه.

وبنبرة جافة ردّ على عرفات الذي كان يحاول أن يشرح له الفوائد التي سيعود بها هذا الاتفاق على المنطقة برمتها، فقال: «إنه حل فلسطيني. وأنتم أحرار في التفاوض على النحو الذي اخترتم». وأمسك هنيهة ثم أضاف، ثابتاً على مقعده: «ولكن بحسب الاتفاق الذي أبرمتم، تبقى اسرائيل هي صاحبة السيادة على الأرض وسوف يتعين عليكم دوماً الحصول على إذن من الاسرائيليين للدخول إلى الأراضي وللخروج منها، أو للذهاب من غزّة إلى أريحا».

وقد أصابت هذه الحجة هدفها. فلزم عرفات الصمت، وقد غلب عليه الارتباك. غير أن الرئيس الأسد ما كان يجهل أن هامش المناورة المتاح أمامه هو نفسه محدود للغاية.

صحيح أن دمشق تستضيف زهاء عشر منظمات فلسطينية مناهضة للاتفاق. وقد ذهب المسؤول عن إحدى هذه المنظمات، أحمد جبريل، إلى تشبيه عرفات بـ«كلب لا يتوانى عن المتاجرة بأمه في سبيل السلطة». مع ذلك، وكما أوضحه لنا أحد معاوني عرفات الذي حضر اللقاء، «ما كان الرئيس الأسد يستطيع، كما شعرنا، أن يعارض تسوية ستنتهي إلى انسحاب عسكري اسرائيلي من الأراضي المحتلة».

في السابع من أيلول/ سبتمبر وصل عرفات إلى القاهرة. وكان قد حوّل لتوه إلى المصارف المصرية مبلغ مليار دولار تم سحبه من أرصدة فتح السرية. وقد رصد هذا المبلغ لتمويل الأشغال العامة على صعيد البنية التحتية في غزة وأريحا.

اصطدم عرفات ومستشاروه بمشكلة شائكة: فقد طالب الاسرائيليون بإلغاء ميثاق م.ت.ف الذي صيغ في العام ١٩٦٤ والذي يصف الدولة اليهودية بكيان صهيوني، وعنصري، وغير مشروع ويدعو إلى تـدميرهـا بالقـوة. والحال انـه يستحيل على رئيس م.ت.ف أن يبدل أو يعدل واحدة من فقرات الميثاق الثلاث والثلاثين من دون موافقة الثلثين من أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني الستمئة. ومثل هذا الإجراء طويل وينطوي على مجازفة، فقد يستغرق أسابيع وقد ينتهي إلى فرض إعادة النظر في الاتفاق.

سعى أسامة الباز وعمرو موسى، وزير الخارجية المصري، إلى التقريب بين وجهات النظر، غير أن الاسرائيليين دللوا على تصلب شديـد. وكان عـرفات أعلن في بـاريس أن الميثـاق قـد «عفى عليـه الـزمن»، لكن إسرائيـل لم تكتفِ بهذه الصياغة. وقد اقترح المفاوضون الفلسطينيون عبارة «غير ذي موضوع»؛ غير أنها رُفضت بدورها. وبدت المفاوضات وكأنها قد انتهت إلى نفق مسدود. وقد سألت شخصية دبلوماسية، مرت بمصر، الوزير عمرو موسى: «أهنالـك حقاً ولادة؟».

فأجاب المسؤول المصري بحركة استسلامية من يده: «ما أستطيع أن اؤكده لك هو أن ثمة وليداً. أما تاريخ الولادة فرهن بأمور عدة».

في عشية الثامن من أيلول/ سبتمبر، دخل أوري سافير ويوئيل سنجر إلى بهو فندق بريستول، الكائن في شارع فوبور ـ سانت ـ اونوريه، على بعد خطوتين من قصر الاليزيه حيث مقر رئاسة الجمهورية. وولجا مباشرة إلى المصعد الخشبي القديم الذي أقلهما إلى الطابق الذي يقع فيه الجناحان ١١٧ و ١١٨ حيث كان ينتظرهما يوهان يورغن هولست، وورود لارسن، وأبو العلاء وحسن عصفور.

كان كل جناح يؤلف في الواقع شقة فخمة، تطل شرفتها على برج ايفل المضاء وعلى برج مونبرناس. وكان ديكور الشقة متقناً. جدران ملبَّسة بالخشب، مقـاعد وثـيرة، أرائك ذات قـماش مخطط، طـاولة واطئـة من البرنيق أمـام موقـد، اضاءة خافتة...

كان هولست هو الذي اختار الفندق. فقد كان النرويجي يؤثر هذا المكان، مع أنه، بحسب تقدير سافير، «أقل الأمكنة ملاءمة لإجراء مباحثات من هذا النوع؛ فكمن يريد أن ينظم لقاء سرياً في القدس، فيختار فندق الملك داود مكاناً لانعقاده. ولكن لحسن الحظ، راح الصحفيون الذين علموا بوجودنا في باريس، يبحثون عنا في كل مكان إلا في المكانين اللذين تواجدنا فيهما فعلاً: فندق كريون وفندق بريستول».

كان الرجال الستة يتوقعون أن تستمر جلستهم حتى الفجر. فقد كان يتعين عليهم، قبل أن تشرق شمس اليوم التالي، تذليل شتى الصعوبات التي لا تزال قائمة. فقد كان على هولست أن يطير ظهراً إلى تونس، ومن ثم إلى تل أبيب، حاملاً معه وثيقتين برسم التوقيع من قبل عرفات ورابين. ومن خلال تبادل هاتين الوثيقتين، ستعترف اسرائيل بوجود منظمة التحرير الفلسطينية في حين ستضمن هذه الأخيرة، في جملة ما ستضمنه، حق اسرائيل في الوجود وفي الأمن.

وقد بقي عرفات ورابين وبيريز طيلة تلك الليلة على اتصال هاتفي مع المفاوضين. ولم يوصِ هؤلاء الأخيرون على عشاء، بل لم يطلبوا حتى أن يصار إلى إمدادهم بوجبة خفيفة، بل اكتفوا باستحضار كميات مذهلة من القهوة إلى غرفهم. وإزاء مشهد هؤلاء الرجال الذين توزعوا حول الطاولة وقد خلعوا ستراتهم وشمّروا عن سواعدهم، كان خدم الفندق الداخلون عليهم يتهيأ لهم وكأن لعبة بوكر طويلة على وشك أن تبدأ.

قال لنا أوري سافير مستذكراً تلك الليلة: «كل ثلاث ساعات كانت أزمة جديدة تبرز».

كانت المباحثات قد استهلت قبل بضعة أيام في فندق كريون. وبدأها سنجر بأن أعلن.

ـ نريد أن تعترفوا بحق اسرائيل في الوجود بأمن وسلام.

أجاب أبو العلاء:

ـ نحن موافقون.

ونظر إليه سنجر مشدوهاً:
ـ إن جوابك لا يأتينا بشيء ملموس.

غادر الفلسطينيان الغرفة للاتصال هاتفياً بتونس. وعندما عادا، أعلن عصفور للاسرائيليين.

ـ لقد تحدثنا مع أبي عمّار. ما سرّه إطلاقاً طلبكما، ولكنه موافق على الاعتراف بحق اسرائيل في أن تعيش بأمن وسلام.

وانكب سنجر على صياغة مشروع يشير إلى «حق اسرائيل في الوجود بأمن وسلام».

وقرأ أبو العلاء النص وعقّب قائلاً:
ـ كلا؛ لقد وافقنا على كلمة «العيش» ولا يسعنا أن نقبل بكلمة «الوجود».
وتبادل سنجر وسافير النظرات، وقد سيطر عليهما ذهول واضح.
ـ ولكن أي فارق تلمس بين هاتين الكلمتين، سأل سافير.
ـ إني ألمس فارقاً عظيماً، أجاب أبو العلاء برزانة. فالعيش أمر طبيعي، أما الوجود فله دلالة شرعية.

وحصلت مواجهة في علم الدلالة تحولت خلالها كل كلمة إلى مفهوم. وسوف يقول لنا سافير مستذكراً الساعات الأخيرة من المباحثات في فندق بريستول: «كانت تلك الليلة شبيهة بعملية وضع».

في الثالثة والنصف فجراً اتصل سافير ببيريز، الساهر في مكتبه، مرة أخرى. ونقل المدير العام لوزارة الشؤون الخارجية نبأ اعتراف عرفات باسرائيل وعدوله عن الارهاب. كما أشار إلى موافقة الزعيم الفلسطيني على الاقرار خطياً بأن بنود الميثاق الوطني الداعية إلى القضاء على إسرائيل قد غدت لاغية invalid. ولكنه أوضح، في النهاية، بأن عرفات لا يزال يرفض إصدار توجيهات تضع حداً للانتفاضة، تلك الثورة الشعبية الفلسطينية التي كانت قد انطلقت قبل زهاء ستة أعوام والتي افلتت، جزئياً، من قبضة رقابة قيادة م.ت.ف في تونس.

وعندما انتقل سافير وسنجر إلى الغرفة المجاورة لاستشارة القدس، قال أبو

العلاء، وكأنه لا يحمل هماً، لهولست ولارسن: «لا داعي للقلق، فقد خرجا لصيد السمك..».

واتصل بيريز على الفور برابين ليعرض عليه موقف الفلسطينيين. «لن نتراجع بصدد الانتفاضة ، أجاب رئيس الحكومة الاسرائيلية، وإلا جاء الاتفاق nicht akhim oun nicht akher »(وهذا التعبير يعني باليديشية «غير قابل للاستمرار»).

وفي السادسة صباحاً، استأذن الاسرائيليان بالانصراف لأخذ قسط من الراحة. وكانت ثمة نقطة واحدة لا تزال عالقة: فاسرائيل تصرّ على أن تبادر م.ت.ف إلى دعوة سكان الأراضي المحتلة إلى وضع حد لأعمال العنف والارهاب.

ولم يتأخر جواب عرفات بصدد هذه المسألة: «تستحيل مطالبة سكان الأراضي المحتلة بالتزام جماعي».

اقترح الاسرائيليون، عند ذاك، أن تدعو م.ت.ف سكان الأراضي إلى «نبذ» to reject العنف والارهاب. وبدت الكلمة المنتقاة وكأنها قد حظيت برضى الفلسطينيين.

ولكن عندما عاد الوفدان إلى الاجتماع في الحادية عشرة صباحاً لتحرير الرسالتين اللتين سوف يحملها هولست إلى تونس وإسرائيل، أعلن أبو العلاء: «ان جوابنا على المطلب الأخير هو 'كلا'. فقد تشاور عرفات مع أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير فاعترضوا على فكرة توجيه نداء إلى سكان الأراضي المحتلة».

وسعى سنجر إلى الاتصال بشيمون بيريز. كان الوزير يتكلم في الكنيست في أثناء ذلك. وقد مكث المحامي قابضاً على سماعة الهاتف ريثما يغادر الوزير المنصّة.

ـ ماذا يجري أيضاً؟ سأل بيريز وقد نفد صبره.

ـ نحن بصدد أزمة جديدة على ما يبدو.

ـ سوف استشير رابين.

وبعد أقل من عشر دقائق، رنّ الهاتف في جناح البريستول. وأعلن بيريز باقتضاب: «لا اتفاق بدون النداء».

استمرت المشادّة بين الوفدين رغم أن هولست كان مضطراً إلى الاقلاع في الواحدة ظهراً، على أبعد تقدير، حاملاً معه الوثيقتين. وقد اضطر الفلسطينيون إلى الرضوخ في الدقائق الأخيرة. «لم يكفوا عن الاعتقاد بأننا سوف نعدل عن هذا المطلب في اللحظة الأخيرة» قال سافير لاحقاً. فمن دون أن يأتي على ذكر الانتفاضة أكد عرفات في رسالته إلى رابين: «. . . إن منظمة التحرير الفلسطينية ستنبذ استخدام الإرهاب وغيره من أعمال العنف، وستتحمل المسؤولية عن كل عناصر منظمة التحرير الفلسطينية وأفرادها كي تضمن امتثالهم وتمنع العنف وتؤدب المخالفين».

وثمة رسالة أخرى موجهة إلى هولست أشارت إلى «أن منظمة التحرير الفلسطينية تشجع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة وتدعوه إلى. . . رفض العنف والإرهاب».

وعندما غادر الوزير النرويجي، يرافقه لارسن، فندق بريستول قاصداً المطار، وحاملاً في حقيبة يده الرسائل الثلاث، اثنتان منها للتوقيع من قبل عرفات والثالثة ليوقعها رابين، تنفس الرجال الأربعة، الذين بقيوا في الجناح، الصعداء. فقد توصلوا، في نهاية المطاف، إلى إنجاز مهمة اعتبرت مستحيلة وغير قابلة للتحقيق في نظر الكثيرين.

انه لرمز غريب لهذا السلام الذي قد يقيض له أن يتبلور، أن تلتقي ابنة أوري سافير وابن أبي العلاء للمرة الأولى عشية ذلك اليوم في مبنى الفندق. فالفتاة قد أنهت لتوها خدمة العلم، في حين أن الشاب، الحائز على جواز سفر أميركي، يقوم بجولة في أوروبا. وفي الوقت الذي كان فيه والداهما يتواجهان بصدد اختيار الكلمات ومواقع الفواصل، كانا هما يتناقشان بود ويتمازحان ويعزمان على تمضية السهرة معاً.

بعد رحيل هولست، استدار أبو العلاء نحو حسن عصفور ثم أمعن النظر

في يوئيل سنجر وأوري سافير. كانت علائم التعب بادية على وجوههم جميعاً. ومرر الفلسطيني يده على وجهه ثم أطلق تنهيدة طويلة:

ـ بصراحة، لقد كانت الأمور صعبة ، لكني اعتقد بأني سوف افتقد هذا كله . . .

وابتسم لخصميه وأضاف قائلاً:

ـ يؤسفني ألا يكون في مستطاعي مواصلة التفاوض معكما، فقد راق لي ذلك.

وابتسم سنجر بدوره، ثم أخذ يقلّد صوت وحركات الفلسطينيين أثناء المباحثات، مثيراً موجة من الضحك الشديد في الغرفة.

ـ أي عصابة من المحتالين نشكل نحن الأربعة، قال أبو العلاء موجهاً كلامه إلى سنجر.

وعقب المحامي لاحقاً: «كانت ملاحظته بمثابة مديح. فقد كانت تعني، فيما تعنيه: كنا ندرك أنكما تنصبان لنا فخاخاً، وكنتما تدركان أننا نفعل ذلك بدورنا. ولكننا جميعاً استهوانا القيام بذلك».

في مطار تونس كان حشد من الصحفيين في انتظار هولست ولارسن اللذين شقا بصعوبة طريقهما حتى السيارة التي كان قد احتل مسؤول في م.ت.ف أحد مقاعدها. كان الرجل مناضلاً مخضرماً، وصديقاً قديماً للنرويجيين. سأل، وهو يشير بإصبعه إلى الحقيبة التي قبض الوزير عليها بيده:

ـ هل كل شيء فيها؟

فاومأ النرويجي برأسه أنْ أجل. وأخذ الفلسطيني يبكي على كتف لارسن الذي راح يشهق بدوره.

في أثناء ذلك، كان جو من التوتر يخيم على مقر القيادة العامة لمنظمة التحرير. فاللجنة التنفيذية للمنظمة كانت قد أنهت تواً جلستها. وقد صوت تسعة من أعضائها، هذه المرة، لصالح عرفات، وأربعة ضده. ولكن ما من وجه من بين الحضور كان يشع بالفرح. وقد قاطع فاروق القدومي الجلسة وذهب

بعض الذين تحدثوا في أثنائها إلى القول بأن م.ت.ف قد بالغت في تقديم التنازلات.

وخرج عرفات من القاعة التي كانت قد انعقدت فيها الجلسة، والتي غطت أحد جدرانها صورة مكبّرة للمسجد الأقصى في القدس، وذهب لملاقاة النرويجيين. وبعد عناق طويل، انفرد عرفات بهولست في غرفة مجاورة. وأخرج الوزير النرويجي الرسالتين من حقيبة يده المصنوعة من الجلد البني. وللحال وضع رئيس م.ت.ف نظارته على عينيه، وقرأ الرسالتين بتمعن، ثم ذيلهما بتوقيعه الذي كان قد سُبّق، في أسفل الصفحة، بعبارة «مع الاخلاص». كانت الرسالة الأولى موجهة إلى إسحق رابين والثانية إلى هولست. وقد جرى الاحتفال في جو غريب، غابت عنه كل بهجة. وثمة مصدر واحد تولى تسجيل تلك اللحظة. وقد وافق عرفات على مطلب اسرائيلي آخر بأن وقّع الرسالتين باسم «رئيس م.ت.ف» لا باسم «رئيس فلسطين» كما كان يتمنى.

هل تراءت له، في تلك اللحظة، حدود الاتفاق الذي وقّع عليه؟

شيّع هولست إلى خارج المبنى حيث كان يخيم جو حار مشبع بالرطوبة. وتقدم الصحفيون باتجاههما. كان عرفات يحاول الابتسام، غير أنه بدا وكأنه ذاهل عما حوله. وقد ردّ بصورة آلية على سؤال طرح عليه: «أجل، لقد وقّعنا».

وعشية التاسع من أيلول/ سبتمبر ذاك صعد هولست إلى سيارة سوداء فخمة أقلته إلى فندق هيلتون، القائم على مرتفعات تونس، حيث أخذ قسطاً من الراحة قبل أن يطير من جديد قاصداً تل أبيب. بعد ذلك، توجه براً إلى القدس حيث كان شيمون بيريز ينتظره على الفطور في فندق الملك داود. وفيما بعد انضما إلى إسحق رابين. كانت مائدة قد اعدت؛ وأخذ بيريز وهولست مكانهما في جوار رئيس الوزراء، في مواجهة عدسات التلفزيون الاسرائيلي الذي تولى نقل الاحتفال مباشرة.

استدار رابين نحو هولست، وقد ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجهه، وقال:

ـ لقد جئتني برسالة على حد علمي.

فناوله النرويجي الرسالة التي وقعها عرفات. وضع رابين نظارته هو الآخر على عينيه وراح يقرأ بتوءدة نصاً حفظ في الواقع عن ظهر قلب كل سطر من سطوره. قال شاهد حضر الحفل:

«لقد بدا أشبه برجل يهمّ بشراء سيارة، إذ حرص على إعادة قراءة العقد للتأكد من مطابقته التامة لما تفاوض عليه مع البائع».

وأخرج رابين، وقد ظهر على سيمائه الرضى، قلم حبر ناشف أزرق من جيب سترته الداخلي وذيّل الرسالة، الموجهة هذه المرة إلى رئيس م.ت.ف، بتوقيعه: إ. رابين.

بيد أنه شطب، بجرّة قلم، على عبارة «مع الاخلاص» الواردة في أسفل الرسالة، قبل التوقيع.

وكانت الساعة تقارب آنذاك العاشرة، من صبيحة العاشر من أيلول/ سبتمبر.

من ياسر عرفات إلى إسحق رابين:

٩ أيلول ١٩٩٣

السيد رئيس الوزراء

ان توقيع إعلان المبادىء يمثل بداية حقبة جديدة في تاريخ الشرق الأوسط. ومن منطلق اقتناع راسخ بذلك أود أن اؤكد الالتزامات الآتية لمنظمة التحرير الفلسطينية:

تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بحق دولة اسرائيل في الوجود في سلام وأمن.

تقبل منظمة التحرير الفلسطينية قراري مجلس الأمن الرقمين ٢٤٢ و٣٣٨.

تلزم منظمة التحرير الفلسطينية نفسها عملية السلام في الشرق الأوسط وحلاً سلمياً للنزاع بين الجانبين وتعلن أن كل القضايا العالقة المتعلقة بالوضع النهائي ستحل من طريق المفاوضات.

تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية أن توقيع إعلان المبادىء يشكل حدثاً تاريخياً يفتتح عهداً جديداً من التعايش السلمي يخلو من العنف وكل الأعمال الأخرى التي تهدد السلام والاستقرار ووفقاً لذلك فإن منظمة التحرير الفلسطينية تنبذ استخدام الارهاب وغيره من أعمال العنف وستتحمل المسؤولية عن كل عناصر منظمة التحرير الفلسطينية وأفرادها كي تضمن امتثالهم وتمنع العنف وتؤدب المخالفين.

وفي ضوء الوعد بحقبة جديدة وتوقيع إعلان المبادىء وعلى أساس القبول الفلسطيني بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ فإن منظمة التحرير الفلسطينية تؤكد أن بنود الميثاق الفلسطيني التي تنكر حق اسرائيل في الوجود وبنود الميثاق التي لا تنسجم والالتزامات الواردة في هذه الرسالة هي الآن غير سارية وباطلة. وتالياً فإن منظمة التحرير الفلسطينية تتعهد أن ترفع الأمر إلى المجلس الوطني الفلسطيني للاقرار الرسمي وادخال التعديلات اللازمة في ما يتعلق بالميثاق الفلسطيني.

المخلص
ياسر عرفات
رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

من ياسر عرفات إلى يوهان يورغن هولست، وزير الخارجية النرويجي:

٩ أيلول ١٩٩٣

العزيز الوزير هولست

أود أن اؤكد لكم أنه لدى توقيع إعلان المبادىء سأضمن المواقف الآتية في تصريحاتي العلنية:

في ضوء الحقبة الجديدة التي يمثلها توقيع إعلان المبادىء، فإن منظمة التحرير الفلسطينية تشجع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة وتدعوه إلى المشاركة في الخطوات التي تؤدي إلى إعادة الحياة إلى طبيعتها ورفض

العنف والإرهاب والتي تساهم في السلام والاستقرار والمشاركة بنشاط في إعادة الاعمار والتنمية الاقتصادية والتعاون.

المخلص
ياسر عرفات
رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

جواب إسحق رابين إلى ياسر عرفات:

٩ أيلول ١٩٩٣

السيد الرئيس

رداً على رسالتكم في أيلول ١٩٩٣، أود أن اؤكد لكم أنه في ضوء التزامات منظمة التحرير الفلسطينية الواردة في رسالتكم، قررت حكومة اسرائيل الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني وبدء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية في إطار عملية السلام في الشرق الأوسط.

إسحق رابين
رئيس وزراء اسرائيل

«اعتقد بأنها بداية عصر جديد، أعلن رابين فور انتهاء حفل التوقيع. أملي أن يضع هذا الاتفاق حداً لمئة عام من المواجهات الدموية ومن المصائب بين الفلسطينيين واليهود، وبين الفلسطينيين والاسرائيليين». بيد أنه أضاف لاحقاً، في جلسة خاصة، وقد اكتأب وجهه: «لا يزال أمامنا طريق طويل يتعين علينا اجتيازه».

وفي اليوم عينه، أفاد استفتاء نشرته الصحف بأن ٥٧ بالمئة من الاسرائيليين يؤيدون خيار غزة ـ أريحا وبأن ٤١ بالمئة من بينهم يعارضونه.

وبموجب هذا الاتفاق، تخلت م.ت.ف عن الهدف الذي كان وراء تأسيسها قبل تسعة وعشرين عاماً، أي عن «تحرير كامل أراضي فلسطين».

«إن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف بحق إسرائيل في العيش في أمن وسلام». بالمقابل، فإن إسرائيل «تعتزم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني». وقد رفض رابين ومفاوضوه إضافة عبارة «ممثلاً أوحد». وكان رئيس الوزارة الاسرائيلية قد ردّ عشية ذلك اليوم على انتقادات وجهت إليه بأن قال: «لا يعقد السلام قط مع أصدقاء، بل يعقد على الدوام مع أعداء كريهين».

بعد بضع ساعات وجه البيت الأبيض دعوتين إلى اسرائيل وإلى م. ت. ف لاحتفال ١٣ أيلول/ سبتمبر. لم يتوقع أحد في واشنطن في حينه حضور عرفات ورابين. فقد كان من الأرجح أن يُصادق على الاتفاق على مستوى وزاري: شيمون بيريز عن اسرائيل، وأبو مازن عن م. ت. ف.

بيل كلنتون، المتوجه إلى ولاية كاليفورنيا على متن طائرة بوينغ ٧٤٧ الرئاسية، استغل هذه الرحلة ليمارس بدوره تلك «الدبلوماسية الموازية» العزيزة على قلب جورج بوش. وقد أجرى عدداً من المكالمات الهاتفية مع الأبطال الرئيسيين.

بادر أولاً، وقد جلس فوق مقعد جلدي وفرش ملفاته على لوح خشبي بجواره، إلى الاتصال برابين.

- إسحق، تهانيّ. ما شعورك اليوم؟ إن هذا الاتفاق لعظيم حقاً. نحن جميعاً فخورون بكم.

أجاب رابين، بصوته البطيء، بلهجة مازحة ومتشككة في آن:

- هل تصدِّق يا سيادة الرئيس؟ لقد وقّعت لتوي على رسالة موجهة إلى ياسر عرفات. والحال اني كنت قد حاربته على مدى عشرات السنوات.

- هل توقعت أن يمضي الرئيس عرفات حتى النهاية؟ سأل كلنتون.

تردد رابين لحظة قبل أن يجيب:

- بصراحة، لا!

- وأنا كذلك، أضاف الرئيس الأميركي، غير أنه باقدامه على هذا الخيار الممتاز أعطى الجيل القادم من الأطفال الفلسطينيين فرصة في حياة طبيعية.

واتصل كلنتون بعد ذلك بالملك فهد.

ـ لقد كنتم، يا صاحب الجلالة، حليفاً كبيراً للولايات المتحدة وعملتم بقوة كبيرة في سبيل حل سلمي لأزمة الخليج. لكننا، لم نعد اليوم في السياق نفسه لاتفاقات كمب ديفيد، عندما قبلت الولايات المتحدة بتحمل الجزء الأكبر من المسؤوليات المالية، نظراً للوضع الدولي السائد آنذاك وللمواجهة القائمة بين الدولتين العظميين.

ـ اتفقوا على تنظيم الأشياء، أجاب العاهل السعودي، واعلمني بما هو مطلوب منا. سنمشي معكم. فالأمر بالغ الأهمية. إن تحفظاتي إزاء عرفات لا تغيب عنك، غير أننا في صدد اتفاق عظيم.

وكان آخر اتصال هاتفي أجراه الرئيس الأميركي مع الرئيس حافظ الأسد. فثمة عبارة أطلقها خبير في شؤون الشرق الأوسط كانت ماثلة في ذهن كلنتون: «لا حرب في هذه المنطقة من دون مصر، ولا سلام دائم من دون سورية».

استغرقت المكالمة بين الرئيسين زهاء ٣٠ دقيقة. وقد دلل الرئيس السوري عن تساهل وعن حزم في آن معاً. ومما قاله لكلنتون:

ـ اعتقد بأنكم على حق. فهذا الاتفاق يشكل عاملاً ايجابياً بالنسبة إلينا جميعاً. وأنا على استعداد لدعم ما تم الاتفاق عليه بين م.ت.ف واسرائيل، ولكن يتعين ألا تقف الأمور عند هذا الحد. ينبغي أن تقترن بخطوة موازية على صعيد الجبهة الاسرائيلية ـ السورية. وأود أن أعرف إنْ كنتم على استعداد لدعم عملية تسوية شاملة.

ـ اجيب بحزم أن أجل، واعتقد بأنه يتعين عليكم بدوركم أن تؤيدوا تسوية من هذا القبيل. إن المشكلة الأساسية، أضاف كلنتون، هي أمن اسرائيل. والذين يعارضون الاتفاق في ذلك البلد إنما يعبِّرون عن مخاوفهم من أن يضعف بعد أكثر أمن اسرائيل. لذلك، لا مناص من أن يصار إلى حل الخلاف القائم بينكم وبين اسرائيل، ولا مناص بالأحرى، يا سيادة الرئيس، من أن تعملوا أنتم على حل هذا الخلاف. يوم الاثنين ١٣ أيلول، ستتاح لكم الفرصة لاعطاء إشارة واضحة للاسرائيليين، القلقين على أمنهم. فإذا ما حضر سفيركم الاحتفال

الذي سيقام في ذلك اليوم، فإن من شأن بادرة كهذه أن تثبت أنكم جادون.

ـ إني أدرك هواجسكم، أجاب الرئيس الأسد عن طريق مترجم، ولكن أود أن اتأكد من أنكم سوف تدللون على حرص مماثل على حفظ مصالحنا. فالناس عندنا قلقون بدورهم، ولا يرغبون في أن يصار إلى إهمالهم أو هضم حقوقهم من جراء إبرام هذا الاتفاق.

بعد أن أغلق كلنتون الخط عاد إلى الاتصال مطولاً مع لس اسبن، وزير دفاعه: «إن الرأي العام الاسرائيلي هو أولى أولوياتنا. يتعين اقناعه وطمأنته وإلا تعاظم شأن المعارضة إلى حد عرقلة كل اتفاق شامل، بما فيه الاتفاق مع سورية. ليكن الاسرائيليون على ثقة، يا لس، أضاف كلنتون، بأن حجم المساعدة أو الدعم العسكري الأميركي لن يتراجع حتى ولو جرى التوقيع على معاهدة سلام. وأريدك أن تطلب من الخبراء في البنتاغون أن يبحثوا مسألة زيادة مساعدتنا العسكرية لاسرائيل للتخفيف عنها من عبء النفقات التي ستترتب على إعادة نشر قواتها المتمركزة في قطاع غزة وأريحا».

تسارعت الأمور في نهاية بعد ظهر يوم الجمعة ١٠ أيلول/ سبتمبر. فقد تلقى دنيس روس، المنسق الخاص لقضايا الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأميركية، جواب الفريقين. فشيمون بيريز هو الذي سيرأس الوفد الاسرائيلي الذين سيحضر احتفال يوم الاثنين ١٣ أيلول/ سبتمبر في واشنطن. أما الرسالة القادمة من تونس فقد كانت أكثر غموضاً: فالوفد الفلسطيني لم يتشكل بعد، لكن الأميركيين افيدوا بأن أبا مازن، الرجل الثاني في م.ت.ف، سيترأسه على الأرجح.

في الساعة السابعة مساءً تلقى مسؤول في الخارجية، كان يتولى تأمين الدوام، نبأ «يحرق الأصابع» على حد تعبير أحد مساعديه. فقد أبلغت حنان عشراوي الإدارة الأميركية بأن ياسر عرفات سيحضر شخصياً إلى واشنطن.

ونُقِل النبأ على الفور إلى دنيس روس فارتبك إلى أبعد الحدود. وبادر إلى مخابرة وارن كرستوفر الذي كان قد دعا، عشية ذلك اليوم، عدداً من الصحفيين

لتناول كأس في داره في جورجتاون.

غادر الوزير صالون داره للرد على المكالمة.

ـ سوف يكون عرفات في حديقة البيت الأبيض يوم الاثنين، أعلن روس.

فسأله كرستوفر مشدوهاً:

ـ اواثق أنت من ذلك؟

ـ بكل تأكيد. فقد تلقينا النبأ تواً.

وعاد رئيس الدبلوماسية الأميركية إلى ضيوفه وإلى مسايرتهم بلطافة وكياسة، لاجماً نفاد صبره على مدى السهرة التي طالت كثيراً. ولكن ما أن ودّع آخر صحفي حتى هرول نحو الهاتف وتحدث بإسهاب مع بيل كلنتون على الخط الخاص الذي يصله باستمرار بالرئيس.

أعلن هذا الأخير، وقد فوجىء بالنبأ الذي نُقل إليه:

ـ يتعين على رابين أن يكون حاضراً بدوره.

ـ أنت على حق يا سيادة الرئيس، لكن رابين قد أدلى، قبل قليل، بتصريح أشار فيه إلى أنه «بعد طول تفكير، قرر عدم الحضور».

ـ اتصل به، أجاب كلنتون، وإذا ما عجزت عن اقناعه فسوف أكلمه بنفسي.

بعد منتصف الليل بقليل، بحسب توقيت واشنطن، اتصل كرستوفر برابين في منزله. كانت السادسة صباحاً في القدس، من يوم السبت ١١ أيلول/ سبتمبر. لم يكن رئيس الوزراء قد غادر فراشه بعد عندما تلقى مكالمة الأميركي. والواقع ان رابين كان على علم بمجيء عرفات عن طريق سفارة اسرائيل في واشنطن. وباقتضاب وسخرية في آن معاً رد على وزير الخارجية الأميركي قائلاً: «إذا ما حضر وإذا ما دعوتموني إلى الحضور، فلست أرى من حل آخر سوى أن أحضر بدوري».

وقال لاحقاً، مسراً إلى أحد المقربين منه: «لم يكن لدي من خيار آخر!».

والواقع ان رئيس الحكومة الاسرائيلية يدرك كم هو في حاجة إلى الدعم

الأمـيركـي، شأن عـرفات تمـاماً. فـرئيس م.ت.ف يعيش على هـاجس تخلي الولايات المتحدة عنه وهـو يعلم أن المسؤولين الأمـيركيين، ولاسيـما في وزارة الخارجية، يشعرون بارتياب عميق تجاهه.

في عام ١٩٨٨، كانت واشنطن قد عللت رفضها منح تأشيرة دخول لعرفات بأن أثارت مسؤولية أحد المقربين منه في حادث الاعتداء الذي وقـع في العام ١٩٨٦ على طائرة تابعة لشركة T W A. وكان المتهم في هذا الحادث، العقيد هواري، تابعاً لقوات الـ ١٧ ولأجهزة مخابرات فتح. غير أن التهمة الموجهة إليه لم تدعّم بأدلة. وكان عرفات قد صارح الدبلوماسي الأميركي الذي أبلغه ذلك الرفض قائلاً: «نحن شعب محتل. أفلا يخولنا هذا الوضع حق المقاومة؟ أفلم يحارب جورج واشنطن الإنكليز في بلدكم؟ هل كان إرهابياً؟».

وفي يوم الحادي عشر من أيلول هذا، أعلن أحد المعارضين داخـل فتح لسياسة رئيس م.ت.ف قائلاً: «إن هذا الاتفاق إما أن يكون لعرفات نصره الأكبر أو قبره».

في اسرائيل كذلك اشتدت حدة الانتقادات، ولاسيما في الصحافة، تحسباً لهذا اللقاء بين رابين والزعيم الفلسطيني. فعلى صعيد الرأي العام حصل زلزال نفسي حقيقي، لخصه على خير نحو المقال الافتتاحي لصحيفة يومية اسرائيلية: «على مدى ثلاثين عاماً، جسّد عرفات في نظرنا الشيطان بعينه. فعندمـا كان رفـائيل ايتـان قائـداً للجيش في العام ١٩٨٢، كـان ينعت مقاتـلي م.ت.ف بـ (الصراصير المحقونة بالمخدرات). أما آرييل شارون، وزيره آنذاك، فكان يصف عرفات بأنه (مخلوق عجيب يغطي الشعر وجهـه). ومع أن الكثيرين من بيننا كانوا يدركون بأن للدعاية هامشها في مثل هذا الكلام، فقد ترعرعنا على كل حال على هذه الصور. كان يتعين، أساساً، إعطاء الرأي العام الوقت الكافي لهضم عملية الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن إذا بالأمور تتسارع، وإذا الحكومة تبدو وكأنها ما عادت قادرة على السيطرة على ايقاع الحركة. وهذا أمر خطير».

وعند حديثها عن اللقاء المرتقب تنبأت صحيفة جيروزالم بوست بأنه سيكون «مشهداً بذيئاً».

حتى تلك اللحظة كان الرجل الأشد استياء في اسرائيل هو شيمون بيريز. فقد كان وزير الخارجية حزم حقيبته استعداداً للسفر إلى واشنطن. وكان يعتبر بأن الاحتفال الذي سيجري في البيت الأبيض سيكون بمثابة «تتويج سياسي» حقيقي له.

بيد أن نبأ عاجلاً بثته الإذاعة الاسرائيلية بدّد حلمه. فقد جاء في مفاد النبأ أن رئيس الوزراء قرر أن يترأس شخصياً الوفد الاسرائيلي. وصعق بيريز لدى سماعه الخبر. فرابين لم يكلف نفسه حتى مشقة إعلامه به.

سيطرت عليه بعد ذلك سورة من الغضب الشديد. قرر الامتناع عن السفر وطلب من مساعديه ومن الشخصيات التي كان دعاها لمرافقته أن تحذو حذوه. ولكن في يوم الأحد ١٢ أيلول/ سبتمبر، بعد الساعة السادسة مساء بقليل، ارتقى، خلف رابين، سلم الطائرة التي كانت تتهيأ للاقلاع باتجاه العاصمة الأميركية.

تنبه الصحفيون الذين كانوا على متن الطائرة، للحال، لغياب شخصين اثنين. اقتربوا من بيريز وسألوه:

ـ أين يائير هرشفلد ورون بونديك؟

فأجابهم الوزير بلهجة غير مبالية:

ـ في اتصالاتهم مع الفلسطينيين لم يسلكا قناة شرعية. وفي مطلق الأحوال، أضاف بيريز بوقاحة مذهلة، عندما تحصل عملية وضع، لا يدعى لحضورها بالضرورة طاقم المستشفى برمته.

هكذا جرى التشطيب على «مجنوني السلام»، اللذين لولاهما لما حدث الحدث أصلاً، من الذاكرات الرسمية. ويبدون مرارة أو خيبة، بل فقط بقدر من الدهشة أمام هذا الاستخفاف بدورهما، علّق الرجلان على ما حصل. «ما عاد

أحد يتعرّف علينا، قال بونديك. ليس من السهل على جميع هؤلاء أن يتجاهلوا وجودنا؛ ولكن بعضهم قد استاء على ما يبدو لكون التطورات لم تقع على أيديهم».

ولقد توجه هرشفلد وبونديك إلى واشنطن، ولكن على متن رحلة عادية. «لقد علمنا في وقت مبكّر بأننا غير مدعوين وبأنه لا مكان لنا على متن الطائرة الرسمية»، هذا ما قاله هرشفلد قبل أن يضيف وقد تألقت عيناه بنظرة ساخرة: «ولكننا تمكنا من حضور الاحتفال؛ بل حصلنا على مقعدين ممتازين».

في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أعلن بيل كلنتون للصحفيين، وهو يمارس رياضة العدو في هيوستون، نبأ قدوم عرفات ورابين. كان الرئيس الأميركي يرتدي بنطالاً قصيراً أسود، وقبّعة من اللون عينه، وكان يركض بايقاع محسوب يحيط به زهاء عشرة أشخاص. ابتسم للكاميرات المسلطة عليه وهو يعلن: «إن رئيس الوزراء رابين والرئيس عرفات سيحضران للتوقيع على اتفاق السلام يوم الاثنين».

كان الرئيس الأميركي قد طلب من عدد من الخبراء الرفيعي المستوى أن يضعوا له مذكرات سرية حول النتائج التي قد تترتب على هذا الحدث. وقد رسم زبيغنيو بريجنسكي، رئيس مجلس الأمن القومي في عهد جيمي كارتر، لوحة ايجابية. فقد اعتبر الرجل، الحاد الوجه والفكر معاً، بأن هذا «الاتفاق محصلة عياء تاريخي وتدرب بطيء على الوقائع».

«لقد أدرك العرب بأنهم غير قادرين على تدمير اسرائيل والظفر بالسلام. وأدركت الدولة العبرية بأن حلم اسرائيل الكبرى لن يعود عليها لا بالأمن ولا بالسلام».

ويحسب رأي خبير آخر فإن «عرفات ورابين سيطلقان من عقالها قوى سيصعب عليهما السيطرة عليها لاحقاً، كما حصل مع غورباتشوف في الاتحاد السوفياتي ابتداء من عام ١٩٨٥».

أما بيل كلنتون فقد واجه المسألة بمنتهى البراعة. فعندما انتهى من ركضه

اليومي صارح الصحفيين الذين كانوا يتبعونه قائلاً: «إن أجمل ما في هذه اللحظة أن كل طرف يقدم للآخر فرصة طيبة للتمتع بحياة طبيعية».

وبعد بضع دقائق أضاف، منقاداً وراء ذكرياته: «إن لهذا الحدث أهميته بالنسبة للمسيحيين كذلك. فهي أرضنا المقدسة نحن أيضاً. ولن أنسى أبداً أن المرة اليتيمة التي ذهبت فيها إلى اسرائيل كنت بصحبة راعي ابرشيتي. وقد أسرَّ إليّ لدى عودتنا بأنه يعتقد بأني سوف أصبح يوماً ما رئيساً للولايات المتحدة. كنت آنذاك في الرابعة والثلاثين وكنت أصغر حاكم ولاية سابق في البلاد. ولم أدرك يومها أنه جاد فيما يقول».

ولدى عودته إلى البيت الأبيض في اليوم التالي، عقد كلنتون اجتماع عمل مطول مع المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية والخارجية والدفاع. كان الهدف من وراء هذا الاجتماع: تقييم نتائج الاتفاق.

أما بالنسبة إلى المسؤولين عن ملف الشرق الأوسط في وكالة الاستخبارات المركزية فكان رأيهم أنه «يتعين تطبيق الاتفاق بدقة وسرعة. فنجاحه مرهون بهذين الشرطين. ذلك أن المفاوضات قد تركت جانباً عدداً من القضايا الشائكة. ثم إن كل شيء سيكون رهناً أيضاً بالأموال التي ستوظف في هذه الأراضي. فمن دون زرق كثيف بالرساميل، فقد تتحول غزة إلى صومال جديد».

ورسم خبراء وزارة الخارجية لوحة شاملة عن العالم العربي، قطراً فقطراً.

فالعربية السعودية ليس لها سوى هدف واحد: القدس. والسؤال الكبير هو كيف سيوفّق النظام السعودي بين مشاعره المناهضة لعرفات ولمنظمة التحرير وضرورة تقديم الدعم للكيان الجديد.

ومصر كانت السبّاقة إلى عقد السلام مع اسرائيل، والمصالحة العربية ـ الاسرائيلية ستجعلها تفقد مكانتها الدبلوماسية المميزة باعتبارها النظام الوحيد القادر على مفاوضة الفريقين. وقد بدأت القاهرة تظهر مخاوفها من تقليص محتمل لحجم المساعدات الأميركية (٣ مليارات من الدولارات سنوياً) إذ إن جزءاً من هذه المساعدات قد يذهب إلى الكيان الجديد.

أما بالنسبة إلى العراق، فإن الاتفاق قد يزيد من عزلة بغداد التي كانت ربطت انسحابها من الكويت بتسوية للنزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني.

أما الأردن، فقد يعتبر أن مواقعه قد أُضعفت وأنه بات مهدداً باحتمال اتحاد كونفدرالي بينه وبين الكيان الفلسطيني الجديد.

وفي سورية، فإن النضال ضد الصهيونية كان، على الدوام، مفتاح العمل السياسي للرئيس حافظ الأسد. وقد يواجه الرئيس السوري صعوبات متزايدة في لبنان في حال سعى هذا الأخير إلى الابتعاد عن دمشق والتقرب من اسرائيل.

وقد خلص التقرير إلى القول: «سيتعين على التعاون العربي ـ العربي أن يستند من الآن فصاعداً على أسس مغايرة، لا على النضال ضد اسرائيل الذي ما أفاد حتى اليوم إلا في تبرير الاستبدادية. إن شعوب هذه البلدان ستفصح عن تطلعاتها إلى المزيد من الديمقراطية وإلى تحولات اقتصادية عميقة. وسوف تضطر الأنظمة إلى تقديم تنازلات هامة مع الأيام تجاه شعوبها، وإلا وجدت نفسها في مأزق».

وربما كان هذا الاستنتاج سابقاً لأوانه إلى حد ما، ومبالغاً في التفاؤل إلى حد كبير. وقد دلل وزير الخارجية المصري، عمرو موسى، عن رؤية أوضح للأمور عندما صرح قائلاً: «هل دخل الشرق الأوسط حقاً عصراً جديداً؟ كلا، بيد أنه سوف يدخل في عصر جديد».

وقد بدا الرئيس الأميركي، وهو يطالع المذكرات بتركيز شديد، مأخوذاً للغاية بأحد العروض حول «النقاط الغامضة والملتبسة في الاتفاق» والتي، بحسب رأي أحد الخبراء، «ترجىء إلى مرحلة لاحقة حل المسائل العالقة».

فالنص، على سبيل المثال لم يحدد هل سيقتصر الانسحاب العسكري الاسرائيلي على مدينة أريحا أم أنه سيشمل منطقة أريحا كلها.

كما أنه لم يشر إلى الجهة التي ستشرف على جسر اللنبي، نقطة العبور بين اسرائيل والأردن.

كذلك، فإن سكان القدس العرب، وتعدادهم مئة وخمسون ألف نسمة، سيشاركون في انتخاب المجلس الفلسطيني المقبل، بيد أن مدينة القدس تبقى

خارج حدود منطقة الحكم الذاتي التي لم يصر، أساساً، إلى رسم حدودها بدقة.

وبنود الاتفاق، أخيراً، لا تطبّق على المستوطنات اليهودية التي يقارب عددها المئة والخمسين والتي تضم أكثر من مئة ألف شخص. وما من بند قد أشار إلى احتمال إزالة هذه المستوطنات أو إعادتها. ثم إن الاتفاق لم يعط ايضاحات حول عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين غادروا إبان حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧، والذين ستحق لهم العودة إلى ديارهم.

كان عرفات قد طلب من رابين أن يُسمح لـه بالعـودة «برفقـة مئة ألف لاجىء»، لكن الرجل الأول الاسرائيلي واجه هذا الطلب بالرفض.

وفي لحظة من اللحظات سأل الرئيس الأميركي وقد بدت الحيرة عليه: «ماذا سيحصل في حال اقدام فلسطينيين من حركة حماس على تنفيذ عملية ارهابيـة داخل اسرائيل وعلى الانكفاء من ثم إلى قطاع غزة ؟ هل الشرطة الفلسطينية هي التي ستتـدخـل عنـد ذاك، أم أنـه سيحق لاسرائيـل ارسـال قـوات من جيشها؟».

ورفع المسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية ذراعيه إلى السماء في حركة استسلام: «سيادة الرئيس، ما من أحد يستطيع الاجابة عن هذا السؤال. فثمة الف سيناريو من هذا القبيل، وجميع هذه السيناريوهات محتملة».

وكان إسحق رابين قد أعلن من طرفه، بلهجة حانقة: «إن الذين يدّعون بأن هذا الاتفاق خليق بتهديد أمن إسرائيل، إنما يوجهون إهانة للجيش».

بيد أن عدداً من الخبراء العسكريين من حوله اعتبروا أن «الاتفاق غامض، بل غامض أكثر مما ينبغي، فيما يتعلق بجملة من النقاط على الصعيد الأمني».

كان مسؤول في «شين بيت»، أي وكالة الاستخبارات المشرفة على الأمن الداخلي في اسرائيل، قد طرح في أحد الاجتماعات السؤال التـالي على رئيس الوزراء: «إذا قرر عرفات على حين غرة ذات يوم، بعد أن يكون قد استقر في أريحا، أن يصلي في القدس التي تبعد زهاء أربعين كيلومتراً، فكيف سيسعنا منعه من ذلك؟».

والحال أن إسحق رابين كان على يقين بأنه يمسك بورقة رابحة تمكّنه من أن يعرف مسبقاً ما قد ينوي عرفات الاقدام عليه. إنه جاسوس كان الموساد قد نجح في دسه قبل أربعة أعوام في محيط الزعيم الفلسطيني. كان هذا الجاسوس يدعى حسن ياسين، وكان يشغل منصب المسؤول الثاني في سفارة م.ت.ف في تونس. وقد أنيطت به، على نحو خاص، مهمة إعداد الرحلات وضمان أمن المنظمة. وقد تمكن من الاطلاع على المحادثات الأكثر سرّية التي دارت بين أبي مازن وبين مفاوضيه في النرويج، أبي العلاء وحسن عصفور، وذلك بفضل أجهزة الاستماع المتطورة للغاية التي نجح في زرعها في مكتب الرجل الثاني في منظمة التحرير. وهكذا قيض أكثر من مرة للمسؤولين الاسرائيليين، وخلال المراحل الحرجة من المفاوضات، أن يطلعوا سلفاً على التكتيك الذي سوف يتبناه المحاورون الفلسطينيون. ولكن في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣ افتضح أمر حسن ياسين وانتهى أمره.

قبيل الاحتفال الذي جرى في واشنطن في ١٣ أيلول/ سبتمبر حصلت، في اللحظة الأخيرة، مواجهة في الكواليس. ففي الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم اتصل عرفات بأحمد طيبي في غرفته وقال له، على الهاتف، بصوت متوتر:

ـ احضر للحال. لن أقوى على التوقيع.

وهرول الطيبي إلى الجناح الرئاسي وسأل عرفات:

ـ ما الذي يحصل؟

ـ اسمع، لقد استحال علي النوم طيلة هذه الليلة. لقد طالعت مراراً وتكراراً نص الاتفاق. ثمة نقطة فيه لا يمكن القبول بها. فهو يشير، عندما يتحدث عنا، إلى «الوفد الفلسطيني»، والحال أنه ينبغي أن يستعاض عن هذه التسمية بأخرى، بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفي الساعة السادسة والربع اتصل الطيبي بشيمون بيريز المقيم في فندق مايفلاور. فبادر هذا الأخير إلى استدعاء يوئيل سنجر الذي كان يحلق ذقنه آنذاك في غرفة مجاورة.

واستمرت عملية «شد الحبل» بين الوفدين بعضاً من الوقت، وأبدى كل فريق تمسكاً بموقفه.

وحوالي التاسعة والنصف، أبلغ الطيبي بيريز بأن عرفات سيقفل راجعاً للحال إلى تونس إن لم يصر إلى ادخال تعبير «م. ت. ف».

ـ حسناً، أجاب بيريز ببرود. تذهبون أنتم إلى تونس ونتوجه نحن إلى البيت الأبيض.

في العاشرة أُفيد بيريز ورابين بأن عرفات لم يستدع سائقه ولا الوفد المرافق له قصد التوجه إلى مكان الاحتفال. وفي العاشرة وإحدى وثلاثين دقيقة أعلن بيريز للطيبي: «حسناً، اوافق على استخدام تعبير ‹وفد م. ت. ف›». وأضاف بعد ذلك: «بما أن النصوص كافة قد طبعت وغدت جاهزة، فسوف نشطب على الصيغة المختلف عليها ونكتب ‹م. ت. ف› بخط اليد».

سارع الطيبي إلى الهاتف ليسأل عرفات:

ـ هل توافقون على «وفد م. ت. ف»؟

ـ أجل، ولكن أواثق أنت من موافقتهم النهائية على ذلك؟

ـ لقد قطع لي بيريز عهداً بهذا الصدد.

ـ أبعث لك أذن، أجاب عرفات، بثلاث قبلات. اثنتان لك، والثالثة لبيريز.

في الساعة ١٠,٤٥ انبىء سنجر، عن طريق الخارجية الأميركية، ببروز «خلاف جديد». فقد أبلغه دنيس روس بقوله: «لم نعد متأكدين مما جرى الاتفاق عليه بالضبط. ثمة اقتراح بأن يشطب، بقلم الحبر، على عبارة ‹الوفد الفلسطيني› وبأن تستبدل بأخرى، مكتوبة بخط اليد، هي ‹وفد م. ت. ف›. لكن الفلسطينيين يرفضون هذا الحل ويطالبون باستبدال الصفحة الجاهزة بأخرى يكون فيها اسم «م. ت. ف» مطبوعاً لا مخطوطاً باليد.

ـ ولكن ما الفارق؟ سأل سنجر.

أجاب روس:

ـ سوف توقعون أنتم في الأول. ومن ثم فإن بيريز هو الذي سيشطب على

العبارة المطبوعة «الوفد الفلسطيني» ليكتب مكانها، بيده، «م.ت.ف». لكن ما يخشاه الفلسطينيون هو أن تعلنوا لاحقاً بأنكم غير ملزمين بهذا التعديل.

كان الاحتفال سيبدأ بعد خمس دقائق. سنجر الذي كان قد أمَّن إعادة طبع الصفحة المطعون فيها على أربع نسخ، تمكن من الدخول إلى البيت الأبيض. مر أمام الحديقة التي كان المدعوون كافة قد أخذوا أمكنتهم فيها وتولى أحد الحراس مرافقته حتى مشارف القاعة التي كان أعضاء الوفدين ينتظرون فيها. لم يبق إلا دقيقتان حتى تشير عقارب الساعة إلى الحادية عشرة.

سأل سنجر أحد معاوني كلنتون:

ـ هل يمكنك أن تطلب من الوزير شيمون بيريز أن يخرج؟ فالأمر مستعجل للغاية.

وقدم الوزير:

ـ ما الذي حصل أيضاً؟

عرض عليه سنجر المشكلة، وكان جواب بيريز:

ـ أوافق شخصياً على استبدال الصفحات، ولكن ينبغي أن أفاتح رابين بذلك.

أعطى رئيس الوزراء الضوء الأخضر، وهرول سنجر نحو المنصة وحاول أن يفك جلد الوثائق الأربع المعدّة للتوقيع ليدرج فيها الصفحات الجديدة. ولمّا لم يفلح عمد إلى ربطها بها بواسطة شكّالات.

وقد تأخر موعد افتتاح الاحتفال زهاء عشر دقائق.

حال انتهاء مراسم هذا الاحتفال توجه رابين وبيريز إلى الطائرة التي ستقلهما إلى اسرائيل. وما كادت الطائرة تقلع من قاعدة اندروز، القريبة من واشنطن، حتى وجهت رسالة منها إلى القصر الملكي في الرباط، عبَّر فيها المسؤولان الاسرائيليان للملك الحسن الثاني عن رغبتهما في التوقف لمحطة قصيرة في المغرب كيما تتسنى لهما فرصة «تحيته وشكره على كافة الجهود التي بذلها».

وجاء جواب العاهل المغربي بعد ساعتين واضحاً ومقتضباً: «أهلاً بكما».

حطت طائرة البوينغ، التي رسمت عليها نجمة داود، في مطار الرباط، وتوجهت، بعد ذلك، إلى قصر الصخيرات، المنتصب في جوار البحر، حيث كان العاهل المغربي يقيم. وتمنى الحسن الثاني بالعبرية، وأمام كاميرات التلفزيون، «سنة طيبة» لسكان اسرائيل. وشرح له رابين وبيريز بعد ذلك تفاصيل الاتفاق وما الذي ينتظرانه منه. وفي لحظة من اللحظات، مال رابين على الملك وسأله:

ـ يا صاحب الجلالة، أنتم تعرفون عرفات خير معرفة، فهل يمكنكم أن تدعوه إلى أن يباشر الآن العمل بأسرع ما يمكن؟

ـ أعدك بذلك، أجاب الملك.

وعشية ذلك اليوم بالذات التقى بأبي مازن، الرجل الثاني في المنظمة، فأعلن له:

ـ أود أن تقول لعرفات ولسائر أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أني لم التق يوماً بشخصين متلهفين للنجاح وقلقين عليه مثل رابين وبيريز.

في ١٥ أيلول/ سبتمبر عاد بيل كلنتون إلى الاتصال هاتفياً بالرئيس حافظ الأسد. فتقارير وكالة الاستخبارات المركزية واستخبارات الجيش الواردة إلى مكتب الرئيس الأميركي قد أجمعت على أن دمشق تستعد لـ «إعادة تنشيط» المنظمات الفلسطينية المناهضة للاتفاق والمقيمة في الأراضي السورية. فقد كان الرئيس الأسد يخشى من أن تحث الصفقة المعقودة مع الفلسطينيين اسرائيل على تبني موقف أشد تصلباً إزاء دمشق. ولاسيما أن سورية كانت تطالب باتفاق شامل حول مسألة هضبة الجولان وترفض مبدأ الحل المرحلي الذي كان أساس النجاح في المفاوضات مع م.ت.ف. وكان رابين، علاوة على ذلك، يعتبر أن اتفاقاً مع سورية لن «يباع» بسهولة إلى الرأي العام الاسرائيلي.

وقد أسرّ رئيس الوزراء لمستشاريه: «المطلوب منا الآن أن نعطي إشارة

للأسد، كيما نظهر له أننا ما نسيناه، ولكن من دون أن ننتهي إلى اتفاق معلن وفوري معه».

وفي حديثه مع الرئيس السوري تكلم بيل كلنتون بلهجة جادة للغاية:

ـ يتعين عليكم، سيدي الرئيس، أن تشدوا عنان تلك المنظمات التي تهاجم اتفاق السلام.

والحال أن وضع هذا الاتفاق موضع التطبيق قد ثبت، مع الأيام، ومع تبدد النشوة الأولى، أنه أدق بكثير مما كان متوقعاً. لا ريب في أن اسرائيل و م.ت.ف كانتا قد حطمتا أجيالاً بأكملها من المحرمات، الأمر الذي كان حرياً بأن يجعل كل طرف حريصاً على نجاح الطرف الآخر.

ولكن، من جانب م.ت.ف، كانت الأمور تتقدم ببطء محنق. وقد بدا عرفات أشد تشبثاً بسلطته من أي وقت سبق، وقد باءت المحاولة التي قام بها بعضهم في كانون الأول/ دسمبر ١٩٩٣ لدقرطة قيادة المنظمة بفشل ذريع. فعرفات، على حد تعبير أحد المقربين منه، قد أغلق المنافذ أمام كل تغيير. وقد بدت منظمته، علاوة على ذلك، غير مهيأة لتسلم زمام الإدارة المقبلة. فهي تتألف من جيش من البيروقراطيين الغارقين منذ عشرات السنوات في أجواء غير واقعية، شغلهم الشاغل فتح سفارات عبر العالم.

وكان مسؤولون فلسطينيون في غزة، من ناحية أخرى، قد تبنوا غداة التوقيع على الاتفاق لهجة مستغربة في توجههم إلى قواتهم. ومما جاء على لسانهم: «إن هذا الاتفاق مجرد خطوة أولى نحو رمي اليهود في البحر. لقد وافقنا عليه كيما نضاعف فرصنا في القضاء على اسرائيل».

وكان إسحق رابين قد صرّح بدوره أثناء إحدى الجلسات الوزارية: «لسنا على عجلة من أمرنا، لندعهم ينتظرون وهم يراوحون مكانهم». والواقع إن رئيس الوزراء، الداعي إلى التمسك بموقف متشدد، ما كان يعي كل أخطار مثل هذا الموقف.

والحال أن الحدث الذي حصل لم يكن أقل أهمية من انهيار الشيوعية، حتى

ولو اقتصر تأثيره على خمسة ملايين اسرائيلي ومليوني فلسطيني: «فلكأن الله شاء أن يخلق عالماً جديداً» كما كتب أحد المعلقين يقول.

بيد أن عشرات السنوات من المواجهات كانت قد شوهت النفسيات. وقد لخص أوري سافير طبيعة المشكلات الفعلية عندما قال: «إن مبعث قلقي، بالنسبة إلى المستقبل، كون الفلسطينيين في أمسّ الحاجة إلى ما يرضي عزة نفسهم؛ وإن كان من شيء لا نتقنه البتة فهو، على وجه التحديد، إرضاء عزة نفس الآخرين. في أثناء المفاوضات، دللنا على نوع من كرم الأخلاق تجلى في الأمور العملية: ‹أنتم ترغبون في أن تكون لكم شرطة؛ حسناً، خذوا الف شرطي بالزائد›. حتى رابين يتصرف على هذا النحو. ولكننا، في مجال المديح والتملق، رديئون للغاية. إننا نعجز عن أن ندرك أن ما نحتاج إليه نحن، يحتاج إليه، وبالالحاح عينه، من هم في قبالتنا. وهذه الهوة الثقافية لن تسهِّل الأمور».

٢٠

شعوب الكتاب

هل تجربة المفاوضات الاسرائيلية ـ الفلسطينية قمينة بأن تكون مثالاً يحتذى لحل نزاعات أخرى؟ لقد اعتقد النرويجيون ذلك، وبخاصة يوهان يورغن هولست قبل أن يفارق الحياة، على حين غرة، ضحية نزيف في الدماغ. فقد دعا إلى أوسلو الصرب والكرواتيين والبوسنيين؛ ومن ثم الانكليز والايرلنديين. ولكن من دون أن يخرج بنتيجة. ذلك أن لكل نزاع خصائصه المميزة، وتاريخه المميز.

فلئن تكن فكرة كتابة النقاط التي يمكن للطرفين أن يتفقا بصددها، وتثبيتها على الورق، قد أتاحت أمام الاسرائيليين والفلسطينيين فرصة لأن ينسوا، ولو خلال فترة المفاوضات فحسب، مئة عام من الحقد المتراكم، فذلك لأن الأمر كان متعلقاً بشعبين متحدرين من الشرق الأدنى، حيث تسود شريعة «الكتاب» منذ آلاف السنين. لكن ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أنه منذ نقشت هذه الشريعة في الحجر، ثم كتبت على البرديّ، والرق، والورق العادي، فإنها ما فتئت تتعرض للتجاوزات وللانتهاكات.

فهرس

مطبعة دار الكتب ساحة رياض الصلح بناية القطارجية تلفون: ٦٤٥٠٣٩ (٠١)

٢٠٠٠/٩٤/١١٧٣



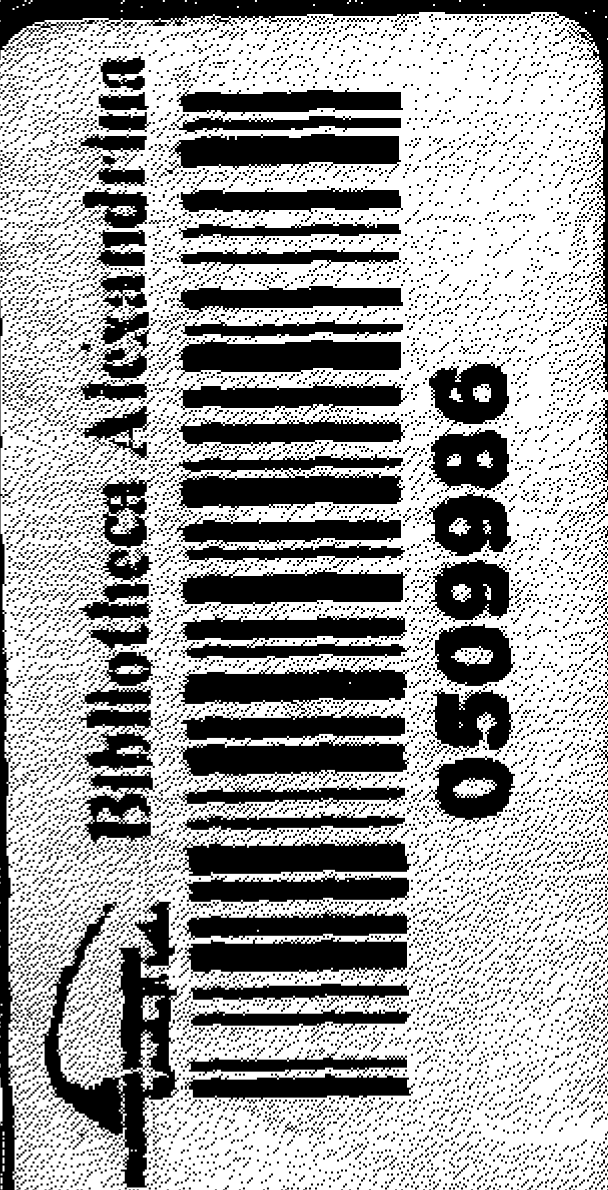
□ تسعة أشهر من مفاوضات سرّية مطلقة. تسعة أشهر من مواجهات متوترة بين رجال يكرهون بعضهم ويتحاربون منذ عشرات السنين. تسعة أشهر تمخّضت في النهاية عن أشهر مصافحة في نهاية القرن العشرين، ألا وهي مصافحة ياسر عرفات الفلسطيني وإسحق رابين الإسرائيلي في حديقة البيت الأبيض الأميركي.

ماريك هالتر إريك لوران

□ **ماريك هالتر**، الكاتب اليهودي المعروف المتعاطف كلّياً مع إسرائيل ومؤلف «ذاكرة إبراهيم» و«أبناء إبراهيم» والصديق القديم لرابين وبيريز، والذي قابل عرفات أكثر من مرة، استجوب ثلاثتهم حول سباق السلام الذي كاد يتوقف أكثر من مرة، وينهار تماماً في إحدى المرات؛ و**إريك لوران**، مؤلف «حرب الخليج» و«عاصفة الصحراء»، والخبير بكواليس البيت الأبيض تتبّع في واشنطن الخطوات السرّية التي مهّدت لذلك الحدث وواكبته حتى اللحظة الأخيرة.

□ وبفضل هذين الكاتبين اللذين تنشر مقالاتها عشرٌ من أشهر الصحف في العالم، سيدخل القارىء إلى قلب مكتب عرفات في تونس خلال اللحظات الحرجة، وإلى مقر رابين في القدس ويستمع إلى مناقشاته الحامية مع بيريز، وسيسافر مع بيل كلنتون على متن طائرته الرئاسية، وسيحضر الاجتماع الرسمي الأول بين الموساد الإسرائيلي والاستخبارات الفلسطينية. . .

□ من أوسلو إلى غزة وأريحا، أنجز المؤلفان بحثاً صحفياً من الطراز [illegible] أعادا بناء جميع الشبكات والقنوات، واستجوبا العديد من قادة الش[illegible] والعاملين في الظل. وكانت المحصّلة كشف النقاب عن التفاصيل السرّ[illegible] وجه العالم.



دار الطليعة للطباعة والنشر - بيرو[illegible]